بيت السهم

إيه إي دبليو ماسون

ترجمة عبد الفتاح عبد الله

بيت السهم

تأليف
إيه إي دبليو ماسون

ترجمة
عبد الفتاح عبد الله

مراجعة
هاني فتحي سليمان

هنـــداوي

بيت السهم

إيه إي دبليو ماسون

The House of the Arrow

A. E. W. Mason

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٨ ٣٨٦٧ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٤.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٥.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

١- تفويض رد اعتداء	٧
٢- صرخة استغاثة	١٧
٣- خدم الصدفة	٢٥
٤- بيتي هارلو	٣٩
٥- بيتي هارلو تجيب	٤٧
٦- جيم يُغيِّر مكان إقامته	٦١
٧- خروج وابرسكي	٦٩
٨- الكتاب	٨٥
٩- السر	٩٩
١٠- الساعة أعلى الخزانة	١١١
١١- مُشتبَه فيه جديد	١١٩
١٢- نزع الأختام	١٢٩
١٣- غرفة كنوز سايمون هارلو	١٣٥
١٤- تجربة واكتشاف	١٤٥
١٥- العثور على السهم	١٥٧
١٦- هانو يضحك	١٦٧
١٧- العشَّاب جان كلاديل	١٧٧
١٨- الحبة البيضاء	١٩١
١٩- إحباط الخطة	٢٠٣
٢٠- الخريطة والعقد	٢١٣

٢١- المنزل السري ٢٢١
٢٢- آلة كورونا ٢٢٩
٢٣- حقيقة الساعة على الخزانة المطعمة ٢٣٩
٢٤- حكاية آن أبكوت ٢٤٧
٢٥- ما حدث ليلة السابع والعشرين ٢٥٧
٢٦- واجهة نوتردام ٢٦٥

الفصل الأول

تفويض رد اعتداء

تقع شركة محاماة السادة فروبيشر آند هاسلت في الجهة الشرقية من راسل سكوير، وكان من بين عملاء الشركة عدد كبير من رجال الأعمال الذين لديهم مشاريع تجارية في فرنسا؛ وكان هذا الفرع من نشاط الشركة مصدر فخر كبير لها.

دائمًا ما كان يقول السيد جيريمي هاسلت: «شركتنا تحجز لنا مقعدًا في التاريخ. فتاريخها يعود إلى عام ١٨٠٦، حين نظَّم السيد جيمس فروبيشر المفعم بالحيوية والنشاط — والذي كان حينها شريكنا الأساسي — هروب مئات الرعايا البريطانيين الذين احتُجزوا في فرنسا بموجب مرسوم نابليون الأول. وقد تلقَّت الشركة شكرًا من حكومة جلالة الملك، وكانت سعيدة الحظ بما يكفي لتحتفظ بهذه الرابطة بينها وبينه. وأنا أتابع هذا الجانب من أعمالنا بنفسي.»

ولهذا كانت دفعة الرسائل اليومية التي يتلقاها السيد هاسلت تضم عادةً عددًا لا بأس به من الرسائل التي تحمل الشعار الأزرق الداكن الخاص بالبريد الفرنسي على مظاريفها. لكن في هذا الصباح من بواكير شهر أبريل، لم يكُن هناك سوى خطاب واحد يحمل هذا الشعار. كان الخطاب مكتوبًا بخط رفيع ومشوَّش لا يألفه السيد هاسلت. لكنه كان يحمل شعار بريد ديجون، ففتحه السيد هاسلت مسرعًا. كان لديه عميل في ديجون، أرملة اسمها السيدة هارلو، وقد تلقى مؤخرًا تقارير غير مُبشِّرة عن صحتها. مما لا شك فيه أن الخطاب كان مرسلًا من بيتها، واسمه منزل كرينيل، لكنها لم تكُن هي مَن كتبته. ثم نظر السيد هاسلت إلى التوقيع.

وقال مقطبًا: «وابرسكي؟ بوريس وابرسكي؟» ثم لمَّا أدرك الراسل قال: «أوه، أجل، أجل.»

جلس السيد هاسلت في كرسيه وشرع يقرأ. كان الجزء الأول من الخطاب مجرد إطراء ومجاملات، لكن بعد برهة من قراءته للصفحة الثانية منه، صار غرض الخطاب واضحًا له كالشمس. كان يريد كاتبه ٥٠٠ جنيه. ابتسم السيد هاسلت واستكمل قراءته، وانخرط مع الكاتب في محادثة أحادية الجانب.

كتب بوريس: «لي حاجة كبيرة بهذا المال، و...»

وقال السيد هاسلت: «أنا واثق من هذا.»

وجاء في الخطاب: «أختي الحبيبة جين ماري ...»

فصحَّح له السيد هاسلت: «بل هي زوجة أخيك.»

وأردف بوريس: «... لن يطول بها العمر، رغم ما أقدمه لها من رعاية واهتمام. لقد تركت لي، كما تعلم بكل تأكيد، جزءًا كبيرًا من ثروتها. إذَن، هذا المال ملك لي، أليس كذلك؟ يسعني أن أقول هذا ولا يُساء فهمي. لا بد أن نكون واقعيين عندما ننظر إلى وقائع الأمور. فلتعجِّل لي إذَن في إرسال بعض ما هو ملك لي بالبريد المسجل، وتقبل خالص تحياتي.»

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه هاسلت. في أحد صناديقه الصفيحية كانت هناك نسخة من وصية جين ماري هارلو، وقد خطَّها كاتب العدل الفرنسي الخاص بها وصاغها على النحو المناسب في ديجون، وبموجب هذه الوصية، أصبح كل فلس تملكه تركة غير مشروطة لابنة أخت زوجها وابنتهما بالتبنِّي بيتي هارلو. كاد جيريمي هاسلت يتخلَّص من ذاك الخطاب. فقد طبَّقه؛ وكانت أصابعه تشدُّه بقوة؛ وحدث بالفعل قطع في حواف الورقة قبل أن يغير رأيه.

قال في نفسه: «كلا، كلا! مع وجود أمثال بوريس وابرسكي لا شيء مضمون.» ثم احتفظ بالخطاب على رف في خزانته الخاصة.

سرَّه أنه فعل ذلك حين قرأ بعد ثلاثة أسابيع في عمود النعي في صحيفة «ذا تايمز» إعلان وفاة السيدة هارلو، كما تسلَّم بطاقة كبيرة ذات حافة شديدة السواد على الطراز الفرنسي من بيتي هارلو تدعوه إلى حضور الجنازة في ديجون. لم تكُن الدعوة سوى إجراء صوري. فلن يكون بإمكانه الوصول إلى ديجون في الوقت المناسب لحضور مراسم الجنازة حتى إن انطلق من فوره. فاكتفى السيد هاسلت بكتابة بضعة أسطر من المواساة الصادقة إلى الفتاة، وأرسل خطابًا إلى كاتب العدل الفرنسي وضع فيه خدمات الشركة تحت تصرف بيتي. ثم ركن إلى الانتظار.

قال السيد هاسلت: «سيصلني خطاب آخَر من بوريس»، وهذا ما حدث بالفعل خلال الأسبوع. كان الخط الذي كتب به الخطاب أكثر تشوُّشًا من ذي قبل؛ فقد أضرَّ الغضب والسخط بخط وابرسكي وبإنجليزيته؛ علاوةً على أنهما ضاعفا المبلغ الذي طلبه.

كتب وابرسكي: «لا أصدق أبدًا. لم تترك لي شيئًا، أنا أخوها المبالي لأمرها. ثمة خطْب لا يروق لي هنا. لا بد أن أحصل على ١٠٠٠ جنيه الآن بالبريد المسجل. كانت تقول لي والدموع تنهمر من عينَيها الحبيبتين: «لطالما كان العالم مستغلقًا في وجهك يا عزيزي بوريس المسكين. لقد كتبت لك في وصيتي قدرًا لا بأس به.» والآن لا أجد شيئًا! لقد تحدثت بالطبع مع ابنة أخي ... تلك العنيدة! تعاملني بازدراء! أهذا سلوك مقبول؟ ١٠٠٠ جنيه أيها السيد! وإلا فسيكون هناك متاعب! أجل! لا أحد يزدري بوريس وابرسكي من دون أن يدفع ثمن ذلك. إذَن هي ١٠٠٠ جنيه عن طريق البريد المسجل وإلا المتاعب»؛ ولم يدعُ بوريس وابرسكي السيد هاسلت أن يتقبَّل تحياته، خالصة كانت أو غير ذلك، لكنه وقَّع ببساطة باسمه وبخط عشوائي.

لم يبتسم السيد هاسلت لهذا الخطاب. بل أخذ يفرك راحتي يديه بهدوء.

وقال على عجل: «سيتعيَّن علينا إذَن أن نثير نحن بعض المتاعب أيضًا.» ثم وضع هذا الخطاب الثاني حيث وضع الأول. لكن السيد هاسلت أحسَّ بشيء من الصعوبة في الاستقرار والانكباب على العمل. تلك الفتاة هناك، في ذلك المنزل الكبير في ديجون، وحدها ولا أحد من قومها بالقرب منها! نهض السيد هاسلت من كرسيه فجأةً واجتاز الممر إلى مكتب شريكه الغِر.

وقال: «جيم، كنت في مونت كارلو هذا الشتاء، أصحيح هذا؟»

أجابه فروبيشر: «مدة أسبوع، أجل.»

«أظنُّ أنني طلبت منك أن تعرِّج على عميلة لنا تملك فيلَّا هناك ... السيدة هارلو.»

أومأ جيم فروبيشر. وقال: «فعلت. لكن السيدة هارلو كانت مريضة. وكان ثمة قريبة لها، لكنها لم تكن موجودة.»

فسأله جيريمي هاسلت: «لم ترَ أحدًا إذَن، أليس كذلك؟»

فردَّ عليه جيم: «بلى. رأيت مخلوقًا غريبًا ليتلو عليَّ أعذار السيدة هارلو ... كان روسيًّا.»

فقال السيد هاسلت: «بوريس وابرسكي.»

«صحيح، هذا هو اسمه.»

فجلس السيد هاسلت في كرسي.

قال: «أخبرني عنه يا جيم.»

حدق جيم فروبيشر في الفراغ قليلًا. كان شابًّا في السادسة والعشرين من عمره، ولم ينضمَّ إلى الشراكة إلا في العام الماضي. ورغم أنه كان سريعًا بما يكفي حين تطلب الأمر سرعة الأداء، فقد كان متأنِّيًا فيما يتعلَّق بالحكم على الآخرين؛ وقد تضاعف هذا التأني الفطري لديه بفعل رهبة مُعيَّنة من جيريمي هاسلت العجوز في أيٍّ من الأمور التي تتعلَّق بعمل الشركة. وردَّ عليه باستفاضة.

«إنه رجل طويل وبطيء الحركة، له كتلة من الشعر الرمادي التي تنتصب كالأسلاك فوق جبهته الصغيرة وله عينان مضطربتان. رؤيته جعلتني أتصور دمية متحركة لم تُزوَّد أطرافها بالخيوط على النحو الملائم. وأتصوَّر أنه يتسم بالتهور والانفعال. فقد أخذ يعبث بشاربه بأصابعه الطويلة للغاية والملطخة بالتبغ. بدا من النوع الذي يفقد رباطة جأشه ويتصرَّف بغضب شديد في أي لحظة.»

ابتسم السيد هاسلت.

«هذا ما ظننته تمامًا.»

سأله جيم: «هل يسبب لك أي مشكلة؟»

فقال السيد هاسلت: «ليس بعد. لكن السيدة هارلو ماتت، وأظن أنه من المرجَّح كثيرًا أنه سيفعل. هل كان يلعب القمار؟»

«أجل، كان يقامر بمبالغ كبيرة نوعًا ما. أعتقد أنه كان يعيش عالةً على السيدة هارلو.»

فقال السيد هاسلت: «هذا ما أعتقد أيضًا»، ثم جلس في صمت لبرهة. بعد ذلك أضاف: «من المؤسف أنك لم ترَ بيتي هارلو. كنتُ قد توقفت لزيارة ديجون ذات مرة وأنا في طريقي إلى جنوب فرنسا قبل خمس سنوات حين كان سايمون هارلو، زوج السيدة هارلو، ما يزال على قيد الحياة. كانت بيتي حينها صبية نحيلة طويلة الساقين ترتدي جوارب حريرية سوداء طويلة وذات وجه شاحب وبشرة رائقة وشعر داكن وعينين واسعتين ... كانت صبية جميلة.» وتململ السيد هاسلت في كرسيه. لم تكُن تَروقُهُ صورة تلك الفتاة وهي وحيدة في ذلك المنزل العتيق ذي الحديقة الكبيرة بأشجار الجميز والقسطل، وبرفقتها رجل مكروب وشبه مجنون يخطِّط لها المتاعب!

قال السيد هاسلت فجأةً: «جيم، هل تستطيع تدبُّر أمورك بحيث تنطلق في رحلة خلال مهلة قصيرة، إذا ما استدعى الأمر ذلك؟»

رفع جيم نظره في دهشة. لم يكُن من ديدن شركة فروبيشر آند هاسلت كما يُقال، أن تجري الأمور فيها بفوضوية واضطراب. إنْ كان أثاث الشركة وضيعًا، فإن أساليبها بارعة؛ قد يكون العملاء على عجل، لكن الشركة لم تعتمد يومًا على الاستعجال والتسرُّع. لا شك أن ثمَّة شركة في مكانٍ ما بالقرب من شركتهما تتَّبع هذا الأسلوب. لكن السيد هاسلت بنفسه، بشعره الأبيض ووجهه الفضولي المستدير، الذي ينمُّ عن ذكاء استثنائي وطفولية في آنٍ معًا، يطلب من شريكه الأحدث أن يكون على استعداد للسفر خارج البلاد فورًا إذا تطلَّب الأمر ذلك.

قال جيم: «أستطيع ذلك بكل تأكيد»، ونظر إليه السيد هاسلت بإعجاب واستحسان.

كان جيم فروبيشر لديه سمة شخصية غريبة لم يكُن معارفه ولا حتى أصدقاؤه يعرفون عنها إلا علاماتها الظاهرية. كان الشاب معتزلًا. حتى هذا الحين، لم يكُن يهمه حقًّا إلا قلة قليلة من الناس، وحتى هؤلاء كان بمقدوره الاستغناء عنهم. كان شغفه أن يشعر بأن حياته ووسائل معيشته لا تعتمد بأي حال من الأحوال على الآخرين؛ وقد أمضى الشهور الخالية من حياته في تحقيق هذا الشغف. في الكثير من البعثات التي خرج فيها وحيدًا، برفقة النجوم وأفكاره، لم يكُن معه سوى قارب شراعي صغير يستطيع رجل واحد تولِّي أمر قيادته، ومعول ثلج وبندقية ومجلد كبير أو نحو ذلك من الكتب، مثل كتاب روبرت براونينج بعنوان «الخاتم والكتاب»؛ ولهذا اكتسب لمحة من التحفُّظ جعلته لافتًا للنظر بين أقرانه. كانت تلك اللمحة مضللة، لأنها توحي بثقة ربما لم يكُن يوجد ما يُبرِّرها بالقدر الكافي. كانت تلك اللمحة تمامًا هي ما أقنعت السيد هاسلت الآن. فقد فكَّر: «هذا هو الرجل المناسب للتعامل مع المخلوقات أمثال بوريس وابرسكي»، لكنه لم يبُح بهذا بصوت عالٍ.

بل كان ما قاله:

«ربما لا يكون ذلك ضروريًّا في نهاية المطاف. بيتي هارلو لديها محامٍ فرنسي. وهو يتمتع بالكفاءة دون شك. علاوة على ذلك ...» وابتسم عندما تذكر عبارة في الرسالة الثانية من وابرسكي «يبدو أن بيتي لديها القدرة على الاعتناء بنفسها. سنرى.»

ثم عاد إلى مكتبه الخاص، ولم تأتِه أخبار من ديجون أكثر من ذلك طَوال أسبوع. في الواقع، كاد السيد هاسلت ينسى ما كان يقلقه عندما وصلت فجأة أخبار مذهلة، ومن قناة اتصال هي أبعَد ما تكون عن التوقُّع.

كان جيم فروبيشر هو مَن جاء بهذه الأخبار. إذ اقتحم مكتب السيد هاسلت في الوقت المحظور، عندما كان الشريك الأكبر يملي على الكاتب الردود على رسائله الصباحية.

صرخ جيم «سيدي!» وتوقف فجأة عند رؤية الكاتب. ألقى السيد هاسلت نظرة سريعة على وجه شريكه الشاب وقال:

«سنستأنف هذه الردود يا جودفري في وقت لاحق.»

خرج الكاتب من الغرفة ومعه دفتر ملاحظاته، وتحول السيد هاسلت إلى جيم فروبيشر.

«والآن، ما هي الأخبار السيئة يا جيم؟»

أطلعه جيم على الأخبار.

«وابرسكي يتهم بيتي هارلو بالقتل.»

«ماذا!»

هبَّ السيد هاسلت واقفًا. لم يستطِع جيم فروبيشر أن يحدِّد ما إذا كان الإنكار أو الغضب هو المهيمن على الرجل العجوز حينها أم لا؛ إذ كان الإنكار يظهر في تجعيدات جبينه، والغضب يشتعل في عينَيه.

وقال بنبرة مُتعجِّبة: «الصبية بيتي هارلو!»

«نعم. لقد قدَّم وابرسكي عريضة اتهام رسمية إلى مأمور الشرطة في ديجون. اتهم بيتي بتسميم السيدة هارلو في ليلة السابع والعشرين من أبريل.»

هتف السيد هاسلت: «لكن هل أُلقي القبض على بيتي؟»

«كلا، لكنها تحت المراقبة.»

ارتمى السيد هاسلت بثقله في كرسيه المريح أمام طاولته. متهور! منفلت الزمام! كانت هذه نعوت طيبة جدًّا لوصف بوريس وابرسكي. فهذا شرير خبيث مارق، شغفه للانتقام أحط مما يُمكِن تصوُّره.

وسأل فجأةً: «كيف عرفت كلَّ هذا يا جيم؟»

«لقد تلقَّيتُ رسالة هذا الصباح من ديجون.»

هتف السيد هاسلت مُتعجِّبًا: «أنت؟» وتملَّك السؤال أيضًا من جيم فروبيشر وأغرقه في الحيرة. فبفعل الصدمة الأولى من الأخبار، أزاحت حقيقة هذا الاتهام الوحشي كل شيء آخَر من رأسه. والآن صار يسأل نفسه لماذا، في نهاية المطاف، وصلته الأخبار ولم تصل الشريك الذي يحوز ممتلكات هارلو في عهدته.

أجاب فروبيشر: «نعم، هذا غريب. وإليك شيئًا غريبًا آخَر. لم تأتِ الرسالة من بيتي هارلو، بل من صديقة لها، اسمها آن أبكوت.»

شعر السيد هاسلت بالراحة بعض الشيء.

«إذَن كان لدى بيتي صديقة ترافقها؟ هذا أمر جيد.» ثم مدَّ يده عَبْر الطاولة. وقال: «دعني أقرأ الرسالة يا جيم.»

كان فروبيشر يحمل الرسالة في يده، فأعطاها لجيريمي هاسلت. كانت رسالة طويلة كُتبت في أوراق كثيرة، فجعل جيريمي يفرُّ حواف الأوراق تحت إبهامه.

وقال بأسف: «هل عليَّ أن أقرأ كلَّ هذا؟» ثم شرع في مهمته. كان بوريس وابرسكي قد اتهم بيتي أولًا وجهًا لوجه. رفضت بيتي بكل ازدراء الرد على التهمة الموجهة إليها، وذهب وابرسكي مباشرة إلى مأمور الشرطة. وقد عاد بعد ساعة، يتحدَّث إلى نفسه بصوت عالٍ ويومئ بإيماءات جامحة. كان قد طلب فعليًّا من آن أبكوت أن تدعمه. ثم حزم حقائبه واتجه إلى فندق في المدينة. كانت القصة مذكورة بالتفصيل، مع اقتباسات من حديث وابرسكي العنيف والمجنون؛ وبينما كان الرجل العجوز يقرأ، ازداد اضطراب جيم فروبيشر وازداد قلقه كذلك.

كان جالسًا بجانب النافذة العريضة الطويلة التي تطلُّ على الميدان، يتوقَّع انفجار هاسلت غضبًا واحتقارًا. لكنه رأى القلق يتسلَّل إلى وجه السيد هاسلت ويلبث في محياه أثناء قراءته. لقد توقَّف تمامًا عن القراءة أكثر من مرة، وكأنه يحاول تذكر شيء ما أو ربما اكتشافه.

قال جيم لنفسه بنفاد صبر: «الأمر كله واضح وضوح الشمس.» لكن — ومع ذلك — كان السيد هاسلت يجلس في ذلك الكرسي الكبير طَوال القسم الأكبر من اليوم، وطَوال القسم الأكبر من السنوات الثلاثين المنصرمة. خلال تلك السنوات، كم من رجال ونساء عَبَروا الطريق أسفل هذه النافذة ودلفوا إلى هذه الغرفة المستطيلة الهادئة بشكاواهم، وفواجعهم، واعترافاتهم؟ وخرجوا منها مرَّة أخرى وقد أسهم كل واحد منهم بالقليل لإكمال معرفة الرجل العجوز وشحذ ذكائه؟ على هذا، إذا كان السيد هاسلت يشعر بالقلق، فهذا يعني أن ثمَّة شيئًا في تلك الرسالة، أو ثمَّة ما تبشر به، شيئًا غفل هو عنه لحداثة عهده. شرع فروبيشر يقرأ الرسالة مرَّة أخرى في ذهنه بأفضل ما استطاع أن يتذكَّر منها، لكنه لم يكُن قد قطع شوطًا طويلًا قبل أن يضع السيد هاسلت الرسالة.

صاح جيم: «هذه بالتأكيد يا سيدي قضية ابتزاز واضحة.»

انتبه السيد هاسلت وقد انتابت كتفه رجفة خفيفة.

«ابتزاز؟ أوه! هو كذلك بالطبع يا جيم.»

نهض السيد هاسلت وفتح خزانته. أخرج منها رسالتي وابرسكي وأحضرهما عَبْر الغرفة إلى جيم.

«ها هي الأدلة، إنها دامغة.»

قرأ جيم الرسائل وأطلق صيحة سرور خاطفة.

«ذلك المارق، لقد سلم لنا نفسه بنفسه.»

قال السيد هاسلت: «أجل.»

ولكن بالنسبة إليه على الأقل، لم يكُن ذلك كافيًا؛ كان لا يزال يبحث بين كلمات الرسالة عن شيء خفي، شيء لم يستطِع هو أن يعثر عليه.

فسأله فروبيشر: «إذَن ما الذي يقلقك؟»

وقف السيد هاسلت على السجادة المهترئة وقد أعطى ظهره للمدفأة.

وشرع يقول: «إليك ما يقلقني يا جيم. في ٩٥ من أصل كل ١٠٠ من هذه الحالات، يكون ثمَّة شيء آخَر، شيء يستتر خلف التهمة الفعلية ولا يُؤتى على ذكره، غير أن المبتزَّ يعتمد عليه كل الاعتماد. كقاعدة عامة، يكون هذا الشيء سرًّا صغيرًا مخزيًا، وصمة عار لشرف العائلة يمكن أن يُفتضح أمرها في أي لحظة. لا بد أن يكون هناك شيء من هذا القبيل في هذه الحالة. كلما كانت اتهامات وابرسكي أكثر سخرية، كان مؤكدًا أنه يعرف شيئًا يضرُّ بسمعة عائلة هارلو، شيئًا يرغب أي فرد في العائلة في إخفائه. كل ما هنالك أنني ليس لديَّ فكرة عما يمكن أن تكون ماهية هذا الشيء اللعين!»

فاقترح جيم قائلًا: «ربما يكون شيئًا تافهًا يبالغ بشأنه شخص مجنون مثل وابرسكي.»

وافقه السيد هاسلت قائلًا: «نعم. هذا يحدث. أن يستغرق المرء في مظالم خيالية، إضافةً إلى أنه يتسم بالتهوُّر وانفلات الزمام ... نعم، ربما كان الأمر كذلك.»

ثم تحدث جيريمي هاسلت بنبرة مبتهجة أكثر.

قال: «دعنا نرى بالضبط ما نعرفه عن العائلة»، وسحب كرسيًّا ليجلس بمواجهة جيم فروبيشر والنافذة. لكنه ما كاد يجلس حتى سُمع طرق خفيف على الباب، ودخل أحد الموظفين ليُعلن عن قدوم زائر.

قال السيد هاسلت «ليس بعد» قبل أن يذكر الموظف اسم الزائر.

فرد الموظف: «حسنٌ يا سيدي» ثم خرج. كانت شركة فروبيشر آند هاسلت تدير أعمالها بهذه الطريقة. كانت الشركة تجسيدًا للمبادئ الأصيلة التي تقوم عليها شركات المحاماة، والعملاء الذين لا يروق لهم أسلوبها بمقدورهم الذهاب إلى شركة المحاماة الكائنة عند منعطف الشارع. تمامًا كما يجب على الأشخاص الذين يذهبون إلى خيَّاط ماهر أن يقبلوا تصميمَه ملابسَهم بأسلوبه الخاص.

التفت السيد هاسلت إلى جيم مرة أخرى.

قال: «دعنا نرَ ما نعرفه»، ثم جلس في الكرسي.

الفصل الثاني

صرخة استغاثة

شرع السيد هاسلت يقول: «كان سايمون هارلو مالكًا لكرمة كلو دو برنس الشهيرة في إقليم كوت دور شرق ديجون. كان يملك عقارًا في نورفولك، بيتًا كبيرًا يحمل اسم منزل كرينيل في ديجون، وفيلًّا في مونت كارلو. لكنه أمضى معظم وقته في ديجون، حيث تزوَّج وهو في سن الخامسة والأربعين من سيدة فرنسية، اسمها جين ماري رافيار. أظنُّ أن مسألة زواجهما كانت تنطوي على قدر من الرومانسية. كانت جين ماري مُتزوِّجة ومنفصلة عن زوجها، وقد انتظر سايمون هارلو مدة ١٠ سنوات على ما أعتقد حتى مات زوج رافيار.»

انتفض جيم فروبيشر على نحو مفاجئ، فرفع السيد هاسلت نظره لأعلى؛ إذ بدا وكأنه كان يقرأ هذه الأحداث في النمط المرسوم على السجادة.

وقال ردًّا على حركة جيم: «نعم، أفهم ما تعنيه. نعم، ربما كان هناك علاقة غرامية من نوع ما بينهما قبل أن يُتاح لهما الزواج. لكن في أيامنا هذه يا عزيزي جيم! أصبحت الأحكام مصبوغة بنظرة أكثر إنسانية مما كانت عليه في شبابي. بالإضافة إلى ذلك، ألا ترى أنه في سبيل أن يكون لهذا السر الصغير أي قيمة لدى بوريس وابرسكي، ينبغي أن يكون له علاقة ببيتي هارلو بما فيه الكفاية؛ لا أقول ليصبح ذا تأثير عليها إذا ما ذاع بين الناس، ولكن بالقدر الذي يكفي لجعل وابرسكي يعتقد أنها ستكره أن يشيع. والآن، لا تظهر بيتي هارلو في الصورة على الإطلاق إلا بعد سنتين من زواج سايمون وجين ماري، عندما أصبح واضحًا أن مسألة إنجابهما مستبعدة. كلا، مسألة علاقات سايمون هارلو العاطفية طفيفة بما يكفي لننحيها جانبًا.»

تقبَّل جيم فروبيشر تقويض فكرته باحمرار وجهه خجلًا.

وقال: «كنت أحمقَ لأنني فكرت في ذلك.»

فأجابه السيد هاسلت بمرح: «لا بأس. دعنا ننظر في كل الاحتمالات. هذه هي الطريقة الوحيدة التي ستساعدنا في الحصول على لمحة عن الحقيقة. أعود لأُكمِل إذَن. كان سايمون هارلو من هواة جمع المقتنيات. نعم، كان لديه شغف شديد بجمعها. كانت غرفة المعيشة الوحيدة في منزل كرينيل تحوي ثروة حقيقية، فلم تكُن تحتوي فقط على الأشياء الجميلة، ولكن أيضًا على أشياء غريبة. كان يحبُّ أن يعيش ويمارس عمله بين تلك الأشياء. لكن حياته الزوجية لم تدُم طويلًا. إذ تُوفي قبل خمس سنوات في سن ٥١ عامًا.»

عادت عيون السيد هاسلت مرة أخرى للبحث عن الذكرى بين تجاعيد السجادة.

«هذا حقًّا هو كل ما أعرفه عنه. كان رجلًا لطيفًا بما فيه الكفاية، ولكنه لم يكُن اجتماعيًّا كثيرًا. كلا، يؤسفني القول إنه ما من شيء يمكن أن يهدينا إلى ضالتنا.»

ثم حوَّل السيد هاسلت أفكاره إلى الأرملة.

فقال: «جين ماري هارلو. غريب أنني لا أعرف عنها إلا القليل، هذا ما يبدو لي الآن. لكن هذا الأمر طبيعي أيضًا. فقد باعت منزل نورفولك ومنذ ذلك الحين وهي تمضي كل وقتها بين مونت كارلو وديجون و— أوه، نعم — ثمة بيت صيفي صغير في كوت دور وسط الكروم.»

سأل فروبيشر: «تركها زوجها ثرية، على ما أظن.»

أجاب السيد هاسلت: «ميسورة الحال كثيرًا، على أي حال. كان لنبيذ كلو دو برنس سمعة طيبة، ولكنه لم يكُن ذائع الصيت كثيرًا.»

«هل زارت إنجلترا من قبل؟»

قال السيد هاسلت: «لم تفعل أبدًا. كانت قانعة بديجون على ما يبدو، رغم أن المدن الفرنسية الإقليمية الصغيرة في نظري مملة بما يكفي لتجعل المرء يصرخ. ومع ذلك، اعتادت الأمر، وبعدها بدأ قلبها يتعبها، فكانت مريضة على مدى العامين المنقضيين. ليس ثمة شيء يمكن أن يساعدنا في هذا أيضًا.» ثم نظر السيد هاسلت إلى جيم طلبًا لتأكيده.

فقال جيم: «لا أجد شيئًا.»

«إذَن لا يتبقى لنا إلا الصبية بيتي هارلو و... أوه، نعم، مراسلتك أيضًا، مراسلتك غزيرة الكتابة، آن أبكوت. من هي يا جيم؟ من أين جاءت؟ كيف وجدت نفسها في منزل كرينيل؟ هيا، اعترف لي أيها الشاب» ونظر السيد هاسلت بدهاء إلى شريكه الأصغر. «لماذا يتوقع بوريس وابرسكي دعمًا منها؟»

باعد جيم فروبيشر بين ذراعَيه.

وقال: «ليس لديَّ فكرة. لم أرَها أبدًا. ولم أسمع عنها أبدًا. ولم أعرف بوجودها حتى جاءت تلك الرسالة هذا الصباح المنتهية بتوقيع باسمها.»

نهض السيد هاسلت. وسار في الغرفة نحو طاولته ووضع نظارته القابلة للطي على أنفه، ثم انحنى على الرسالة.

وقال معارضًا: «لكنها تكتب لك بصفة شخصية يا جيم. تقول: «عزيزي السيد فروبيشر». هي لا توجه حديثها إلى الشركة على الإطلاق»، ثم سكت برهة وهو ينظر إلى جيم، يتوقع منه أن يسحب هذا الإنكار.

ومع ذلك، لم يكُن من جيم إلا أن هزَّ رأسه.

وأجابه: «هذا أغرب شيء. لا يمكنني أن أفهم تصرفها هذا بأي حال»، فلم يعُد لدى السيد هاسلت بعد ذلك شك في أنه يتحدَّث بصدق، فالشاب كان مرتبكًا تمامًا ويتحدَّث بكل صراحة. أردف جيم: «لماذا تكتب آن أبكوت لي شخصيًّا؟ كنت أطرح على نفسي هذا السؤال طَوال النصف ساعة الماضية. ولماذا لم تراسلك بيتي هارلو مباشرة، فأنت القائم على شئونها؟»

«آه!»

هذا السؤال الأخير ساعد السيد هاسلت في الوصول إلى تفسير. وقد ارتسم على وجهه تعبير أكثر حيوية.

«تكمن الإجابة على ذلك في رسالة وابرسكي الثانية. بيتي تستهزئ بالمتاعب التي سيتسبَّب بها. هي لا تأخذ التهمة على محمل الجد. لا شك أنها تركت الأمر لكاتب العدل الفرنسي ليتصرف بشأنه. نعم ... أعتقد أن هذا يجعل خطاب آن أبكوت إليك مفهومًا أيضًا. من شأن الرسميات القانونية في بلد أجنبي أن تخيف الغريب عنها — كما هي حال هذه الفتاة على ما يبدو — أكثر مما ستخيف بيتي هارلو التي عاشت فيها طَوال أربع سنوات. لذا فهي تراسل الاسم الأول في عنوان الشركة، وتكتب له كرجل. هذا هو التفسير يا جيم»، وأخذ العجوز يفرك يديه وهو يشعر بالارتياح.

«فتاة في حالة من الرعب لن تشعر بأي ارتياح في الكتابة إلى كيان مجرد. فهي تود أن تكون على تواصل مع شخص حقيقي. لذا تكتب، «عزيزي السيد فروبيشر». هذا هو الأمر! يمكنك أن تثق بكلمتي.»

ثم سار السيد هاسلت عائدًا إلى كرسيه. لكنه لم يجلس فيه؛ بل وقف ويداه في جيبيه، ينظر من النافذة من فوق رأس فروبيشر.

وقال بأسًى: «لكن هذا لا يقربنا من معرفة البطاقة القوية التي بيد بوريس وابرسكي، أليس كذلك؟ ليس لدينا أي فكرة عنها أو دليل عليها.»

في واقع الأمر وبالنسبة إلى كلا الرجلَين، بدا السرد الرتيب والمُبهَم من السيد هاسلت للحقائق — دون تقديم لمحة عن شخصيات أي من المشاركين في هذه الدراما الصغيرة — غير مفيد إلى حدٍّ كبير. ومع ذلك، كان يحوي الحقيقة كلها؛ ليس فقط حقيقة الخطوة التي أقدم عليها وابرسكي، ولكن أيضًا حقيقة كل الأهوال والألغاز الغريبة التي كان الأصغر سنًّا بين الرجلين الآن على وشك الغوص فيها. سيدرك جيم فروبيشر ذلك عندما يستأنف عمله في المكتب وقد أصابته الصدمة واهتز من أعماقه. ذلك أن هذا السرد قد انقطع الآن.

كان السيد هاسلت يطلُّ من النافذة فوق رأس شريكه حين رأى صبي توصيل البرقيات آتيًا عَبْر الميدان وهو يسير مُتمهِّلًا في الطريق أسفل منهما.

فقال: «أتوقَّع أن هذه برقية لنا» بترقُّب مُفعَم بالأمل، كترقُّب من هم في متاعب وينتظرون حدوث شيء من الخارج يُعدِّل أوضاعهم.

التفت جيم بسرعة. كان الصبي لا يزال على الرصيف يفحص أرقام المنازل.

فقال جيم بشيء من نفاد الصبر: «ينبغي أن نُعلِّق لوحة نحاسية على الباب»؛ فاندهش السيد هاسلت حتى إن حاجبيه ارتفعا كثيرًا على جبهته نحو شعره الأبيض الكثيف. كان الرجل مضطربًا حقًّا بسبب حادثة وابرسكي، ولكن سماعه لهذا الاقتراح من شريكه في الشركة، جعله مصدومًا كما لو أن أحدًا انتهك حرمته.

وقال معاتبًا: «أيها الشاب العزيز، ما الذي تُفكِّر فيه؟ آمل ألا أكون من أولئك الأشخاص العنيدين العجزة الذين يرفضون مواكبة العصر. قمنا في الآونة الأخيرة كما تعلم بتركيب جهاز هاتف في مكتب صغار الموظفين. أعتقد أنني أنا مَن اقترح ذلك. لكن تعليق لوحة نحاسية على الباب! بربك يا عزيزي جيم! دعنا نترك ذلك لشارع هارلي وساوثهامبتون رو! أرى أن هذه البرقية لنا بالفعل.»

كان صبي التوصيل ذو القبعة الأشبه بالقبعات العسكرية والحبل الأحمر على زيه الرسمي قد اتخذ قراره واختفى في الردهة أدنى منهما. أُحضرت البرقية إلى الطابق العلوي ففتحها السيد هاسلت. وحدَّق فيها تحديقًا بلا تعبير لبضع ثوانٍ، ودون أن ينطق بكلمة، ولكن بنظرة من عينيه تنم عن قلق شديد، أعطاها لجيم فروبيشر.

قرأ جيم فروبيشر:

من فضلكم، أرجوكم، أرسلوا شخصًا لمساعدتي على الفور. استدعى مأمور الشرطة هانو، المحقق الكبير في المباحث الجنائية في باريس. لا بد أنهم يعتقدون أنني مذنبة. – بيتي هارلو.

ارتجفت أصابع جيم فسقطت البرقية إلى الأرض. كانت البرقية كصرخة استغاثة في الليل آتية من مسافة بعيدة.

فقال: «يجب أن أذهب يا سيدي على متن القارب الليلي.»

ردَّ السيد هاسلت «بالتأكيد!» وهو شارد قليلًا.

ومع ذلك، كان جيم مفعمًا بحماسة تكفيهما كليهما. فقد اشتعلت جذوة شهامته بالصورة التي رسمها خياله؛ كما هو حال الرجال المنعزلين. الفتاة الصغيرة، بيتي هارلو! كم عمرها؟ ٢١ عامًا! بالتمام والكمال. كانت تعيش حياتها بفخر وبلا مبالاة بجنسها وحيوية شبابها، حتى وجدت قدميها فجأةً عالقتين في فخ نصبه خائن، فنظرت حولها؛ فدبَّ فيها الرعب وأطلقت صرخة استغاثة محمومة.

قال جيم: «الفتيات لا يلاحظن أبدًا إشارات الخطر. كلا، بل يمشين غافلات إلى قلب الكارثة.» مَن يستطيع أن يعرف حلقات الأدلة الكاذبة والخبيثة التي كان بوريس وابرسكي يعدُّها في الظلام، ليغلَّ بها معصمها وكاحلها بسرعة وفي اللحظة المناسبة؟ ومع هذا السؤال أصيب جيم بإحباط كبير.

إذ قال بأسًى: «نحن في هذه الشركة لا نعرف سوى القليل عن الإجراءات الجنائية، حتى التي تتعلَّق ببلدنا.»

فقال السيد هاسلت «لحسن الحظ» بشيء من المرارة. بالنسبة له، كانت الشركة هي الأهم أولًا وآخِرًا. إذ لم تذهب شركة فروبيشر آند هاسلت أبدًا إلى المحاكم الجنائية. فالتقاضي كان محل استنكار، حتى ولو كان من النوع الأسلم. كان ثمة طاقم خاص وصغير ليؤدي هذا النوع من العمل، يعمل تحت قيادة موظف إداري قديم وموقعهم في الشركة في الطابق العلوي وكأنهم أقارب غير لائقين في منزل لعائلة كبيرة. كان هذا الطاقم يؤدي أعمال المحاماة الجنائية لصالح العملاء الذين يأتون في قضايا الميراث، وكانوا يؤدونه بعد ذلك كمعروف مُسدًى من الشركة.

ثم قال السيد هاسلت عندما لاحظ ما بشريكه من انزعاج: «مع ذلك، ليس لديَّ شك يا بنيَّ أنك ستكون على قدر ما يتطلَّب الأمر. ولكن تذكر، ثمة شيء خفي في هذه المسألة لا نعرفه.»

غيَّر جيم موقفه بشكل مفاجئ. كانت جملة الرجل العجوز هذه قد أصبحت إطنابًا؛ مجرد عبارة أو صيغة. كان جيم يفكِّر في الفتاة في ديجون ويسمع صرختها الحزينة طلبًا للنجدة. لم تعُد «جريئة» الآن.

وشدَّد السيد هاسلت قائلًا: «إنها مسألة منطق بديهي. إليك مقارنة. ما كان باث، على سبيل المثال، ليستدعي تدخل شرطة سكوتلانديارد في قضية من هذا النوع. لا بد أن هناك يقينًا بوجود جريمة أولًا، ثم شكًّا كبيرًا بشأن هوية الجاني. وهذه الحالة يحددها التشريح والأطباء. فإذا استدعوا هذا الرجل المدعو هانو ...» ثم توقف.

والتقط البرقية من الأرض وقرأها مرة أخرى.

ثم كرَّر: «أجل ... هانو»، وكان وجهه يكفهرُّ ويشرق ويكفهرُّ مرة أخرى كرجل يطارد ذكرى لكنها ما تنفك تراوغه. في نهاية المطاف تخلى عن المطاردة. «من الأفضل يا جيم أن تأخذ الرسالتين اللتين أرسلهما وابرسكي، ورسالة آن أبكوت الطويلة جدًّا، وبرقية بيتي ...» وقد جمعها معًا في مظروف طويل وأغلقه «... وأتوقَّع أن تعود من جديد بوجه مُبتسم في غضون أيام قليلة. أودُّ أن أرى بوريس هذا عندما يُطلب منه تفسير لتلك الرسائل.»

وأعطى السيد هاسلت الظرف لجيم ودقَّ الجرس.

ثم قال للموظف الذي أجاب عليه: «أعتقد أن هناك شخصًا ينتظر مقابلتي.»

ذكر الموظف اسم أحد ملَّاك الأراضي الكبار، كان الرجل قد ضاق ذرعًا من الانتظار طَوال النصف ساعة الأخيرة في غرفة انتظار مغبرة يرافقه فيها بعض الكتب القانونية القديمة العِفنة في صندوق زجاجي قديم.

قال السيد هاسلت: «يمكنك أن تُدخله الآن» بينما انسحب جيم إلى مكتبه الخاص. وعندما دخل مالك الأرض الكبير، رحَّب به بنبرة لا تخلو من اللوم.

قال: «لم تحدد موعدًا مُسبقًا، أليس كذلك؟»

ولكن طوال تلك المقابلة، وعلى الرغم من أن المشورة التي قدَّمها كانت المَشورة الدقيقة والواضحة التي تشتهر بها الشركة، كان عقل السيد هاسلت لا يزال يلعب لعبة الغميضة مع تلك الذكرى، فيلتقط لمحة من لمحاتها سرعان ما تخفت وتزول.

فقال في نفسه: «الذكريات كالنساء، سيأتينك من تلقاء أنفسهن إنْ أنت لم تطاردهن.»

لكن حاله مع النساء كانت كما يشيع بين الرجال: لم يسَعه سوى أن يطاردها. لكن قرب نهاية المقابلة، تحرك كتفاه ورأسه قليلًا، وكتب كلمة على قطعة من الورق. وبمجرد أن غادر عميله، كتب رسالة قصيرة وأرسلها مع رسول كان لديه أوامر بانتظار أن يحصل على رد. وقد عاد الرسول في غضون الساعة، وأسرع السيد هاسلت إلى مكتب جيم فروبيشر.

كان جيم قد انتهى للتوِّ من تسليم شئونه لموظفين مختلفين وكان يقفل أدراج مكتبه.

«جيم، تذكرت أين سمعت اسم هذا الرجل هانو من قبل. أتذكَّر مقابلتك يوليوس ريكاردو؟ إنه أحد عملائنا.»

قال فروبيشر: «نعم. أذكره ... إنه شخص نيِّق بشكل مُفرِط في ميدان جروفينور سكوير.»

«هذا هو الرجل، صحيح. هو صديق لهانو ويفخر بتلك الصداقة بطريقة حمقاء. كان هو وهانو متورِّطَين بكيفية ما في جريمة فاضحة قبل بعض الوقت ... في بلدة إيكس ليبان، بحسب ما أعتقد. في الواقع، سيعطيك ريكاردو خطاب تعريف إليه، وسيخبرك بشيء عنه، إذا ذهبت إلى ميدان جروفينور سكوير في الساعة الخامسة بعد الظهر.»

فقال جيم فروبيشر: «رائع!»

التزم فروبيشر بموعده مع ريكاردو، وهناك أُوعِز إليه أن يتوقَّع أن يشعر بالروع في لحظة، وأن يتعرَّض لهجوم في اللحظة التالية، وأن يتعرَّض للسخرية في أخرى، وأن يُتعامَل معه بكثير من الاحترام والصداقة في غيرها. ولم يعبأ جيم كثيرًا بحماس السيد ريكاردو، لكنه حصل على خطاب التعريف وعبَر القناة في تلك الليلة. وخلال الرحلة تراءى له أن هانو لن يكون مُتفرِّغًا بما يكفي ليحزم أمتعته ويتجه إلى الأقاليم إنْ كان رجلًا ذا مكانة عالية، حتى ولو كان ذلك بناءً على دعوة عاجلة. لذا، أوقف جيم رحلته في باريس، وفي ساعات الصباح اتخذ طريقه إلى مديرية البحث الجنائي عند منطقة رصيف الساعة خلف دار القضاء مباشرةً.

سأل جيم بحماس «السيد هانو؟» فأخذ البواب بطاقته ورسالته التعريفية. فكر بارتياح أن الرجل العظيم كان لا يزال في باريس إذَن. وجاء أحدهم وقاده في ممر طويل مُظلِم، مضاء بمصابيح كهربائية مُدوَّرة، حتى في ذلك الصباح المشرق من أوائل الصيف.

وهناك، احتكَّ بالجناة والجنود وانتظر مدة نصف ساعة بينما تتلاشى ثقته في نفسه. ثم رنَّ جرس وجاءه شرطي في زي مَدَني. وكان أحد جانبَي الممر يحتوي على صف من الأبواب.

قال الشرطي: «هذا لك، سيدي» وقاد فروبيشر إلى أحد الأبواب وفتحه، وتنحَّى جانبًا. عدَّل فروبيشر كتفَيه فأقامهما ثم دخل.

الفصل الثالث

خدم الصدفة

وجد فروبيشر نفسه في أحد أركان غرفة مستطيلة. وأمامه كان هناك زوج من النوافذ تطلُّ عَبْر النهر اللامع على مسرح شاتيليه الكبير. على يساره كانت هناك طاولة ضخمة عليها بعض أكوام من أوراق مرتبة بعناية، وقد جلس إليها رجل كبير الجسم قويُّ البنية. نظر فروبيشر إلى الرجل بصدمة ودهشة خفيفة، تمامًا كالمبتدئ في ساحة المبارزة الذي يواجه مُعلِّمه الذي لا مفرَّ من مواجهته؛ لقد فاجأه أنه بدا عاديًّا في نهاية المطاف. ومن جانبه، لا يمكن أن نقول إن هانو نظر إلى فروبيشر على الإطلاق؛ ولكن عندما تحدث كان واضحًا أنه نظر إليه بطريقة ما وكانت نظرته فاحصة. نهض هانو بانحناءة طفيفة واعتذر.

«لقد أطلت عليك الانتظار سيد فروبيشر. صديقي العزيز السيد ريكاردو لم يذكر غايتك في رسالته. ظننت أنك جئت بالرغبة المعتادة في رؤية شيء من عالَم الجريمة. والآن بما أنك أمامي، أعرف أن رغبتك أكثر جدية.»

كان هانو رجلًا في منتصف العمر، ذا شعر داكن كثيف، ووجه مستدير وذقن حليق كمُمثِّل هزلي. ولم يكُن في مظهره شيء ذو دلالة — على الأقل عند رؤيته لأول مرة في مزاج حَسَن — سوى العينين الفاتحتين تحت جفنَيه الثقيلين نوعًا ما. أشار هانو إلى كرسي.

وقال: «هلا جلست من فضلك؟ سأخبرك يا سيد فروبيشر أن للسيد ريكاردو — ولأصدقائه — مكانة خاصة ومَعَزَّة في قلبي ... لكن الأفعال أبلَغ من الكلام، كيف يمكنني مساعدتك؟»

وضع جيم فروبيشر قبعته وعصاه على طاولة جانبية واتخذ مجلسه في الكرسي أمام طاولة هانو.

وقال: «أنا شريك في مكتب محاماة يُعنى بالمصالح الإنجليزية لعائلة في ديجون» وحينها رأى الحيوية والتعبيرات تختفي من محياه. قبل لحظة كان برفقة رفيق ودود ولطيف؛ والآن ها هو ينظر إلى رجل بلا عاطفة.

قال هانو: «أجل؟»

استطرد جيم: «تحمل هذه العائلة اسم هارلو.»

قال هانو: «أوهو!»

لم تُوحِ لفظته بأي قدر من الاندهاش، وبالكاد كانت تشي بالاهتمام. ومع ذلك، واصل جيم حديثه.

«العضو المتبقِّي من هذه العائلة هي فتاة في العشرينيات من العمر اسمها بيتي هارلو، قام شخص روسي هو بوريس وابرسكي ويرتبط بالعائلة عن طريق الزواج، بتوجيه اتهام لها بالقتل.»

قال هانو: «أها! ولماذا أتيت لي يا سيد فروبيشر؟»

حدَّق جيم بالمحقق. كان سبب قدومه واضحًا.

ومع ذلك، لم يعُد جيم مُطمَئِنًّا من موقفه. كان هانو قد فتح درجًا في طاولته وشرع يضع فيه أحد الملفات.

وقال: «أجل؟» كمَن يقول: «أنا أستمع.»

فقال جيم: «ربما أكون مخطئًا. لكن أمكن إبلاغ مكتبي أنك أنت — السيد هانو — المسئول عن القضية»، فتوقفت حركات هانو فجأة. كان الملف في راحة يده كما لو كان يَزِنه، كان ثابتًا بشكل استثنائي؛ وقد راود جيم انطباعٌ سريع أن هانو كان أكثر من مُرتبِك. بعد ذلك وضع هانو الملف في الدرج وأغلقه بهدوء. وقد تحدَّث بهدوء أيضًا ولكن بصوتٍ ناعمٍ، وكان في صوته نبرة وجدها فروبيشر مُقلِقة في واقع الحال.

«هذا ما أُبلغتم به يا سيد فروبيشر! وفي لندن! اليوم الأربعاء! الأخبار تنتقل بسرعة كبيرة في هذه الأيام، بالتأكيد! حسنًا، ما أُبلغتم به صحيح. أُهنِّئُكم. لقد أحرزتم النقطة الأولى.»

سرعان ما استغلَّ جيم فروبيشر تلك الكلمة. كان قد فكَّر في أثناء رحلته أي شخصية ستكون مفيدة أكثر في تناول الموضوع مع المحقق. وقد قدَّم له تعليق هانو البسيط واللاذع هذا الثغرة التي كان بحاجة إليها.

فردَّ بجدية: «ولكنني لا أتبنى هذه النظرة على الإطلاق، سيد هانو. يروقُني الاعتقاد بأنه لن يكون بيننا أيُّ خصومة أو نزاع. لأنه إذا كان هناك نزاع، فسأكون أنا الخاسر بالتأكيد. كلا! أنا متأكد أن الرغبة الوحيدة التي لديك في هذا الشأن هي الوصول إلى الحقيقة. بينما رغبتي هي أن تنظر إليَّ فقط كزميل دون العادي، والذي يستطيع مساعدتك لحسن الحظ.»

مرَّت ابتسامة على وجه هانو وأعادت له شيئًا من اللطف والوداعة.

وعلَّق يقول: «دائمًا ما كانت المبالغة والتحدُّث بقوة مفيدين. والآن، أي نوع من المساعدة، سيد فروبيشر؟»

«من هذا النوع يا سيد هانو. رسالتان من بوريس وابرسكي يطلب فيهما المال، وتنطوي الثانية على تهديدات. تلقتهما شركتي قبل أن يُقدَّم هذا الاتهام، وكلتاهما بالطبع لا تزالان دون رد.»

ثم أخرج الرسالتين من المظروف الطويل وسلَّمَهما عَبْر الطاولة إلى هانو الذي قرأهما ببطء، وكان يترجم في ذهنه العبارات إلى الفرنسية أثناء القراءة. راقب فروبيشر وجهه بحثًا عن تعبير عن الراحة أو الرضا. ولكن أُصيب بإحباط شديد عندما لم يحدث تغيير من هذا القبيل؛ وقد التفت إليه هانو في النهاية بشيء من الاستنكار الذي يقارب الأسف.

«نعم ... لا شك أن هاتين الرسالتين لهما أهمية مُعيَّنة. ولكننا يجب ألا نبالغ بشأن أهميتهما. القضية صعبة جدًّا.»

هتف جيم بغضب: «صعبة!» بدا أنه كان يطرق عبثًا جدارًا سميكًا من البلاهة. لكن هذا الرجل أمامه ليس بأبله أو غبي.

وصاح: «لا أفهم ذلك! هذه أوضح حالة على الابتزاز يمكنني تخيلها ...»

قال هانو محذرًا: «الابتزاز كلمة قبيحة، سيد فروبيشر.»

فردَّ جيم: «والابتزاز شيء قبيح. بحقك يا سيد هانو، بوريس وابرسكي يعيش في فرنسا. حتمًا تعرف شيئًا عنه. حتمًا لديك إضبارة له.»

انقضَّ هانو على الكلمة بهتاف صغير من الابتهاج، وتفجَّرت في وجهه الابتسامات، وأخذ يهزُّ إصبعه بجذل نحو زائره.

«آه، آه، آه! إضبارة! نعم، كنت بانتظار هذه الكلمة! أسطورة الملفات الشاملة الكبرى! أنت أيضًا لديك هذا الاعتقاد الساحر، سيد فروبيشر. فرنسا وإضباراتها! نعم. إذا نفدت مناجم الفحم فيها، بمقدورها دائمًا أن تحافظ على دفئها بحرق ملفاتها! المعروف

أن ملفك يبدأ في اللحظة التي تضع فيها قدمك لأول مرة في كاليه! صحيح؟ تسافر إلى باريس ... يُدوَّن ذلك بالملف! تتناول العشاء في فندق ريتز ... يُدوَّن ذلك أيضًا! بعد ذلك تذهب إلى حيث لا ينبغي بك أن تذهب ... فيُدوَّن ذلك أيضًا! تعود متأخرًا إلى الفندق، يعتريك شعور بعدم الارتياح لأنك على يقين من أنه في مكان ما في هدأة الليل ثمة موظفون ستة صغار بِلِحًى سوداء ويحملون مصابيح ذات ظلال خضراء يكتبون كل شيء في إضبارتك. لكن ... مهلًا!»

فجأةً نهض هانو من كرسيه وإصبعه على شفتَيه، وعيناه جاحظتان. لم يكُن هناك رجل أكثر منه غموضًا، ولا أجلَّ منه في غموضه. وتسلَّل هانو نحو الباب على أطراف أصابعه بخطوات خفيفة مُدهِشة من رجل بحجمه. وبصمت وببطء شديد، وبعين مُشرِقة ومُتأهِّبة مثل عين طائر تنظر إلى فروبيشر، أدار المقبض. ثم سحب الباب بسرعة نحوه. كانت هذه هي الحركة الكلاسيكية للكشف عن المُتنصِّتين، والتي نراها في مئات المسرحيات الكوميدية والهزلية؛ وقد نفَّذَها هانو بامتياز لدرجة أن جيم توقَّع تقريبًا أن يرى خادمة غرفة مرتبكة تسقط على ركبتَيها، حتى في مكتب البحث الجنائي هذا. لكنه لم يرَ شيئًا سوى ممرٍّ قذر مُضاء بضوء صناعي وفيه رجال ينتظرون في هدوء. أغلق هانو الباب مرة أخرى، وقد بدا عليه الارتياح الشديد.

وهمس قائلًا: «لم يسمعنا رئيس الوزراء، نحن في أمان.» وعاد إلى جانب فروبيشر. ثم انحنى وهمس في أذن ذلك الرجل الحائر:

«أستطيع أن أخبرك عن تلك الملفات. هي في تسعة أعشارها شائعات الحارس مترجمة إلى لغة شرطي يعتقد أن الجميع يجب أن يكونوا في السجن. إذ يقول الحارس: هذا السيد فروبيشر ... يوم الثلاثاء عاد إلى المنزل في الواحدة صباحًا ويوم الخميس عاد في الثالثة يرتدي زيًّا غريبًا؛ وفي تقرير الشرطي يصبح كلامه، «السيد فروبيشر يعيش حياة منفلتة»، ويستقرُّ هذا عنك في ملفك ... نعم يا صديقي، هكذا تمامًا! ولكن هنا في مكتب البحث الجنائي ... لا تنبس ببنت شفة عن هذا الأمر، وإلا آذيتني! ... هنا نحن مثل الآنسة بيتي هارلو، «نحن نزدري تلك الملفات».»

كان ذهن جيم فروبيشر من النوع الحذِر. فلكي يتغيَّر من حالة مزاجية إلى أخرى، يتطلَّب الأمر توالي الأفكار وتدرُّجها. في الوقت الراهن كان فروبيشر في حالة من الارتباك الشديد. قبل دقيقة واحدة، كان هانو عميل العدالة الجاد؛ ودون أدنى إشارة، أصبح هازلًا ومستمتعًا بذلك أيما استمتاع. أصبح لَعوبًا ومهرِّجًا. يكاد جيم يسمع أجراس قبعته

لا تزال ترن. لم يزِد جيم على أنْ أخَذَ يُحملِق فيه، وقد عاود هانو الجلوس في كرسيه بابتسامة كدرة.

وقال بأسف غريب: «إذا عملنا معًا في ديجون يا سيد فروبيشر، فلن أستمتع كما استمتعتُ مع صديقي الصغير العزيز السيد ريكاردو في مدينة إيكس. كلا، بالتأكيد! لو كنتُ أدَّيتُ أمامه هذه التمثيلية الهزلية الصامتة، لَجحظَتْ عينه من رأسه من الاستغراب. كان سيهمس لي، «رئيس الوزراء يأتي في الصباح ليتجسَّس عليك من خارج الباب ... أوه!» ولارتعش من الحماس. لكنك ... تنظر إليَّ بنظرات فاترة وجامدة، وتقول في نفسك، «هذا المدعو هانو، إنه لَمُهرِّج!»»

فقال جيم بجدية: «كلا»، فقاطع هانو اعتراضه بضحكة.

وقال: «لا يهم.»

فقال جيم: «هذا يسرني. لأنك قلت للتوِّ شيئًا سأحرص جدًّا على ألا تتراجع فيه. لقد أعطيتني أملًا أننا سنعمل معًا.» فانحنى هانو إلى الأمام ومرفقاه مستندان على مكتبه.

وقال بوداعة: «اسمعني. لقد كنت صريحًا ومُخلصًا معي. لذا سأريح عقلك. قضية وابرسكي هذه ... مدير الشرطة في ديجون لا يأخذها على محمل الجد؛ ولا أنا كذلك. إنها تهمة بالقتل، وبطبيعة الحال يجب النظر فيها بعناية.»

«بطبيعة الحال.»

واصل هانو: «وبالمثل، ثمة دافع بسيط وراءها بالطبع»، فاندهش فروبيشر من أن هذه هي الكلمات نفسها التي استخدمها السيد هاسلت في اليوم السابق، رغم أن الأول تحدث بالإنجليزية والثاني بالفرنسية. «ستعرف حديثي هذا بصفتك محاميًا. ثمة حقائق بسيطة وغير سارة من الأفضل أن نحتفظ بها لأنفسنا. ولكنها مسألة هَيِّنة، ومع هاتين الرسالتين اللتين أحضرتهما لي، أصبحت حتى أكثر بساطة. سنطلب من وابرسكي أن يشرح هذه الرسائل وبعض الأمور الأخرى أيضًا، إن استطاع. إن بوريس وابرسكي هذا من نوع خاص! ستُخرَج جثة السيدة هارلو اليوم وستؤخذ شهادة الأطباء، وبعد ذلك، بلا شك، ستُرفَض القضية ويمكنك التعامل مع وابرسكي كما تشاء.»

سأل جيم: «وماذا عن ذلك السر الصغير؟»

هز هانو كتفيه.

وقال: «لا شك أنه سيظهر للنور. ولكن ما الذي يهم إذا كان سيظهر للنور فقط في مكتب قاضي التحقيق، ولا يتجاوز الباب؟»

وافقه جيم: «لا شيء على الإطلاق.»

«سترى. نحن لسنا مخيفين في نهاية المطاف، ويمكن لعميلتك الصغيرة أن تضع رأسها الجميل على الوسادة دون أن تخشى أن ينالها ظلم.»

هتف جيم فروبيشر بحماس: «شكرًا لك سيد هانو!» كان يعي شعورًا كبيرًا بالارتياح الشديد لدرجة أنه فوجئ به. كان فروبيشر أسير شعوره بالشفقة تجاه تلك الفتاة المجهولة في البيت الكبير التي كانت تتعرَّض للهجوم من جانب مجنون وليس لها نصير سوى فتاة أخرى في سنها. وأردف: «نعم، هذا خبر رائع بالنسبة لي.»

ولكنه ما كاد ينتهي من الكلام حتى تسللت الشكوك إلى ذهنه حول صدق الرجل الذي يجلس أمامه. لم يكُن جيم يريد أن يُتلاعب به وأن يكون صيدًا سهلًا، مهما كانت خبرته قليلة. فنظر إلى هانو وتساءل. هل هذه الوداعة التي يراها أقل تكلُّفًا من حالاته المزاجية الأخرى؟ لم يستقرَّ جيم على شيء بالنسبة إلى تقديره عن المحقِّق. فهو في لحظة يكون صارمًا مُتسلِّطًا، وفي اللحظة التي تليها يكون خبيثًا لَعوبًا، وفي لحظة بعدها يكون صديقًا! فأيُّهم زائف وأيُّهم حقيقي؟ لحسن الحظ، كان هناك سؤال اختباري طرحه السيد هاسلت يوم أمس، عندما كان يطل من النافذة عَبْر ميدان راسل سكوير. وقد كرَّرَه جيم الآن.

«تقول إن المسألة هيِّنة، صحيح؟»

«مِن أهوَنِ المسائل.»

«إذَن سيد هانو، كيف بحق السماء أن قاضي التحقيق في ديجون لا يزال يجد من الضروري استدعاء أحد خبراء البحث الجنائي في باريس لمساعدته؟»

كان السؤال متوقعًا بشكل بديهي، وصعوبة الإجابة عنه ليست أقل بداهة. هزَّ هانو رأسه مرَّة أو مرَّتَين.

وقال: «صحيح» ثم كرَّرها مرة أخرى «صحيح» وكأنه يساوره الشك. ونظر إلى جيم بعين تملؤها الظنون. ثم قال باندفاع: «سأخبرك بكل شيء، وعندما أخبرك، ستقطع عهدًا أنك لن تخون ثقتي لأي شخص في هذا العالم. ذلك لأن هذا أمر جاد وخطير.»

لم يستطِع جيم أن يشك في صدق هانو في هذه اللحظة، ولا في مودته. إذ كان الصدق والمودة يشعَّان من الرجل كاللهب القوي.

قال فروبيشر: «أعطيك كلمتي الآن»، ومدَّ يده عَبْر الطاولة. فصافح هانو يده. وأجابه: «أستطيع أن أتحدَّث معك بحرية، إذَن»، وأخرج حزمة صغيرة زرقاء من سجائر سوداء حالكة. «تريد سيجارة.»

أشعل الرجلان سيجارتيهما، وشرع هانو يشرح من خلال السحابة الزرقاء:

«أنا ذاهب حقًّا إلى ديجون لكن لشأن آخَر تمامًا. قضية وابرسكي هذه، إنها مجرد ذريعة! فقاضي التحقيق الذي يستدعيني ... لديكم في الإنجليزية عبارة توضح ذلك ...» وبفخر تحول للحديث بالإنجليزية بدرجة ما أو بأخرى. إذ قال: «يحفظ ماء وجهه! نعم، هذا هو التعبير الدلالي. يحفظ ماء وجهه، وسترى يا صديقي، أن الأمر يحتاج إلى الكثير من حفظ ماء الوجه، نعم، الكثير من ذلك. والآن اسمع! أشعر بالإثارة عندما أفكِّر في ذلك القاضي.»

ثم مسح جبينه بمنديله، وبعد أن رتَّب جملته، استأنف بالفرنسية.

«البلدات الصغيرة يا صديقي — حيث الحياة ليست مَرِحة جدًّا ولدى الناس من الوقت ما يكفي للاهتمام بشئون جيرانهم — هذه البلدات لديها جرائمها الخاصة، وربما الأكثر خطورة بينها كلها هي جريمة الرسائل المجهولة. فجأةً من العدم، تَرِد تلك الرسائل مثل الطاعون، وتكون مليئة بالاتهامات القبيحة التي يصعب دحضها، ومَن يدري؟ ربما كانت صحيحة أحيانًا. أخذت هذه الرسائل الخبيثة تتدفَّق لفترة إلى صناديق البريد ولا يتحدَّث أحدٌ بكلمة. وإذا طُلب المال، فإن الناس يدفعونه. وإذا كان ما يدفع هذا القلم المجهول إلى ذلك الفعل هو مجرد الشر، فإن مَن يتعرَّضون لأذاه ما يزالون يُمسكون ألسنتهم. ولكن بدأ كلُّ واحد يتشكَّك في جاره. تسمَّمَت الحياة الاجتماعية للبلدة. ثمة غيمة كبيرة من الرعب تجثم فوقها، حتى أصبح صوت طرق ساعي البريد — الذي هو أمرٌ مُرحَّب به في الحياة اليومية العادية — شيئًا يثير الرعب، وفي نهاية المطاف تحدث أشياء مروعة.»

كانت نبرة هانو جادة وهادئة لدرجة أن جيم نفسه ارتعد، حتى في هذه الغرفة التي يمكنه من خلالها رؤية أشعة الشمس تتلألأ على النهر وحتى مع سماع همس الشوارع الباريسية اللطيف. جاءه فوق هذا الهمس صوت طرقات حادة لساعي البريد على الباب. فرأى وجهًا ممتقعًا يزداد امتقاعًا وعيونًا ساكنة يضنيها اليأس.

وواصل هانو: «حلَّ هذا الطاعون بديجون. واستفحل طَوال ما يزيد على العام. لم تطلب الشرطة المساعدة من باريس. كلا، لم يكُن لديها حاجة للمساعدة، ستحل هذه المشكلة البسيطة بنفسها. نعم، لكن الرسائل استمرت ومعها شكاوى المواطنين. وقد قالت لهم الشرطة: «اهدءُوا! قاضي التحقيق لديه دليل. أعطوه الوقت!» ولكن الرسائل استمرَّت. ثم بعد عام تأتي قضية وابرسكي هذه في شكل منحة إلهية. على الفور، يتشاور مفوض

الشرطة والقاضي معًا. «سنستدعي هانو في هذه القضية البسيطة، وسيعثر لنا على كاتب الرسائل المجهولة. سنستدعيه بطريقة سرية جدًّا، فإذا ما تعرَّف عليه أحدٌ في الشارع وصاح «هذا هانو»، يمكننا أن نقول إنه يحقِّق في قضية وابرسكي. وبهذه الطريقة، لن يتأهب كاتب الرسائل ونحن ... نحن نحفظ ماء وجهنا».» واختتم هانو بحماس: «لكن كان حريًّا بهم أن يستدعوني قبل عام. لقد أهدروا عامًا كاملًا.»

سأله جيم: «وخلال هذا العام، أحدثت أشياء مروعة؟»

أومأ هانو بغضب.

«رجل عجوز وحيد ومسالم، يتناول غداءه في الفندق ويشرب قهوته في جراند تافيرن، يُلقي بنفسه أمام قطار ميدترينيان السريع فيتقطع إربًا. ويطلق عاشقان النار على نفسَيْهما في «فوري دي مواسونير». فتاة شابة تعود إلى المنزل من حفلٍ راقص؛ تتمنى لأصدقائها ليلة هانئة على عتبة منزلها وهي مبتهجة، وفي الصباح يُعثَر عليها مشنوقة في قضيب حديدي مثبت في جدار غرفتها وهي ما زالت ترتدي فستان الرقص، في حين وُجدت في الموقد بقايا محترقة من إحدى هذه الرسائل. كم تلقَّت تلك الفتاة البائسة من رسائل قبل أن تدفعها هذه الرسالة الأخيرة إلى هذا الجنون؟ آه، ألم أخبرك؟ هذا القاضي يحتاج إلى حفظ ماء وجهه.»

ثم فتح هانو درجًا في مكتبه وأخرج منه مظروفًا أخضر اللون.

«انظر، هاتان اثنتان من تلك الرسائل الثمينة»، وأخرج ورقتين مكتوبتين بالآلة الكاتبة من المظروف وسلَّمَهما إلى فروبيشر. وأضاف لما رأى الاشمئزاز على وجه قارئهما: «ربما لا تسرُّك رؤية هذه الرسائل في الصباح، أليس كذلك؟»

قال جيم: «إنها فظيعة. لم أكُن لأصدق ...» ثم قطع حديثه بأن أطلق أنينًا خافتًا. «لحظة واحدة سيد هانو!» ثم مال برأسه مرة أخرى على الورق، مقارنًا بينهما، يدقِّق في كل جملة. كلا، لم يكُن هناك سوى الخطأين الاثنين اللذين لاحظهما مباشرةً. ولكن يا لها من أخطاء! على أي حال، بالنسبة إلى أي شخص يتمتع برؤية ثاقبة وقليل من الحظ فيما يتعلق بالخبرة. كانت تلك الأخطاء تقلص مجال البحث كثيرًا!

وصاح بحماس: «سيد هانو، باستطاعتي أن أقدِّم لك مساعدة إضافية.» ولم يلحظ الابتسامة العريضة التي تنمُّ عن السرور والتي بدَّلت وجه المحقق على نحو مفاجئ. «مساعدة قد تقودك سريعًا إلى كاتب هذه الرسائل.»

صاح به هانو «أصحيح؟ هات ما عندك يا صديقي الشاب. لا تتركني أرتجف من الإثارة. وإياك ... أوه! إياك أن تقول إنك اكتشفت أن الرسائل كُتبت على آلة كورونا. ذلك لأننا نعرف هذا بالفعل.»

احمرَّ وجه جيم فروبيشر. هذا هو الشيء الذي لاحظه بفطنته بكل فخر. فحيث يتطلب نص الجملة حرف D كبير، يكون هناك بدلًا منه صفران اثنان وخط قطري يفصل بينهما (بهذه الطريقة: ٪)، الذي هو رمز «النسبة المئوية». وحيث يجب أن يكون هناك حرف S كبير أسفل الصفحة، كان هناك حرف S كبير مع خطوط عرضية، وهي العلامة التي ترمز إلى الدولار. كان جيم نفسه يألَف هذه الآلة، وكان قد تذكَّر أنه إذا استخدم المرء بالخطأ الأرقام بدلًا من الأحرف الكبيرة، فإنها ستنتج هذين الخطأين. والآن أدرك من وجه هانو المسرور أمامه — كان هانو هو مَن يتقمَّص دور الخبيث اللعوب الآن — أن الشرطة بالتأكيد لن تغفل عن تلك الإشارات حتى لو غفل عنها القاضي في ديجون؛ وفي لحظة بدأ يضحك هو أيضًا.

وقال وهو يسلم الرسائل إلى هانو: «حسنًا، لقد جررت ذلك على نفسي، أليس كذلك؟ كنتُ رشيدًا يا سيدي أن اعتبرتُ أن من حسن الحظ أننا لن نكون خصمين.»

فقد وجه هانو مظهره اللعوب.

وقال بكل جدية: «لا تُعلِّق آمالًا عريضة عليَّ بأكثر مما أستحق يا صديقي، وإلا خاب أملك. فنحن خدم الصدفة، حتى أفضل مَن فينا. تكمن مهارتنا في أن نحقِّق منها الاستفادة القصوى، عندما تتلألأ لجزء من الثانية أمام أعيننا.»

ثم أعاد الرسالتين المجهولتين إلى المظروف الأخضر ووضعه مرة أخرى في الدرج. وبعد ذلك جمع الرسالتين اللتين كتبهما بوريس وابرسكي وأعادهما إلى جيم فروبيشر.

«سوف تحتاج إلى هذه الرسائل في ديجون. هل ستذهب هناك اليوم؟»

«عصر اليوم.»

فقال هانو: «حسن! سأستقلُّ القطار الليلي.»

فقال جيم: «يمكنني انتظارك حتى ذلك الحين.» لكن هانو هزَّ رأسه نافيًا.

وقال: «من الأفضل ألا نذهب معًا، وألا نقيم في الفندق نفسه. سيعرف الناس في ديجون سريعًا أنك محامي السيدة هارلو الإنجليزي، وسيكون من برفقتك تحت الملاحظة أيضًا. بالمناسبة، كيف أُبلِغتم في لندن أنني أنا — هانو — مَن كُلِّفت بهذه القضية؟»

أجاب جيم: «تلقينا برقية.»

«أجل؟ ممَّن؟ يحدوني الفضول!»

«من الآنسة هارلو.»

بدَت الحيرة للحظة على مُحَيَّا هانو وللمرة الثانية في هذا اللقاء. لم يكُن جيم فروبيشر يشك في ذلك. جلس هانو على هذه الحال لفترة طويلة، سيجارته في منتصف الطريق إلى شفتيه، كأنه رجل تحول إلى حجر. ثم ضحك بمرارة، وعيناه منتبهتان ومتجهتان إلى جيم.

وسأله: «هل تعرف ماذا أفعل يا سيد فروبيشر؟ أنا أطرح على نفسي لغزًا. أجب عنه إذا استطعت! ما هي العاطفة الأقوى في العالم؟ الجشع؟ الحب؟ الكراهية؟ لا شيء منها. إنه الرغبة الشديدة لدى مسئول عام أن يأخذ عصا كبيرة ويضرب زميله المسئول على مؤخر رأسه. لقد كان الترتيب أن أذهب بسرية إلى ديجون حتى تتهيَّأ لي الفرصة لتحقيق النجاح. ترى! وقد كان الإعداد لذلك يوم السبت، وبحلول يوم الاثنين نشر زملائي الأخبار بحيث أمكن للسيدة هارلو إرسالها لك ببرقية صباح الثلاثاء. لكن هذا لطيف، أليس كذلك؟ هل يمكنني رؤية البرقية من فضلك؟»

أخرج فروبيشر البرقية من المظروف الطويل وسلمها إلى هانو الذي أخذها بشوق واستغراب وفتحها على الطاولة أمامهما. وقرأها ببطء شديد، بحيث تساءل جيم إذا كان هو أيضًا يسمع من خلال خطوط البرقية صرخة طلب المساعدة نفسها المثيرة للشفقة التي سمعها هو، مثلما يسمع المتلقِّي عبر سماعة الهاتف. لكن عندما رفع هانو وجهه، كانت كل تعابير المرارة قد ذهبت عنه.

«تلك الفتاة المسكينة خائفة الآن، أليس كذلك؟ لم تعُد أصابعها النحيلة تشير بالازدراء، صحيح؟ لا بأس، في غضون بضعة أيام سنكون قد جعلنا أمورها على ما يرام.»

قال جيم بشجاعة ونشاط: «نعم.»

«حتى ذلك الحين، سأمزق هذا، موافق؟» ورفع هانو البرقية. وأردف: «اسمي مذكور فيها. ستكون البرقية معك في أمان دون شك، لكنها لا تخدم غرضًا. وكل شيء يُمزَّق هنا يُحرَق في المساء. القرار لك» ودلَّى البرقية أمام عينَي جيم فروبيشر.

فقال جيم: «بكل تأكيد» فمزَّق هانو البرقية. ثم جمع قطع الورق المُمزَّقة معًا ومزَّقها مرة أخرى وأسقطها في سلة النفايات. ثم قال: «هكذا! أُنجز الأمر! والآن أخبرني! هناك فتاة إنجليزية شابة أخرى في منزل كرينيل.»

قال جيم بإيماءة موافقة: «اسمها آن أبكوت.»

«نعم، أخبرني عنها.»

فقدَّم جيم لهانو الرد نفسه الذي كان قد قدمه للسيد هاسلت.

«لم أرَها في حياتي. ولم أسمع عنها حتى البارحة.»

ولكن بينما تلقى السيد هاسلت الإجابة بدهشة، قبِل بها هانو بدون تعليق.

وقال بابتسامة: «سنتعرف كلانا إذَن على تلك السيدة الشابة في ديجون» ثم نهض من كرسيه.

شعر جيم فروبيشر أن المقابلة التي بدأت بشكل سيئ وتحوَّلت إلى مقابلة ودية تُعيد نفسها وتنتهي نهاية ليست جيدة. كان يعي فارقًا طفيفًا وغير ملحوظ في أسلوب هانو، ليس تقليلًا من وده ولطفه، لكن ... لم يستطِع جيم أن يجد شيئًا سوى العبارة التي قالها هانو لتحديد هذا التغيير. بدا أن هانو قد استغلَّ الفرصة بينما تلوح للحظة أمام ناظريه. لكنه لم يكُن باستطاعته أن ينتبه إليها حين لاحت.

التقط جيم قبعته وعصاه. وكان هانو بالفعل عند الباب ويده على المقبض.

وقال: «وداعًا سيد فروبيشر، وأشكرك شكرًا خالصًا على زيارتك.»

وردَّ جيم: «سأراك في ديجون.»

وافقه هانو بابتسامة قائلًا: «بالتأكيد. في العديد من المناسبات. ربما في مكتب قاضي التحقيق. لكننا سنلتقي بلا شك في منزل كرينيل.»

لكن جيم لم يكُن مرتاحًا. كان هذا تعاونًا حقيقيًّا بدا هانو قبل بضع دقائق أنه يقبل به، ناهيك عن أن يتطلَّع إليه. أما الآن، فالأمر على العكس تمامًا، كان هانو يتجنبه.

فاقترح جيم: «ولكن إذا كنا سنعمل معًا؟»

أكمل هانو يقول: «قد ترغب في التواصل معي والوصول إليَّ بسرعة. أجل. وأنا ربما أرغب في التواصل معك والوصول إليك، وإن لم يكُن بسرعة، فبشكل سري جدًّا. أجل.» ثم تدبَّر السؤال في ذهنه. وأضاف: «ستمكث في منزل كرينيل كما أعتقد؟»

فقال جيم: «كلا» وشعر بشيء من الراحة لما بدت خيبة الأمل على هانو. فأوضح له: «لن يكون هناك حاجة إلى ذلك. لا يمكن لبوريس وابرسكي أن يحاول فعل المزيد. هاتان الفتاتان ستكونان آمنتين بما فيه الكفاية.»

وافقه هانو: «هذا صحيح. ستمكث إذن في الفندق الكبير في ساحة دارسي. بالنسبة إليَّ سأبقى في مكان أكثر احتجابًا، ولن أستخدم اسمي الحقيقي. سأتمسك بأي فرصة لا تزال باقية لي للحفاظ على السرية.»

ولم يتطوَّع هانو بذكر اسم الفندق المجهول أو الاسم الذي اقترح أن يتنكر به، وكان جيم حريصًا على ألا يستفسر. ووقف هانو بيده على مقبض الباب وعيناه مثبتتان على وجه فروبيشر وهو يفكر.

ثم قال: «سوف أستأمنك على حيلة صغيرة من حيلي» وقد اتقدَّ وجهه بابتسامة أضاءته بروح مرحة. «هل تحب الأفلام؟ كلا ... نعم؟ بالنسبة لي، أنا أعشقها. أينما أذهب أخصِّص ساعة للسينما. فأنا أرى أشياء رائعة وأراها في الظلام ... بحيث إنني أثناء مشاهدتي أستطيع التحدث بهدوء مع صديق، وعندما تُضاء الأنوار يكون قد غادر كلٌّ منا، ولا يتبقى سوى مقعدينا الفارغين اللذين جلسنا فيهما. نعم إنها دور السينما! بجمهورها الذي يتغير باستمرار والأشخاص الجدد الذين يأتون ويجلسون فجأةً على حجرك لأنهم لا يستطيعون رؤية شيء في الظلمة ولو كان أمام أعينهم، خذها مني، دور السينما مناسبة وتصلح لذلك. لكنك لن تشي بسري الصغير؟»

أنهى هانو كلامه بضحكة. وقد تجددت روح جيم فروبيشر بفضل تجدُّد ثقة هانو. فشعر بابتهاج يبعث على الفضول كأنه قد سافر بعيدًا عن جو ساحة راسل التقليدي. لم يتمكن أن يتصور في ذهنه أي صورة له أو لشريكه السيد هاسلت في الشركة وهما يلتقيان عميلًا في زاوية مظلمة من دار عرض سينمائي قبالة طريق ماريليبون. لم تكُن هذه المناورات من بين الأساليب التي تتبعها الشركة، وبدأ جيم يجد التغيير مثيرًا. وفكر في أن هذه الشركة ربما كانت عتيقة قليلًا في نهاية المطاف. وقد صاغ جيم عبارة ليعبر عن ذلك، صاغها هو بنفسه! ... هم يفتقدون إثارة العمل الشرطي.

قال جيم وكانت نبرة الحماس في صوته: «بالطبع سأحفظ سرك. ما كنت لأفكر أبدًا في مكان بهذه الروعة لنجتمع فيه.»

فقال هانو: «حسن. موعدنا في التاسعة إذَن مساءَ كلِّ ليلة، وما لم يكُن هناك شيء جاد يمنعني، فسأكون جالسًا في القاعة الكبيرة في جراند تافيرن. يقع جراند تافيرن في الزاوية المقابلة للميدان من محطة القطار. لا يمكنك أن تخطئه. سأكون على الجانب الأيسر من القاعة وقريبًا من الشاشة وعلى الحافة بالقرب من غرفة البلياردو. لا تبحث عني عندما تضاء الأنوار، وإذا كنت أتحدث مع شخص آخَر، تجنبني كأنني السم. مفهوم؟»

أجاب جيم: «تمامًا.»

«والآن لديك سران تحفظهما.» وكان وجه هانو قد فقد ابتسامته. بدا أن وجهه يصبح أكثر حِدَّة بطريقة غريبة، فأصبحت العينان فاتحتا اللون جامدتين وفي غاية

الجدية. وقال: «هذا أيضًا مفهوم يا سيد فروبيشر. لأنني بدأت أعتقد أننا كلينا قد نرى أشياءً غريبة قبل أن نغادر ديجون مرة أخرى إلى باريس.»

مرت لحظة الجدية. وبانحناءة فتح الباب. لكن وبينما خرج جيم فروبيشر إلى الممر كان مقتنعًا مرة أخرى أن هانو في جميع الأحوال رصد لمحة من فرصة لائحة، حتى لو لم يقبض عليها بيدَيه.

الفصل الرابع

بيتي هارلو

وصل جيم فروبيشر إلى ديجون في وقتٍ متأخر جدًّا من تلك الليلة ما جعله غير قادر على القيام بأي زيارة، ولكن في الساعة التاسعة والنصف من صبيحة اليوم التالي، انعطف بحماس شديد إلى شارع تشارلز-روبرت الصغير. كان ثمة سور حديقة عالٍ يحد هذا الشارع على طوله من أحد جانبَيه، وفوق هذا السور كانت أشجار الجميز والكستناء الكبيرة تصدر حفيفًا سائغًا مع حركة الرياح. ونحو الجانب الأقصى من الشارع كان امتداد السور ينقطع، أولًا بطرف منزل له نافذة مراقبة زاهية ومزخرفة من حقبة النهضة تعلو الرصيف؛ وثانيًا في موضع منه أبعد قليلًا بزوج من الأبواب الحديدية الطويلة والعريضة. وقف جيم أمام هذه البوابة. وأخذ يحدِّق في ساحة فناء منزل كرينيل، وبينما هو كذلك خبت جذوة حماسه وشعر بالخجل قليلًا من حماسه هذا. إذ لم يبدُ أن هناك سببًا له.

كان صباحًا دافئًا وهادئًا وصافيًا من الغيوم. ورأى جيم على الجانب الأيسر من الفناء الخادمات مشغولات بالعمل أمام صف من المكاتب؛ وفي طرف الفناء لمح سائقًا يتحرَّك بين زوج من السيارات في مرأب، وسمعه يصفر متهللًا وهو يتحرَّك؛ وعلى الجانب الأيمن، امتدَّ المنزل الكبير، وامتاز سقفه الأردوازي شديد الانحدار بأنماط ماسية ضخمة باللون الأصفر الزاهي، وكان المنزل يستقبل أشعة الشمس عبر كل نوافذه المفتوحة. وكان باب بهو المنزل تحت المروحة الزجاجية الأفقية مفتوحًا. كما كان أحد الأبواب الحديدية مفتوحًا أيضًا. حتى إن رقيب النظام في سرواله الأبيض هنا في الشارع الصغير بدا أنه يحتمي من الشمس في ظل السور العالي عوضًا عن ممارسة الانتباه والمراقبة. فكان من المستحيل — مع كل هذه الأدلة السائغة على الحياة الطبيعية — الاعتقاد بأن ثمة تهديدًا أو خطرًا على هذا البيت أو على أي من أهله.

فكر جيم في نفسه: «وفعلًا، لا يوجد أي تهديد. قطع لي هانو وعدًا بذلك.»

دفع جيم البوابة وسار حتى وصل إلى الباب الأمامي. وأبلغه خادم عجوز أن الآنسة هارلو لم تتلقَّ تنويهًا بزيارته، ولكنه أخذ بطاقة جيم على أي حال، وطرق على باب يقع جهة اليمين من الفناء المربع الكبير. وقد فتح الباب بينما هو يطرقه، ومن موقعه في الفناء، نظر جيم مباشرة عَبْر غرفة مكتبة إلى نافذة في نهايتها ورأى ظِل شخصين أمامها، ظِل رجل وظِل فتاة. كان الرجل يحتج، بطريقة مبالغ فيها بعض الشيء في كلماته وإيماءاته، وفق ما حكم به جيم طبقًا لوجهة نظره وثقافته البريطانية، بينما الفتاة تضحك ... ضحكة صافية ورنانة، تشوبها لمسة من القسوة والغلظة على احتجاجات الرجل. حتى إن جيم سمع كلمة أو كلمتَين من احتجاج الرجل بالفرنسية، ولكن بلكنة رنانة غريبة.

هتف بها الرجل: «كنت عبدًا لك لوقت طويل جدًّا»، وأصبحت الفتاة تدرك أن الباب مفتوح وأن الرجل العجوز يقف داخل الغرفة ويحمل صينية فضية عليها بطاقة. فتقدَّمت نحوه بسرعة وأخذت البطاقة. وسمع جيم هتاف السرور، وجاءت الفتاة تركض إلى الخارج في الفناء.

هتفت الفتاة وعيناها تلمعان: «أنت! لم أكُن أتوقع وصولك بهذه السرعة. أوه، شكرًا لك!» ثم وضعت كلتا يديها في يديه.

لم يكُن جيم بحاجة إلى كلماتها ليتعرَّف فيها على «الصبية الصغيرة» التي وصفها السيد هاسلت. لم تكُن بيتي هارلو قصيرة القامة بالتأكيد، ولكنها كانت فتاة نحيلة وضئيلة لدرجة أن الوصف بدا مناسبًا. كان لون شعرها بنيًّا داكنًا مع لمحة من اللون النحاسي حين يسقط عليه الضوء، وكان مُفرَقًا على جانب واحد ومُهندَمًا حول رأسها الصغير. وكانت بشرة جبهتها العريضة ووجهها البيضاوي بشرة صافية، فجعلت من اللون القرمزي على شفتَيها لونًا زاهيًا؛ وأضفت عليها حدقتا عينَيها الرماديتين الكبيرتين مظهرًا جعلها تبدو حزينة ومثيرة للشفقة في آنٍ واحد. وعندما مدَّت يدَيها بعرفان حار وأمسكت بيديه، بدت له كمخلوقة من وهج رقيق وهشة كالخزف. وقد نظرت إليه نظرة شاملة سريعة وتنهَّدَت بشيء من الارتياح.

وقالت بابتسامة: «سأحمل عليك مشكلاتي كلها من الآن فصاعدًا.»

أجابها: «بالتأكيد. هذا سبب وجودي هنا. ولكن لا تبالغي في تقديري.»

ضحكت بيتي مرة أخرى وأمسكت بكمه وجذبته إلى داخل المكتبة.

ثم قالت وهي تُقدِّم الرجل الغريب لجيم: «هذا هو السيد إسبينوزا. هو من كاتالونيا، ولكنه يقضي الكثير من حياته في ديجون حتى إننا نعتبره من مواطنيها.»

انحنى الكاتالوني وأظهر مجموعة رائعة من الأسنان البيضاء القوية.

قال إسبينوزا: «نعم، لديَّ الشرف بتمثيل شركة إسبانية كبيرة لزراعة النبيذ. نشتري النبيذ هنا لنمزجه مع علاماتنا التجارية الأفضل، ونبيع النبيذ هنا لنمزجه مع أنواعهم الأرخص.»

رد جيم باختصار: «يجب ألا تُفشي أسرارك التجارية لي.». لقد كره إسبينوزا من النظرة الأولى، كما يقولون، ولم يبذل جهدًا كبيرًا لإخفاء كرهه. كان إسبينوزا شخصية لامعة أكثر من اللازم. كان رجلًا ضخمًا، عريض الأكتاف، له شعر أسود لامع وعينان سوداوان بارقتان، وبشرة حمراء، وشارب مجعد، ويرتدي خواتم لامعة في أصابعه.

تدخلت بيتي: «السيد فروبيشر جاء من لندن من أجل رؤيتي لشأن مختلف تمامًا.»

قال الكاتالوني بشيء من التحدي: «أحقًّا؟» وكأنه يعتزم التمسك بموقفه.

ردَّت بيتي: «نعم»، ثم مدَّت يدها إليه. فرفع إسبينوزا يدها بتردُّد إلى شفتَيه وقبَّلها.

وقالت بيتي: «سأراك عند عودتك» ثم مشت نحو الباب.

رد إسبينوزا بعناد: «إذا كنت سأغادر. ليس مؤكدًا، آنسة بيتي، أنني سأغادر.» ثم انحنى انحناءة رسمية ومهذبة أمام جيم وخرج من الغرفة؛ لكن ليس بسرعة كبيرة بحيث تنقلت بيتي بنظراتها بسرعة بين الرجلين بعينين تقارنان بدقة، ولاحظ جيم ذلك. وأغلقت بيتي الباب وعادت إلى جيم بتعبير ودود على وجهها جعله يشعر بالارتياح. لقد قُورن برجل آخَر وكانت المقارنة لصالحه، وبغضِّ النظر عن تواضُع المرء، فإن مثل هذه المقارنة تخلق دفئًا لطيفًا.

قال جيم بابتسامة: «مزيد من المتاعب، آنسة هارلو، لكن هذه المرة هي نوع المتاعب التي يجب أن تتوقعيها لسنوات عديدة قادمة.»

ثم تحرك نحوها، والتقيا عند إحدى النافذتين الجانبيتين المطلتين على الفناء. وجلست بيتي على مقعد النافذة.

وقالت: «حقًّا، يجب أن أكون مُمتَنَّة له، لأنه جعلني أضحك. ويبدو لي أن عمرًا قد مرَّ منذ آخر مرة ضحكت فيها.» ثم نظرت من النافذة وامتلأت عيناها فجأة بالدموع.

فصاح جيم بصوت مليء بالقلق: «أوه! لا تفعلي ذلك، أرجوك.»

ارتعشت الابتسامة مرة أخرى على شفتي بيتي بعذوبة.

وردت: «لن أفعل.»

تابع جيم: «كنت سعيدًا جدًّا لسماعك تضحكين، بعد أن تلقيت تلك البرقية التعيسة التي أرسلتِها إلى شريكي وقبل أن أخبرك بأخباري السارة.»

نظرت بيتي إليه بلهفة.

وقالت: «أخبار سارة؟»

أخرج جيم فروبيشر مرة أخرى من المظروف الطويل الرسالتين اللتين أرسلهما وابرسكي إلى شركته وسلمهما لبيتي.

وقال: «اقرئيهما، ولاحظي التواريخ.»

طالعت بيتي خط اليد.

وصاحت: «من السيد بوريس» ثم استقرَّت على مقعد النافذة تقرؤهما. بدَت بيتي لجيم — بفستانها الأسود القصير وساقيها النحيلتين بالجوارب الحريرية السوداء الممدودة وقدميها المتقاطعتين، ورأسها ورقبتها البيضاء منحنية على أوراق رسائل وابرسكي — بدَت كفتاة خرجت لتَوِّها من المدرسة. ومع ذلك، كانت سريعة في تقدير قيمة الرسائل.

قالت: «بالطبع كنت أعلم دائمًا أن المال هو ما يريده السيد بوريس. وعندما قُرِئت وصية عمتي ووجدت أنها تركت كل شيء لي، قررت أن أستشيرك وأتدبَّر له شيئًا.»

اعترض جيم: «لم يكُن هناك أي التزام عليك. لم يكُن قريبًا لك حقًّا. لقد تزوَّج أخت السيدة هارلو، هذا كل شيء.»

ردَّت بيتي: «أعلم»، ثم ضحكت. «لقد كان دائمًا يعترض عليَّ لأنني كنت أسميه «السيد بوريس» بدلًا من «العم». لكنني مع ذلك كنت أنوي فعل شيء. لكنه لم يعطني الوقت. لقد استغلني أولًا، وأنا أكره أن أتعرض للاستغلال — أتكره ذلك أيضًا سيد فروبيشر؟»

قال جيم: «أكره ذلك أيضًا.»

نظَرَت بيتي إلى الرسائل مرَّة أخرى.

وأردفت: «أظن أن هذا هو الوقت الذي استهنت به فيه» مع قرقرة في عبارتها تنمُّ عن الابتهاج. وتابعت: «بعد ذلك، أطلق هذه التهمة الرهيبة ضدي، كما أن اقتراح أي ترتيبات كان سيُفسَّر على أنه اعتراف بالذنب.»

وافق جيم بحرارة: «كنتِ مُحِقَّة تمامًا. كان سيُفسَّر كذلك بالفعل.»

حتى هذه اللحظة، كانت هناك شكوك تتربَّص في ذهن جيم فروبيشر بأن هذه الفتاة قاسية بعض الشيء في تعامُلها مع بوريس وابرسكي. كان مُتطفِّلًا ومُبذِّرًا، ولم يكُن له أيُّ حق حقيقي عليها، هذا صحيح. من ناحية أخرى، لم يكُن لديه أي مصدر رزق، وكانت السيدة هارلو، التي ورثت بيتي ثروتها منها، راضية بتحمُّله ودعمه. أما الآن، فقد تبدَّدَت الشكوك وزالت هذه النقيصة الصغيرة عن الفتاة بصراحتها.

قالت بيتي: «إذَن فقد انتهى كلُّ شيء»، وهي تسلم الرسائل مرَّة أخرى إلى جيم مع تنهيدة تنم عن الارتياح. ثم ابتسمت بأسًى وأردفت: «لكنني كنت خائفة حقًّا لفترة قصيرة. فقد استدعاني قاضي التحقيق واستجوبني كما تعلم. أوه! لم أخشَ الأسئلة، بل كنت خائفة منه، من الرجل. لا شك أن من واجبه أن يبدو صارمًا، لكنني لم يسعني إلا أن أفكِّر أنه إذا كان شخصٌ ما يبدو بهذه الصرامة الرهيبة، فلا بد أن سبب ذلك أنه لا يملك أي ذكاء ويريدك ألا تعرف. والأشخاص الذين لا يملكون ذكاءً دائمًا ما يُمثِّلون خطرًا، صحيح؟»

وافقها جيم قائلًا: «نعم، لم يكُن ذلك مشجعًا.»

وأضافت: «ثم منعني من استخدام السيارة، وكأنه يتوقَّع أن أهرب. وفوق كل ذلك، عندما غادرت من دار القضاء، قابلت أصدقاء لي بالخارج وقد أعطوني قائمة طويلة بأشخاص أُدينوا وثبتت براءتهم بعد فوات الأوان.»

حملق بها جيم.

وهتف: «يا لهم من أوغاد!»

ردَّت بيتي بحكمة: «لا بأس، لدينا جميعًا أصدقاء مثل هؤلاء. لكن أصدقائي كانوا مقززين للغاية. ذلك لأنهم ناقشوا بالفعل — كشيء من الصواب بالطبع — سببَ وجوب أن أستعين بأفضل محامٍ، وما إذا كان يمكن تحويل التهمة إلى جريمة قتل بحق الأم؛ بما أن السيدة هارلو قد تبنَّتني. وفي هذه الحال، لن أنال أي عفو، وسأذهب إلى المقصلة بقدمَين حافيتَين وبحجاب أسود على رأسي.» ولما رأت الرعب والاستنكار في وجه جيم فروبيشر، مدَّت يدها إليه.

«نعم. غالبًا ما تنطوي الكراهية في الأقاليم على فجاجة بعض الشيء، رغم أنني ...» ثم رفعت قدمها النحيلة حيث كانت ترتدي حذاءً لامعًا وتأملتها بمرح وغرابة، ثم أكملت: «رغم أنني لا أتخيَّل أنني سيُقلقني كثيرًا في ظِل هذه الظروف ما إذا كنت أرتدي أفضل أحذيتي وجواربي أم لا.»

صاح جيم: «لم أسمع أبدًا باقتراح بغيض كهذا.»

تابعت بيتي: «يمكنك أن تتخيَّل، على أي حال، أنني عُدتُ إلى المنزل مُرتعِشةً بعض الشيء، وكذلك سبب إرسالي تلك البرقية المذعورة. كنت سأتراجع عنها عندما استعدتُ هدوئي. لكن كان الوقت قد فات. كانت البرقية قد ...»

ثم سكتت فجأة بعد أن علَت نبرتها علوًّا طفيفًا وشهقت شهيقًا حادًّا.

وسألت بصوت مختلف: «مَن هذا؟» كانت تتحدَّث بهدوء وببطء، مع تقدير هزلي لأسباب خوفها. والآن، كانت تطرح سؤالها بسرعة، وكان القلق هو الغالب على صوتها. وكرَّرَت: «مَن هذا؟»

كان ثَمَّ رجلٌ كبير الجسم، قويُّ البنية، يتجوَّل بخطوات ثقيلة أمام البوابة الحديدية الكبيرة، وكان قد اندفع فجأة إلى الفناء. قبل جزء من الثانية، كان شخصًا يتسكَّع على الطريق، والآن كان يختفي بالفعل تحت المروحة الزجاجية الكبيرة في القاعة.

قال جيم: «إنه هانو.» وقد نهضت بيتي على قدمَيها كما لو أن نابضًا تحرَّر بداخلها، فوقفت تتمايل.

طمأنها جيم فروبيشر: «ليس هناك ما يُخيفك من هانو. لقد أريته هاتَين الرسالتَين من وابرسكي. إنه حليفك من البداية وحتى النهاية. اسمعي. هذا ما قاله لي أمس في باريس.»

سألت بيتي فجأةً: «أمس، في باريس؟»

قال جيم: «نعم، لقد زرت هانو في مقر الشرطة الجنائية. وكانت هذه كلماته. لقد حفظتها حتى أستطيع أن أكرِّرها على مسامعك كما نطقها تمامًا: «يمكن لموكلتك الصغيرة أن تضع رأسها الجميل على وسادتها وهي واثقة من أنه لن يُرتكب أي ظلم بحقِّها».»

وبينما كان جيم يُنهي كلامه، دوى جرس الباب الأمامي في جميع أنحاء المنزل.

سألت بيتي بعناد: «إذَن لماذا هو في ديجون؟ لماذا هو عند الباب الآن؟»

لكن هذا كان السؤال الوحيد الذي يجب على جيم عدم الإجابة عنه. لقد أفضى له هانو بسر. وقد تعهد بعدم إفشائه. كان على بيتي أن تستمرَّ في الاعتقاد لفترة قصيرة أن اتهام وابرسكي ضدها هو السبب الحقيقي لوجود هانو في ديجون، وليس مجرد ذريعة لذلك.

رد جيم: «هانو يعمل بأوامر. إنه هنا لأنه جرى استدعاؤه.» وقد أراحه أنه رأى أن هذا الجواب كان كافيًا. في الحقيقة، تحوَّلت أفكار بيتي إلى مشكلة ما لم يكُن لديه حلٌّ لها.

قالت بيتي بابتسامة دافئة: «إذَن أنت زرت السيد هانو في باريس. لم تنسَ شيئًا يمكن أن يساعدني.» ثم وضعت يدها على عتبة النافذة المفتوحة: «أتمنى أن يكون قد شعر بكل الإطراء الذي انطوت عليه برقيتي المذعورة إلى لندن.»

«بل كان يُؤسِفه أنك مَرَرتَ بكل هذا البؤس والكرب.»

سألت بيتي: «إذَن أنت أريته البرقية؟»

أجاب: «وقد تخلص منها. كانت حجتي لزيارته ومعي الرسائل.»

جلست بيتي مرَّة أخرى على مقعد النافذة ورفعت إصبعها طالبةً الصمت. خارج الباب، كان هناك أصوات حديث. ثم فُتح الباب ودخل الخادم العجوز. هذه المرَّة لم يكُن يحمل بطاقة على صينية، لكن كان واضحًا أنه متأثر ومضطرب بعض الشيء.

وشرع يقول: «آنستي»، فقاطعته بيتي. كان كلُّ أثَر للقلق قد اختفى من سلوكها. فقد عادت تملك زمام نفسها.

قالت: «أعرف يا جاستون. أدخل السيد هانو على الفور.»

لكن السيد هانو كان قد دخل بالفعل. وانحنى بتأدُّب ولطف لبيتي هارلو، وصافح جيم فروبيشر بحرارة.

قال هانو: «كنت سعيدًا وأنا أعبر الفناء يا آنستي، أن أرى صديقي هنا معك بالفعل. في نهاية المطاف، لا شك أنه أخبرك أنني لست الوحش الذي يظهر في كتب الحكايات.»

صاحت بيتي في حيرة: «لكنك لم تنظر إلى النوافذ أبدًا.»

ابتسم هانو بمرح.

وقال: «آنستي، من أساليبي المهنية ألا أنظر إلى النوافذ ومع ذلك أعرف ما يحدث خلفها. أتأذنين لي؟» ووضع قبعته وعصاه على طاولة كبيرة في وسط الغرفة.

الفصل الخامس

بيتي هارلو تجيب

تابع هانو: «لكننا لا نستطيع حتى من خلال أوسع النوافذ أن نرى ما حدث خلفها قبل أسبوعين. في مثل هذه الحالات يا آنستي، علينا أن نكون مصدر إزعاج ونطرح الأسئلة.»

ردَّت بيتي بهدوء: «أنا على استعداد للإجابة عنك.»

صاح هانو ببشاشة: «أوه، في هذا الشأن ... لا شك في هذا. هل يُسمح لي بالجلوس؟ أتأذنين لي؟»

قفزت بيتي واقفة، وقد تحوَّل شحوب وجهها إلى لون وردي.

وقالت: «أعتذر. بالطبع يا سيد هانو.»

هذا الإغفال الصغير في آدابها أظهر لجيم فروبيشر أنها كانت متوترة. لولا ذلك، لَقدَّر أنها تتمتَّع بدرجة من ضبط النفس تكاد تكون غير طبيعية بالنسبة لسنها.

قال هانو بابتسامة: «لا بأس. ففي نهاية المطاف، نحن ضيوف مزعجون ... حتى الأكثر لطفًا بيننا.» وجذب كرسيًّا من جانب الطاولة وقرَّبه حتى أصبح مواجهًا لبيتي. لكنه بذلك تنازَلَ لها عن أي أفضلية يمكن اكتسابها من موقعه. ذلك لأن الضوء المنبعث من النافذة كان يسقط بكل حيويته الصباحية على وجهه، بينما كان وجهها متجهًا إلى داخل الغرفة.

قال وهو يتخذ مجلسه: «والآن! آنستي، سأقدِّم لك أولًا مخططًا لإجراءاتنا البسيطة كما أراها في الوقت الراهن. لقد جرى استخراج جثة السيدة هارلو قبل ليلتين بحضور كاتب العدل الخاص بك.»

تحركت بيتي فجأةً وقد انتابتها قشعريرة محدودة من الاشمئزاز.

فواصل هانو سريعًا: «أعلم. هذه الضرورات مزعجة. لكننا لا نؤذي السيدة هارلو، وعلينا أن نضع الأحياء في اعتبارنا، أي أنتِ آنسة بيتي هارلو، ونتأكَّد من عدم بقاء

أي شكوك حولكِ ... لا، ليس حتى حول أصدقائك الأكثر إخلاصًا. أليس كذلك؟ وأما ثانيًا، فسأوجِّه أسئلتي إليكِ هنا. ثم ننتظر تقرير المحلل. ثم سيقدم قاضي التحقيق بالتأكيد مجاملاته لك، وأما أنا، هانو، إذا كنت محظوظًا، فسأحمل معي على صدري نحو باريس الكئيبة صورة موقعة من الآنسة هارلو الجميلة.»

صاحت بيتي وهي تضم يدَيها معًا بامتنان: «وهذا سيكون كل ما في الأمر؟»

قال هانو: «بالنسبة إليكِ يا آنسة، فنعم. لكن بالنسبة لبوريس الصغير ... كلا!» ثم ابتسم هانو بترقُّب ماكر وخبيث: «أتطلَّع إلى نصف ساعة مع ذلك الشخص الأخرق. سأتحدَّث إليه ولن أكون محترمًا ونبيلًا ... كلا، على الإطلاق. سأحرص أيضًا على عدم حضور صديقي المقرب السيد فروبيشر ذلك لأنه سيحرمني من كل متعتي. سينظر إليَّ بكل جدية مثل عمتي العجوز وسيقول لنفسه: «مروع! أوه، هذا المهرج! يا له من رجل! إنه لئيم.» كلا، ولن أكون شريفًا. لكن، من ناحية أخرى، سأضحك طوال الطريق من ديجون إلى باريس.»

وبالفعل، بدأ هانو يضحك، وانضمَّت إليه بيتي فجأة. كانت ضحكتها رائقة ورنَّانة ومليئة بالمرح، وجعلت جيم يتخيَّل نفسه مرَّة أخرى في القاعة يسمع ذلك الضحك يتردَّد عَبْر الباب المفتوح.

قال هانو: «آه، هذا جيد! يمكنك أن تضحكي يا آنسة، حتى على سخافاتي. عليكِ أن تبقي السيد فروبيشر هنا في ديجون ولا تدعيه يعود إلى لندن حتى يتعلَّم هو أيضًا ذلك الفن الأرفع والأسمى بين كل الفنون.»

قرَّب هانو كرسيه قليلًا، وتشكَّلَت في ذهن جيم فروبيشر صورة لا تبعث على الارتياح مطلقًا. هكذا تمامًا، بكلمات خفيفة ونكات صغيرة تُعتصَر حدَّ السخافة، يُقرِّب الأطباء كراسيهم من أسِرَّة المرضى في الحالات الخطيرة. وقد استغرق الأمر بضع دقائق من أسئلة هانو قبل أن تغيب تلك الصورة تمامًا عن ذهنه.

قال هانو: «حسن! والآن لنمضِ بالعمل ونسجِّل الوقائع الفعلية جميعها بوضوح وانتظام!»

وافق جيم قائلًا: «نعم» وقرَّب كرسيه قليلًا أيضًا. وفكَّر في نفسه، إن من الغريب أنه لا يعرف عن الوقائع الفعلية للقضية إلا القليل جدًّا.

قال هانو: «الآن أخبريني يا آنسة! على حدِّ علمنا، توفيت السيدة هارلو بسلام في فراشها خلال الليل.»

ردَّت بيتي: «نعم.»

سأل: «خلال ليلة ٢٧ أبريل؟»

قالت: «نعم.»

سأل: «كانت تنام وحدها في غرفتها تلك الليلة؟»

ردَّت: «نعم، أيها السيد.»

سأل: «هل كانت هذه عادتها؟»

قالت: «نعم.»

قال هانو: «أفهم أن قلب السيدة هارلو كان يسبِّب لها المتاعب منذ بعض الوقت.»

ردَّت بيتي: «لقد كانت مريضة لمدة ثلاث سنوات.»

سأل: «وكانت هناك ممرِّضة مدربة موجودة دائمًا في المنزل؟»

قالت: «نعم.»

أومأ هانو برأسه.

قال: «الآن أخبريني آنستي، أين كانت تنام هذه الممرضة؟ في الغرفة المجاورة للسيدة؟»

ردَّت بيتي: «كلا. كانت هناك غرفة نوم مُجهَّزة لها في الطابق نفسه ولكن في نهاية الممر.»

سأل: «كم هي المسافة بين هذه الغرفة وغرفة عمتك؟»

قالت: «تفصل بينهما غرفتان.»

سأل: «غرف كبيرة؟»

أوضحت بيتي: «نعم. هذه الغرف موجودة في الطابق الأرضي، وهي ما يمكن أن تسميه غرف استقبال. لكن، بما أن قلب السيدة جعل صعود السلالم خطرًا عليها، فقد جُهز بعضها خصوصًا لتُقيم هي فيها.»

قال هانو: «نعم، فهمت. غرفتا استقبال كبيرتان بينهما، أليس كذلك؟ وجدران المنزل سميكة. ليس من الصعب أن نرى أنه لم يُبنَ في هذه الأيام. سؤالي لك الآن يا آنستي هو الآتي. هل يمكن أن تُسمع صرخة السيدة هارلو ليلًا — عندما يكون المنزل كله هادئًا — في غرفة الممرضة؟»

ردَّت بيتي: «أنا متأكدة تمامًا أنه لن يُسمع. لكن كان هناك جرس بجانب فراش السيدة يرنُّ في غرفة الممرضة. كان كلُّ ما عليها فعله هو أن ترفع ذراعها لتضغط على الزر.»

قال هانو: «آه! جرس جُهز خصوصًا؟»

«نعم.»

قال: «والزر في متناول يدها. نعم. هذا جيد جدًّا، إذا لم يغِب الشخص عن الوعي يا آنسة. لكن لنفترض أنه غاب عن الوعي! عندها لن يكون الجرس مفيدًا جدًّا. ألم تكُن هناك غرفة أقرب يمكن تخصيصها للممرضة؟»

ردَّت بيتي: «كانت هناك غرفة بجوار غرفة عمتي، يا سيد هانو، مع باب يصل بينهما.»

كان هانو في حيرة فعاد بظهره إلى الوراء في كرسيه. وشعر جيم فروبيشر أن الوقت قد حان كي يتدخل. لقد كان يشعر بالقلق على نحو متزايد مع تقدُّم الاستجواب. لم يستطِع أن يرى أي سبب يجعل بيتي، تتعرَّض للإزعاج دون داعٍ، رغم أنها تجيب دون تردُّد أو ريبة.

قال جيم: «سنوفِّر الكثير من الوقت بالتأكيد يا سيد هانو، إذا زرنا هذه الغرف واطلعنا عليها بأنفسنا.»

هنا استدار هانو كشيء يدور حول محور. كان الإعجاب يتلألأ في عينَيه. وأخذ ينظر إلى زميله المستجد في دهشة.

وصاح بحماس: «يا لها من فكرة! يا لها من فكرة رائعة! كم هي مبتكرة! كم يصعب تصوُّرها! وكان ذهنك أنت يا سيد فروبيشر ما تفتَّق عنها! أقدِّم لكِ إعجابي الشديد!» ثم تحول كل حماسه إلى خمول. وقال: «لكن يا للأسف!»

انتظر هانو باهتمام أن يسأل جيم عن تفسير لهذه الحسرة، لكن وجه جيم اشتدَّ احمرارًا ورفض التطوُّع للسؤال. كان واضحًا أنه قدم اقتراحًا غبيًّا جعله محط سخرية أمام بيتي هارلو الجميلة التي كانت تتطلَّع إليه لإنقاذها؛ وعلى وجه العموم، وبينما كان يجلس بانتظار أي حماقة أو سخافة أخرى، اعتقد جيم أن هانو ثقيل الظل ولا يُطاق. وفي النهاية، اضطر هانو إلى أن يقدم تفسيرًا.

فقال: «كان علينا زيارة تلك الغرف بالفعل يا سيد فروبيشر. لكن مفوض الشرطة أغلقها بأختام، وبدون حضوره لا يمكننا كَسْر الأختام.»

كانت هناك حركة لا تكاد تُلاحظ صدرت عن بيتي هارلو عند النافذة؛ ابتسامة لا تكاد تُرى، ظهرت على شفتَيها للحظة خاطفة؛ ورأى جيم هانو يتصلَّب مثل كلب حراسة سمع صوتًا في الليل.

سأل هانو بحدة: «هل أنتِ مستمتعة أيتها الآنسة؟»

ردَّت بيتي: «على العكس، أيها السيد.»

وعادت الابتسامة إلى وجهها وظهر أنها كانت مجرد حنين. فقد قالت: «كان لديَّ أمل أن تُزال تلك الأختام الكبيرة مع أشرطتها الكتانية عن الأبواب. إنها ترعبني، لكن هذا مجرَّد أمر خيالي بلا شك. الأمر يبدو لي وكأن المنزل محجور عليه.»

فتغير أسلوب هانو على الفور.

وقال: «أستطيع أن أتفهَّم هذا تمامًا آنستي، وسأجعل من مهمتي أن تُزال تلك الأختام. في الواقع، لم يكُن هناك فائدة كبيرة من وضعها، فقد وُضعت فقط حين جرى توجيه الاتهام وبعد ١٠ أيام من وفاة السيدة هارلو.» ثم التفت إلى جيم وأضاف: «لكننا أيضًا في فرنسا مكبلون بالروتين. ومع ذلك، فإن السؤال الذي أرمي إليه لا يعتمد على الغرف بأي شكل. إنما سؤالي هو الآتي يا آنسة» والتفت مرة أخرى إلى بيتي.

«كانت السيدة هارلو مريضة وبرفقتها ممرضة في خدمة دائمة. كيف يُعقَل أن الممرضة لم تنَم في تلك الغرفة المناسبة ذات الباب المشترك مع غرفة السيدة؟ لماذا كانت في مكان لا تستطيع أن تسمع فيه صرخة أو نداءً مفاجئًا؟»

أومأت بيتي برأسها. هذا سؤال يتطلَّب إجابة. فانحنت للأمام تختار كلماتها بعناية.

قالت بيتي: «نعم، ولكن لفهم ذلك يا سيدي، عليك أن تفهم شيئًا عن عمتي وتضع نفسك للحظة مكانها. كانت تلك إرادتها. كانت مريضة كما تقول. لم تكُن تتجاوز الحديقة عند خروجها منذ ثلاث سنوات إلا في عربة خاصة مرة واحدة في السنة إلى مونت كارلو. لكنها لم تكُن تعترف بمرضها. لا، كانت في قرارة نفسها قوية ومقاتلة. كانت تعتقد أنها ستتحسَّن، وكان الأمر دائمًا مسألة أسابيع قليلة بالنسبة إليها، وأن يكون هناك ممرضة ترتدي زيَّها الرسمي ودائمًا موجودة بالقرب من الباب المفتوح، كما لو كانت في المراحل الأخيرة من المرض ... كان ذلك يزعجها.» توقفت بيتي للحظة ثم تابعَت. «بالطبع، عندما كانت تُعاني من نوبة حرجة، كنا ننقل الممرضة. أنا نفسي كنت أصدر الأمر. ولكن بمجرد أن تهدأ النوبة، كان على الممرضة أن تغادر. لم تكُن عمتي تتحمل وجودها.»

استوعب جيم كلامها. وأعطاه صدق الكلام لمحة عن المرأة المتوفاة، مما جعله يقدر جوهره الصعب. لم تكُن تريد أن تستسلم. لم تكُن تريد أدوات السقم حولها على نحو دائم. كلا، كانت تريد أن تنام في غرفتها، وحدها، مثل النساء الأخريات في سنها. نعم، فهم جيم ذلك وصدَّق كل كلمة نطقتها بيتي. لكن ... لكن ... كانت تُخفي شيئًا. هذا ما

أزعجه. ما قالته كان صحيحًا، لكن هناك المزيد مما ينبغي أن تقوله. كان حديث بيتي ينطوي على نوع من التذبذُب، اختيار دقيق للكلمات ثم اندفاع مفاجئ بعبارات لتغطية هذا التذبذب. نظر جيم إلى هانو الذي جلس دون حراك وعيناه مثبتتان على وجه بيتي، يُطالبها بمزيد عَبْر سكوته وعدم انفعاله. انتاب جيم إحساس أكيد أنهما كليهما كانا على حافة ذلك السر الصغير الذي، وفقًا لهاسلت وهانو، دائمًا ما يكون وراء مثل هذه الاتهامات الهمجية التي أطلقها وابرسكي ... السر العائلي الصغير المُخجِل الذي يجب أن يُدفن بعيدًا عن أعين العالم. وبينما كان جيم يتأمَّل في هذا التفسير لسلوك بيتي، اندهش فجأةً من هتاف حاد انطلق من بين شفتَيها.

صاحت بيتي: «لماذا تنظر إليَّ هكذا؟» قالت ذلك بينما كانت عيناها تتوهَّجان في وجهها الأبيض وشفتاها ترتعشان. وقد ارتفع صوتها إلى درجة التحدي.

«أتُكَذِّبني يا سيد هانو؟»

رفع هانو يدَيه في احتجاج. ثم انحنى للخلف في كرسيه. وتراخى الترقُّب في عينَيه والانتباه من سلوكه كله.

وقال يُؤَنِّب نفسه بشدة: «أعتذر يا آنسة. أنا لا أشك فيك. كنت أستمع بانتباه شديد لما تقولين، حتى لا أضطر إلى إزعاجك بأسئلتي مرَّة أخرى. لكن كان عليَّ أن أتذكَّر، ما نسيتُه أنكِ كنتِ تعيشين تحت ضغط شديد طوال عدَّة أيام. كان أسلوبي خاطئًا.»

فسكتت عنها زوبعة الغضب. وغاصت بيتي في زاوية مقعد النافذة، وكان رأسها مسنودًا إلى جانب الإطار ووجهها مرفوعًا قليلًا.

وردَّت قائلة: «أنت في غاية التفهُّم والإنصاف يا سيد هانو. أنا مَن يجب أن تعتذر. كنت أتصرف مثل فتاة صغيرة مضطربة. هلَّا أكملت أسئلتك؟»

أجاب هانو بلطف: «نعم. من الأفضل أن ننهيها الآن. دعونا نعود إلى ليلة السابع والعشرين!»

قالت بيتي: «نعم، سيدي.»

قال هانو: «كانت عمتك في صحتها المعتادة تلك الليلة ... لم تكُن حالتها لا أفضل ولا أسوأ.»

ردَّت بيتي: «بل كانت أفضل قليلًا.»

قال هانو: «لذلك لم تتردَّدي في الذهاب إلى حفل راقص نظَّمه بعض أصدقائك ذلك المساء؟»

فُوجئ جيم. إذَن، بيتي كانت خارج المنزل بالفعل في تلك الليلة المصيرية. كانت هذه نقطة جديدة في صالحها. ثم صاح: «حفل راقص!» فرفع هانو يده.

وقال: «من فضلك، سيد فروبيشر! دع الآنسة تتحدَّث!»

شرحت بيتي: «لم أتردَّد. كان يجب أن تستمرَّ حياة المنزل بشكل طبيعي. لم يكُن من المناسب أن أفعل أشياء غير معتادة. كانت عمتي سريعة الملاحظة. أعتقد أنه على الرغم من أنها لم تكُن تعترف بأنها مريضة بشكل خطير، فإنها كانت من أعماقها تشك في ذلك؛ وكان عليَّ أن أحترس من أن أُصيبها بالقلق.»

قال هانو: «بأفعال مثل البقاء في المنزل وعدم الذهاب إلى حفل كانت تعرف أنكِ تنوين حضوره؟ نعم، يا آنسة. أنا أفهم ذلك تمامًا.»

وأومأ برأسه إلى جيم فروبيشر، وأضاف بابتسامة: «آه، أنت لم تكُن تعرف ذلك، سيد فروبيشر. كلا، ولا صديقنا بوريس وابرسكي، على ما أعتقد. وإلا لَمَا هرع إلى مدير الشرطة بهذه السرعة. لقد كانت الآنسة ترقص مع رفيقاتها في تلك الليلة تحديدًا، وهي الليلة التي يُدَّعى ارتكاب أبشع الجرائم فيها. بالمناسبة يا آنستي، أين كان بوريس وابرسكي في ليلة السابع والعشرين؟»

ردَّت بيتي: «كان غائبًا. غادر في يوم الخامس والعشرين لصيد سمك السلمون المرقط في قرية على نهر أوش، ولم يعُد حتى صباح الثامن والعشرين.»

قال هانو: «بالضبط. يا له من شخص! لنأمل أن يكون لديه شبكة صيد أفضل لسمك السلمون المرقط من تلك التي أعدها على عجل للآنسة هارلو. وإلا فإن رحلته التي استمرَّت ثلاثة أيام لم تكُن لتُثمر عن الكثير.»

أثار ضحكه وكلامه ابتسامة خفيفة على وجه بيتي، ثم عاد بسرعة إلى أسئلته.

قال: «إذَن ذهبتِ إلى حفل راقص يا آنسة. أين؟»

ردَّت بيتي: «في منزل السيد دي بوياك في شارع تيير.»

سأل: «وفي أي ساعة ذهبتِ؟»

قالت: «غادرت هذا المنزل في التاسعة إلا خمس دقائق.»

سأل: «هل أنتِ متأكدة من الساعة؟»

قالت: «تمامًا.»

سأل: «هل رأيتِ عمتك قبل أن تذهبي؟»

أجابت بيتي: «نعم. ذهبت إلى غرفتها قبل أن أغادر. كانت تتناول عشاءها في الفراش، كما كانت تفعل في أغلب الأحيان. كنت أرتدي فستانًا جديدًا ابتعته هذا الشتاء في مونت كارلو، وذهبت إلى غرفتها لأريها كيف أبدو فيه.»

سأل هانو: «هل كانت عمتك وحدها؟»

ردَّت بيتي: «كلا؛ كانت المرضة معها.»

وعندها ابتسم هانو بدهاء كبير.

ثم قال بابتسامة ودودة: «كنت أعرف ذلك يا آنستي. انظري، لقد نصبتُ فخًّا صغيرًا لكِ. ذلك لأن لديَّ هنا شهادة المرضة نفسها، جين بودان.»

وأخرج من جيبه ورقة مطبوعة عليها فقرة. وقال: «نعم، قاضي التحقيق استدعاها وأخذ إفادتها.»

قالت بيتي: «لم أكُن أعرف ذلك. لقد غادرت جين يوم الجنازة وذهبت إلى منزلها. لم أرَها منذ ذلك الحين.»

ثم أومأت لهانو مرة أو نحو ذلك بابتسامة تقدير.

وقالت بإعجاب: «لن أحب أن أكون شخصًا لديه سر يُخفيه عنك، يا سيد هانو. لا أعتقد أنني سأتمكن من إخفائه لفترة طويلة.»

انشرح هانو لهذا الإطراء وكأنه مبتدئ، ورأى جيم فروبيشر أنه يميل لأن يكون مبتدئًا سفيهًا ومبتذلًا.

وصاح هانو: «لبيبة أنتِ يا آنسة. ذلك لأنني أنا هانو الذي تسبقه سمعته في نهاية المطاف. فلا يوجد سوى هانو واحد في هذا العالم» وضرب على صدره وابتسم بابتهاج واستمتاع. «يا لهذه المجاملات! دعونا نستمر. هذا ما أعلنته المرضة» وقرأ بصوت عالٍ من الورقة:

«جاءت الآنسة إلى غرفة النوم حتى تُري سيدتي فستانها الجديد من القماش الفضي وحذاءَها الفضي. ورتبت الآنسة الوسائد وتأكَّدَت من أن عمَّتها لديها كتبها المفضلة ومشروبها بجانب الفراش. ثم تمنَّت لها ليلة هانئة، ووسط صوت حفيف فستانها الجميل ولمعته، خرجت من الغرفة. وبمجرد أن أُغلق الباب، قالت سيدتي ...» ثم توقف هانو فجأة. وقال بسرعة: «لكن هذا لا يهم.»

فجأةً مالت بيتي إلى الأمام ميلًا حادًّا.

سألت: «ألا يهم فعلًا، سيدي؟» وعيناها مثبتتان على وجهه، والدم يتصاعد ببطء إلى خدَّيها الشاحبين.

قال هانو: «كلا» وبدأ يطوي الورقة.

سألت بيتي ببطء وإلحاح: «ما الذي ذكرت المرضة أن عمَّتي أخبرتها به عني بمجرد أن أُغلق الباب؟ بحقك يا سيدي! لديَّ الحق في معرفة ذلك» ومدَّت يدها تريد الورقة.

قال هانو: «سترين بنفسك أن الأمر لم يكُن ذا أهمية. استمعي!» وشرع يقرأ مرَّة أخرى:

«قالت سيدتي لي، وهي تنظر إلى ساعتها: «من الجيد أن الآنسة قد غادرت مبكرًا. لأن ديجون ليست باريس، إذا لم تذهب في الوقت المناسب، فلن تجد مَن ترقص معه.» كانت الساعة حينها التاسعة إلا ١٠ دقائق.»

وبابتسامة، أعطى هانو الورقة لبيتي؛ فانحنت برأسها عليها بسرعة، كما لو كانت تشك في أن ما قرأه كان مكتوبًا بالفعل على تلك الورقة، وكأنها كانت ترتجف من مجرد التفكير فيما قالته السيدة هارلو عنها بعد أن غادرت الغرفة. وقد استغرقت ثانية أو نحو ذلك في إلقاء نظرة سريعة على الورقة، ولكن عندما أعادت الورقة إليه، كان أسلوبها قد تغير تمامًا.

قالت بيتي بنبرة مريرة: «شكرًا لك» وبرقت عيناها العميقتان بالاستياء. فهم جيم التغيير الذي طرأ عليها وتعاطف معه. كان هانو قد تحدث عن نصب فخ بينما لم ينصب أي فخ. ذلك لأنه لم يكُن هناك أي سبب معقول يجعلها تتردَّد في الاعتراف بأنها رأت السيدة هارلو بحضور المرضة، وتمنَّت لها ليلة هانئة قبل ذهابها إلى الحفل. لكنه نصب فخًّا حقيقيًّا بعد دقيقة واحدة، وسقطت بيتي فيه على الفور. لقد خدعها ليُقرَّ بخوفها من أن تكون السيدة هارلو قد تحدَّثَت عنها بسوء أو حتى بخوف بعد أن غادرت غرفة النوم.

قالت بيتي ببرود شديد: «يجب أن تعرف يا سيد هانو أن النساء لسن دائمًا سخيات في حق بعضهن البعض، وأحيانًا لا يملكن الخيال ... كيف أقول ذلك؟ ... لتصور العواقب المحتملة لأشياء قد يُقلنها فقط بقصد الإيذاء وإلحاق الضرر البسيط. منذ البداية كنت أنا وجين بودان صديقتَين مقربتَين، لكن لا يمكن أبدًا للمرء أن يكون دائم الثقة، وعندما طَويتَ إفادتها بسرعة، كنتُ بالطبع متلهفة جدًّا لسماع بقيتها.»

تدخل جيم قائلًا: «نعم، أوافق. بدا الأمر كما لو أن المرضة ربما أضافت شيئًا خبيثًا، وهذا شيء لا يمكن إثباته أو نفيه.»

قال هانو بنبرة اعتذار: «لقد كان سوء فهم يا آنستي. سنحرص على ألا يكون هناك أي سوء فهم آخَر.» ثم نظر مرَّة أخرى إلى إفادة المرضة.

وقال: «مذكور هنا أنكِ حرصت على أن يكون لدى السيدة كتبها المفضلة ومشروبها بجانب الفراش. هذا صحيح.»

ردَّت بيتي: «نعم، سيدي.»

فسألها: «ماذا كان ذلك المشروب؟»

قالت: «كوب من عصير الليمون.»

قال هانو: «أظن أنه كان يُجهَّز ويوضع لها على الطاولة كل ليلة؟»

ردَّت بيتي: «كل ليلة.»

فسألها: «ولم يكُن به أي مخدر مُذاب فيه؟»

أجابت بيتي: «على الإطلاق. عندما كانت تضطرب السيدة هارلو، كانت المرضة تعطيها حبة أفيون، وفي حالات نادرة جدًّا، حقنة صغيرة من المورفين.»

قال هانو: «لكن ذلك لم يحدث في تلك الليلة؟»

ردَّت بيتي: «ليس على حدِّ علمي. إنْ كان ذلك حدَث، فإنه قد حدَث بعد مغادرتي.»

قال هانو: «جيد جدًّا» ثم طوى الورقة ووضعها في جيبه. «لقد انتهينا من هذه. أنتِ الآن خارج المنزل في التاسعة إلا خمس دقائق مساءً، والسيدة في فراشها بصحة ليست أسوأ من المعتاد.»

قالت بيتي: «نعم.»

قال هانو: «جيد!» ثم غيَّر أسلوبه. «والآن دعينا نستعرض تلك الأمسية آنستي! فهمتُ أنكِ بقيتِ في منزل السيد دي بوياك حتى عدتِ إلى المنزل.»

ردَّت بيتي: «صحيح.»

سأل هانو: «هل تتذكرين مع مَن رقصتِ؟ وإذا لزم الأمر، هل يمكن أن تعطيني قائمة بشركائكِ في الرقص؟»

نهضت بيتي واجتازت من مكانها إلى طاولة الكتابة وجلست أمامها. ثم سحبت ورقة نحوها وأمسكت بقلم رصاص. وكانت تتوقَّف من حينٍ لآخَر كي تحفز ذاكرتها وطرف القلم عند شفتَيها، وهكذا كتبت قائمة بالأسماء.

قالت وهي تسلم القائمة لهانو: «هذه هي القائمة الكاملة، على ما أعتقد.» فوضعها هانو في جيبه.

وقال: «شكرًا لكِ!» كان هانو الآن في غاية الرضا. وعلى الرغم من أن أسئلته تتابعت واحدًا تلو الآخَر دون تلعثم، بدا لجيم أنه يتلقى الإجابات التي كان يتوقَّعها تمامًا. كان يبدو كرجل يؤدي إجراءً شكليًّا لا مفرَّ منه ويسعى إلى إتمامه بالكامل، وليس كشخص يتابع بعنايةٍ تحقيقًا دقيقًا.

سأل هانو: «والآن يا آنسة، في أي ساعة عُدتِ إلى المنزل؟»

ردَّت بيتي: «في الساعة الواحدة وعشرين دقيقة.»

سأل هانو: «هل أنتِ متأكدة من هذا التوقيت بالضبط؟ هل نظرتِ في ساعتكِ؟ أو في ساعة القاعة؟ أو في ساعة أخرى؟ كيف تثقين بأنكِ وصلتِ إلى منزل كرينيل في الساعة الواحدة وعشرين دقيقة بالضبط؟»

ثم قرَّب هانو كرسيه قليلًا إلى الأمام، لكنه لم ينتظر ثانية للحصول على الإجابة.

ردَّت بيتي: «لا توجد ساعة في القاعة، ولم يكُن معي ساعة. لا أحب تلك الساعات التي ترتديها بعض الفتيات حول المعصم. أكره الأشياء حول معصمي» وهزَّت ذراعها بفارغ الصبر، كما لو كانت تتخيَّل أن سوارًا ضيقًا لُف حول معصمها. «ولم أضَع ساعتي في حقيبة اليد الخاصة بي لأنني مُعرَّضة لنسيانها. لذلك لم يَكُن لديَّ شيء أعرف منه كم الساعة عندما وصلتُ إلى المنزل. لم أكُن متأكدة من أنني لم أُبقِ جورج — وهو السائق — خارجًا لفترة أطول مما يرغب. لذلك اعتذرت له، مُوضِّحة أنني لم أكُن أعرف حقًّا كم تأخرت.»

فقال هانو: «فهمت. إذَن كان جورج هو من أخبركِ بالوقت في لحظة وصولكِ الفعلية؟»

ردَّت بيتي: «نعم.»

قال هانو: «ولا شك أن جورج هو السائق الذي رأيته يعمل عندما اجتزت الفناء؟»

قالت بيتي: «نعم. لقد أخبرني أنه كان سعيدًا برؤيتي أستمتع قليلًا، وأخرج ساعته وأراني إياها ضاحكًا.»

سأل هانو: «هل حدث هذا عند الباب الأمامي، أم عند تلك البوابات الحديدية الكبيرة يا آنسة؟»

ردَّت بيتي: «عند الباب الأمامي. إذ لا يوجد حارس للبوابة، وتُترك مفتوحة عندما يكون أحدهم بالخارج.»

سأل هانو: «وكيف دخلتِ إلى المنزل؟»

قالت بيتي: «استخدمت مفتاحي.»

قال هانو: «حسن! كل هذا واضح جدًّا.»

لكن بيتي لم تقنع برضا هانو بإجاباتها. فعلى الرغم من أنها أجابته دون تأخير، فقد كانت تجيبه بشيء من العناد. فبدأ جيم يشعر ببعض القلق. كان عليها أن تلتقي مع هانو في أرض وسط؛ لقد كانت حادة بشكل متهور.

فكر جيم بقلق: «ستجعل من هذا الرجل عدوًّا قبل أن تفرُغ.» لكنه نظر إلى المحقِّق وشعر بشيء من الارتياح. ذلك لأن هانو كان يراقبها بابتسامة كانت كفيلة باسترضاء أي شابة أقل استياءً؛ ابتسامة امتزج فيها الود بالتسلية. ثم فكَّر جيم بشكل مختلف.

قال في نفسه: «في نهاية المطاف، هذا التهوُّر نفسه هو ما يشفع لها أكثر من أي تدبير أو حسبان. فالمذنبون لا يتصرفون بهذا الشكل.» وانتظر المرحلة التالية في التحقيق بذهن هادئ.

استأنف هانو: «الآن وقد عدتِ وأصبحت داخل منزل كرينيل قبل الساعة الواحدة والنصف صباحًا. ماذا فعلتِ بعد ذلك؟»

قالت بيتي: «ذهبت مباشرة إلى غرفة نومي.»

سأل هانو: «هل كانت خادمتكِ تنتظركِ يا آنسة؟»

ردَّت بيتي: «كلا؛ كنت قد أخبرتها أنني سأتأخر في العودة وأنني أستطيع أن أخلع ملابسي بنفسي.»

قال هانو: «أنتِ مُهذَّبة ومراعية للآخرين يا آنسة بيتي. لا عجب أن خدمكِ كانوا سعداء لأنكِ تستمتعين قليلًا.»

حتى هذه المحاولة لم تُهدِّئ الفتاة المُستاءة.

فسألت بعذوبة حلوة كانت أكثر عدائية من أي رد حاد: «نعم؟» لكن ذلك لم يُثِر أي استياء لدى هانو.

فجاءها سؤاله: «متى سمعتِ لأول مرة عن وفاة السيدة هارلو؟»

ردَّت بيتي: «في صباح اليوم التالي، جاءت خادمتي فرانسين تركض إلى غرفتي في الساعة السابعة. كانت الممرضة جين قد اكتشفت ذلك للتو. لبستُ ردائي وركضت إلى الطابق السفلي. وبمجرد أن تأكدت من صحة الخبر، اتصلت بالطبيبين اللذَين اعتادا الحضور هنا.»

سأل هانو: «هل لاحظتِ كوب عصير الليمون؟»

قالت بيتي: «نعم. لقد كان فارغًا.»

سأل هانو: «هل لا تزال خادمتكِ معكِ؟»

ردَّت بيتي: «نعم – فرانسين رولار. هي تحت تصرفك.»

هز هانو كتفَيه وابتسم بارتياب.

قال: «يمكن لهذا أن يأتي لاحقًا إذا لم يكُن منه بد. لدينا الآن وقائع تحركاتكِ وقد عرفناها منكِ يا آنسة، وهذا هو المهم.»

ثم نهض من كرسيه.

وقال وهو ينحني: «أعتقد أنني كنت مزعجًا جدًّا يا آنسة هارلو. لكن من الضروري جدًّا لمصلحتكِ ألا نترك أي وجه غموض تتلاعب به ظنون الناس. وقد أصبحنا قريبين جدًّا من نهاية هذه المحنة.»

في اللحظة التي وقف فيها هانو، كان جيم يأمل أن تكون هذه المقابلة المُرهقة قد انتهت. أما بيتي، فكانت في حالة من اللامبالاة.

وقالت بتصلُّب: «الحكم على هذا يعود لك يا سيدي.»

فقال هانو: «تبقى نقطتان فقط، وأعتقد أنكِ ستتفهمين بعد تأمل الموقف أنني لم أطرح عليكِ أي سؤال مجحف.»

فطأطأت بيتي.

وقالت: «اذكر نقطتَيك يا سيدي.»

قال هانو: «أولًا. أعتقد أنكِ سترثين ثروة السيدة بكاملها؟»

ردَّت بيتي: «نعم.»

سأل: «هل كنتِ تتوقعين أن ترثي الثروة كلها؟ هل كنتِ تعلمين بوصيتها؟»

قالت بيتي: «كلا. كنت أتوقَّع أن تترك جزءًا كبيرًا من المال للسيد بوريس. لكنني لا أتذكر أنها أخبرتني بذلك. وكان هذا هو ما أتوقعه لأن السيد بوريس لطالما كرر ذلك باستمرار.»

قال هانو بلين: «بلا شك. لكن بالنسبة لكِ، هل كانت السيدة سخية معكِ خلال حياتها؟»

اختفت النظرة القاسية من وجه بيتي. فملامحها تلطَّفت وصارت مليئة بالحزن والأسى.

وأجابت بصوت خفيض: «كانت سخية جدًّا. كنت أحصل على ١٠٠٠ جنيه سنويًّا كإعانة منتظمة، وهذا المبلغ يكفي كثيرًا في ديجون. علاوةً على ذلك، إذا كنتُ بحاجة إلى المزيد، كان عليَّ فقط أن أطلب ما أريد.»

وفجأةً تفطَّر صوت بيتي فصارت تنشج، وأشاح عنها هانو بحساسية لم يكُن جيم يتوقعها. فشرع ينظر إلى الكتب على الأرفف، ليمنحها الوقت للسيطرة على حزنها، فكان يقلب في هذا الكتاب أو ذاك، ويتحدث عنها بنبرة عابرة.

قال: «من السهل معرفة أن هذه كانت مكتبة السيد سايمون هارلو.» وفجأةً توقف. ذلك أن الباب انفتح بقوة، ودخلت فتاة إلى الغرفة.

قالت الفتاة: «بيتي»، ثم وقفت تقلِّب عينَيها بين زوار بيتي.

قالت بيتي بلا مبالاة: «آن، هذا هو السيد هانو» فاصفرَّ وجه آن مثل زهرة زابلة.

آن! فكر جيم فروبيشر أن هذه الفتاة إذَن هي آن أبكوت، الفتاة التي راسلته، الفتاة التي أنكر مرتين أي معرفة بها، وكان قد جلس بجانبها، بل حتى بادلها الحديث. اجتازت الفتاة الغرفة نحوه.

وصاحت: «لقد أتيت! كنت أعرف أنك ستأتي!»

رأى جيم شعرًا أصفر ولامعًا كالغشاوة، وعينَين زرقاوين كالياقوت، ووجهًا في غاية الجمال والنعومة.

فقال بصوت خافت: «بالطبع أتيت» وقد نظر إليه هانو بابتسامة. كانت عيناه على بيتي هارلو، وكانت الابتسامة تشي بوضوح بما قد تقوله الكلمات: «ذلك الشاب سيواجه الكثير من المتاعب قبل أن يغادر ديجون.»

الفصل السادس

جيم يُغيِّر مكان إقامته

كانت غرفة المكتبة مستطيلة الشكل كبيرة المساحة، بها نافذتان طويلتان تطلان على الفناء، وكانت نافذة المراقبة بعيدة في نهاية الغرفة فوق الرصيف في الشارع. وكان ثَمَّة باب في الجدار الداخلي بالقرب من هذه النافذة يُفضي إلى غرفة خلفية، وموقد كبير مفتوح يواجه النوافذ المطلة على الفناء. وباستثناء ذلك، كانت الجدران مصفوفة بأرفُف عالية مملوءة بالكتب، فيما عدا بعض الفراغات هنا وهناك حيث أُخذَت بعض المجلدات من مكانها. وقد أعاد هانو الكتاب الذي كان يحمله في يده إلى مكانه.

وقال: «يسهل على المرء أن يرى أن هذه مكتبة سايمون هارلو، جامع الكتب. لطالما اعتقدت أنه إذا كان لدى المرء ما يكفي من الوقت لدراسة الكتب التي يشتريها الرجل ويقرؤها ثم مقارنتها، فسيعرف حقيقته على نحو أوثق من أي طريقة أخرى. لكن للأسف! المرء لا يملك الوقت أبدًا.» والتفت نحو جيم فروبيشر بأسًى. ثم قال: «تعالَ وقف بجانبي، سيد فروبيشر. فإن مجرد نظرة على أظهر الكتب تشي بشيء ما.»

وقف جيم بجانب هانو.

وقال هانو: «انظر، هنا كتاب عن الأواني الذهبية الإنجليزية القديمة، وكتاب آخَر ... اقرأ لي عنوان هذا الكتاب، من فضلك.»

قرأ جيم عنوان الكتاب الذي كان إصبع هانو يشير إليه.

«العلامات والرموز على الفخار والخزف.»

كرَّر هانو العبارة ثم انتقل. ومن رف عند مستوى صدره وإلى يسار النافذة التي كانت تجلس فيها بيتي، أخذ مجلدًا كبيرًا ونحيلًا له غلاف ورقيٌّ وقلَّب صفحاته. كان كُتيِّبًا عن مشغولات المينا في حيِّ باترسي.

وقال جيم فروبيشر وهو يُلقي نظرة على رف الكتب: «ينبغي أن يكون هناك مجلد ثانٍ.» كانت هذه ملاحظة عابرة. إذ لم يكُن يُولِي أي اهتمام للكتاب ذي الغلاف الورقي عن مشغولات المينا بحي باترسي. ذلك لأنه كان في الواقع منشغلًا بالتكهُّن عن سبب استدعاء هانو له إلى جانبه. هل كان يأمل أن يكتشف بعض نظرات التفاهم التي قد تتبادلها الفتاتان، أو بعض الإشارات التي تدلُّ على أنهما متواطئتين؟ إذا كان الأمر كذلك، فقد خاب أمله. فلأنه على الرغم من أن بيتي وآن كانتا الآن بعيدتين عن عين هانو المنتبهة، فلم تتحرك أيٌّ منهما أو تُشِر إلى الأخرى. ومع ذلك، بدا هانو مهتمًّا تمامًا بكتابه. وقد أجاب على اقتراح جيم.

«نعم، يمكن للمرء أن يفترض أن هناك مجلدًا ثانيًا. لكن هذا الكتاب كامل» ثم أعاد الكتاب إلى مكانه. كان هناك حيِّز بجانبه لمجلد آخَر كبير، طالما أنه لم يكُن أكثر سُمكًا منه، فوضع هانو إصبعه في الفراغ على الرف، وكان من الواضح أنه مستغرق في أفكاره.

واستدعَتْه بيتي إلى محيطه.

فقالت بصوتها الهادئ من مقعدها عند النافذة: «سيد هانو، لقد ذكرت أن هناك نقطة ثانية تودُّ أن تسألني عنها.»

ردَّ هانو: «نعم يا آنسة، لم أنسَها.»

والتفت بحركة سريعة تثير الريبة فوقف بحيث تكون كلتا الفتاتين أمامه، بيتي عن يساره عند النافذة، وآن أبكوت واقفة عن يمينه وبعيدًا قليلًا، تحدِّق فيه بنظرة تغلفها الرهبة.

فسأل هانو بيتي: «آنستي، منذ أن قدَّم بوريس وابرسكي اتهامه، هل كنت عرضة لمضايقات بسبب أيٍّ من تلك الرسائل المجهولة التي يبدو أنها تجوب ديجون؟»

أجابت بيتي: «لقد تلقَّيت رسالة واحدة» فرفعَت آن أبكوت حاجبَيها في دهشة. وأردفَت بيتي: «جاءت صباح الأحد. بطبيعة الحال كانت مليئة بالافتراءات، ولم أكُن لأهتمَّ بها لولا شيء واحد. أخبرتني تلك الرسالة أنك يا سيد هانو قادم من باريس للتحقيق في القضية.»

فقال هانو بهدوء: «أوهو! وتلقيتِ هذه الرسالة صباح الأحد؟ هلا أريتها لي يا آنسة؟»

هزَّت بيتي رأسها.

«كلا يا سيدي.»

فابتسم هانو.

«بالطبع. لقد تخلَّصتِ منها كما هو مفترض في التعامل مع مثل هذه الرسائل.»

ردَّت بيتي: «كلا، لم أفعل. لقد احتفظت بها. وضعتها في درج منضدة الكتابة في غرفة جلوسي الخاصة. لكن تلك الغرفة مُغلَقة بالأختام يا سيد هانو. والرسالة ما تزال في الدرج.»

استقبل هانو قولها بارتياح واضح. وقال بقناعة: «إذَن لا يمكنها أن تهرب يا آنسة.» لكن تلك القناعة تلاشت. إذ قال: «إذَن قام مفوض الشرطة فعليًّا بإغلاق غرفة جلوسكِ الخاصة بالختم. في هذا شيء من المبالغة بالتأكيد.»

هزَّت بيتي كتفَيها.

وقالت بمرارة: «كانت غرفتي، كما ترى، حيث أحتفظ فيها بأشيائي الخاصة. وفي نهاية المطاف وُجِّهت الاتهامات لي!» لكن آن أبكوت لم تكُن راضية عن ترك الأمر عند هذا الحد. فتحرَّكَت خطوةً نحو بيتي ثم نظرَت إلى هانو.

وقالت: «لكن هذه ليست الحقيقة الكاملة. غرفة بيتي جزء من مجموعة الغرف التي جرى تدبير غرفة نوم السيدة هارلو فيها. إنها الغرفة الأخيرة من المجموعة والمُطِلَّة على القاعة، ولهذا السبب، كما قال مفوض الشرطة معتذرًا، كان من الضروري إغلاقها مع الغرف الأخرى.»

قال هانو بابتسامة: «أشكركِ يا آنسة. نعم، هذا بالتأكيد يُلطِّف من فعلته.» ثم نظر إلى بيتي في مقعد النافذة بنظرة متسائلة. قال: «أعتذر أنني أغضبت الآنسة هارلو. هلَّا ساعدتني في توضيح كل هذه التواريخ المُزعجة الآن؟ دُفنت السيدة هارلو بحسب ما فهمت صباح السبت قبل ١٢ يومًا!»

قالت آن أبكوت: «نعم، سيدي.»

«وبعد الجنازة، عند عودتكم إلى هذا المنزل، فتح كاتب العدل الوصية وقرأها؟»

«نعم، سيدي.»

«وبحضور بوريس وابرسكي؟»

«نعم.»

«ثم بعد أسبوع بالضبط، أي في السابع من مايو، توجه بسرعة إلى مقر الشرطة؟»

«نعم.»

«وصباح الأحد وصلت الرسالة المجهولة بالبريد؟»

التفت هانو إلى بيتي، التي أومأت برأسها موافقة.

«وبعد ذلك بقليل في نفس الصباح جاء مُفوِّض الشرطة، الذي أغلق الأبواب بالأختام.»

ردَّت آن أبكوت: «في الساعة الحادية عشرة بالضبط.»

طأطأ هانو رأسه شيئًا يسيرًا.

ثم قال: «أنتما فتاتان رائعتان. تلاحظان الساعة التي تحدث فيها الأشياء بدقة. إنها هبة نادرة، ومفيدة جدًّا لأشخاص مثلي.»

كانت آن أبكوت تزداد راحة مع كل إجابة تُقدِّمها. فصارت الآن تضحك بوضوح.

وقالت: «أنا أفعل ذلك على أي حال، سيد هانو. لكن للأسف! لقد ولدت لأكون عانسًا. لا يسعني احتمال كرسي في غير مكانه، أو كتاب في غير موضعه، أو ساعة لا تعمل على نحو صحيح، أو حتى دبوس على السجادة. ألاحظ كل شيء من فوري وأصحِّح الأوضاع. نعم، كانت الساعة الحادية عشرة بالضبط عندما دقَّ مُفوِّض الشرطة الجرس.»

سأل هانو: «وهل فتَّش الغُرف قبل أن يُغلقها بالأختام؟»

ردَّت آن: «كلا. وقد اعتبر كلانا إهماله هذا غريبًا، حتى قيل لنا إن قاضي التحقيق يريد ترك كل شيء على حاله.»

فضحك هانو بحرارة.

وقال مفسِّرًا: «كان ذلك من أجلي. مَن يستطيع أن يعرف أي أشياء رائعة قد يكتشفها هانو بعدسته المكبرة عندما يصل من باريس؟ أي بصمات حاسمة! أوه! ها! ها! أي قصاصات من رسائل محترقة! آه! ها! ها! لكن دعيني أخبركِ يا آنسة أنه إذا ارتُكبت جريمة في هذا المنزل، فحتى هانو نفسه لن يتوقَّع أن يكتشف أي شيء مذهل في غرف كانت مفتوحة أمام جميع أفراد المنزل لمدة أسبوعين منذ وقوع الجريمة. رغم هذا»، ثم انتقل نحو الباب، «بما أنني هنا الآن ...»

هنا نهضت بيتي بسرعة البرق. فتوقف هانو والتفت نحوها بسرعة، بعينَين متحدِّيتَين وقاسيتين.

فسألت بلهفة غريبة: «هل ستفضُّ تلك الأختام الآن؟ إذَن هل يمكنني أن آتي معك ... من فضلك، أرجوك! أنا المتهمة. لديَّ الحق في الحضور» ثم علا صوتها وهي تهتف بإلحاح.

فقال هانو بنبرة لطيفة: «هدِّئي من روعك يا آنسة. لن يتم استغلالكِ. لن أفضَّ أي أختام. فكما أخبرتكِ، هذا هو حق مفوض الشرطة، الذي يتمتَّع بسلطات قضائية كذلك،

وهو لن يتحرك حتى يكون التحليل الطبي جاهزًا. كلا، ما كنت سأقترحه هو أن تُطلعني الآنسة هنا» وأشار إلى آن «على الجزء الخارجي من غرف الاستقبال وعلى بقية المنزل.»

فقالت بيتي: «بالطبع» ثم جلست مرة أخرى في مقعد النافذة.

قال هانو: «شكرًا لكِ.» ثم التفت إلى آن أبكوت. وقال: «هلَّا ذهبنا؟ وأثناء هذا، هلَّا أخبرتني برأيكِ في بوريس وابرسكي؟»

صاحت آن: «إنه وقح. يمكنني أن أخبرك بذلك، سيد هانو. لقد عاد بالفعل إلى هذا المنزل بعد أن قدَّم شكواه، وطلب مني أن أدعمه»؛ ثم خرجت من الغرفة أمام هانو.

تبع جيم فروبيشر الاثنين إلى الباب وأغلقه من ورائهما. كانت الدقائق القليلة التي مضت قد جعلت عقله في حالة من الهدوء التام. كان كاتب الرسائل المجهولة هو الهدف الحقيقي للمحقِّق. وقد تغيرت طريقته تمامًا عندما كان يطرح أسئلته عن تلك الرسائل. كان أسلوبه الذي امتزج فيه الحماس واللامبالاة قد اختفى، وحتى تسليته من سوء مزاج بيتي اختفت أيضًا. وقد شرع في عمله بتركيز وهدوء. عاد جيم إلى الغرفة. وقد أخرج علبة سجائره من جيبه وفتحها.

وسأل: «هل لي أن أدخِّن؟» وبينما التفت إلى بيتي طالبًا الإذن، توقَّفَت أفكاره وكلماته بفعل صدمة جديدة. كانت بيتي تحدِّق فيه بذعر واضح في عينَيها وكان وجهها جامدًا مثل قناع حزين.

وهمست قائلة: «هو يظن أنني مذنبة.»

فقال جيم: «كلا» وانتقل إلى جوارها. لكنها لم تكُن تريد أن تستمع.

إذ قالت: «بل نعم. أنا متأكدة من ذلك. ألا ترى أنه كان مضطرًّا لذلك؟ لقد أُرسِل من باريس. ولديه سمعته ليحافظ عليها. لا بد أن يكون قد كشف ضحيته قبل أن يعود.»

راودته نفسه أن يحنث بعهده. كل ما كان عليه فعله هو إخبارها بالسبب الحقيقي الذي جلب هانو من باريس، وسيزول قلقها. لكنه لم يقدر على ذلك. كل تقاليد حياته كانت تحثه على الصمت. لم يجرؤ حتى على إخبارها بأن هذه التهمة الموجهة إليها كانت مجرد ذريعة. كان عليها أن تعيش في قلق لفترة أطول قليلًا. ثم وضع يده بلطف على كتفها.

وقال: «بيتي، لا تصدقي ذلك!» وهو يعي ضعف هذه العبارة مقارنة بما كان يمكن أن يقوله. وأردف: «كنت أراقب هانو، وأُصغي إليه. أنا متأكد أنه كان يعرف بالفعل إجابات الأسئلة التي كان يطرحها عليك. كان يعرف حتى أن سايمون هارلو شخص

شغوف بجمع الكتب، على الرغم من أن شيئًا لم يُذكر بهذا الشأن. كان هانو يطرح الأسئلة ليرى كيف ستجيبين عنها، ويضع أحيانًا فخًّا صغيرًا بحسب اعترافه ...»

قالت بيتي بصوت مرتجف: «نعم، كان ينصب الفخاخ طَوالَ الوقت.»

واصل جيم بثقة: «وكل إجابة قدمتِها، حتى أسلوبك في تقديمها، كانت تجعل براءتكِ أكثر جلاءً.» سألت بيتي: «بالنسبة إليه؟»

أجاب جيم: «نعم، بالنسبة إليه. أنا متأكد من ذلك.»

تعلَّقت بيتي هارلو بذراعه وأمسكته بكلتا يديها. ومالت برأسها عليه. فشعر جيم بنعومة خدها عَبْر كُم معطفه.

وهمست: «شكرًا لك. شكرًا لك يا جيم» وابتسمت عندما نطقت باسمه. لم تكُن تشكره على ثقته الكبيرة بكلماته بقدر ما شكرته على الراحة التي منحتها ملامسته لها.

وأردفت: «إنني أبالغ على الأرجح بشأن أشياء بسيطة. وربما أكون شحيحة أيضًا مع السيد هانو. لكنه يعيش وسط الجرائم والمجرمين. لا بد أنه معتاد على رؤية الناس يُدانون ويختفون وعلى رؤية الأهوال، بحيث لا يبدو مهمًّا بالنسبة له إن سلك أحدهم هذا الطريق بشكل أو بآخر سواء كان بريئًا أو مذنبًا.»

فقال جيم فروبيشر بلطف: «نعم يا بيتي، أعتقد أن هذا غير عادل بعض الشيء.»

فقالت: «حسنًا، سأتراجع عن ذلك» ثم أطلقت ذراعه. «على أي حال يا جيم، أنا أعتمد عليك أنت وليس عليه هو» ثم أطلقت ضحكة مليئة برجاءٍ أسر قلبه.

فقال جيم: «لحسن الحظ، ليس عليكِ أن تعتمدي على أحد» وما كاد ينتهي من جملته إلا وعادت آن أبكوت إلى الغرفة بمفردها. كانت تقريبًا بنفس طول بيتي وعمرها، ولديها النحافة نفسها الشبيهة بالفتيان، وطريقة الوقوف التي تميز فتيات هذا الجيل. لكن في جوانب أخرى، حتى في لون ملابسها، كانت مختلفة تمامًا عن بيتي. كانت ترتدي ملابسها كاملة باللون الأبيض، من معطفها إلى حذائها، وكانت ترتدي قبعة ذهبية كبيرة بحيث كان يصعب أحيانًا تمييز شعرها عن القبعة.

سألت بيتي: «وأين السيد هانو؟»

ردت آن: «إنه يتجول بمفرده. لقد أريته كل الغرف ومن يستخدمها، وقال إنه سينظر فيها وأرسلني إليكِ.» سألت بيتي هارلو: «هل فضَّ الأختام عن جناح الاستقبال؟»

فردت آن: «أوه، كلا. لقد أخبرنا أنه ليس بمقدوره فعل ذلك بدون مفوض الشرطة.»

وعلَّقت بيتي بجفاف: «نعم، أخبرنا بذلك. لكنني كنت أتساءل عما إذا كان يقصد ما قاله.»

فقالت آن: «أوه، لا أعتقد أن السيد هانو مثير للقلق.» وقد أعطت لجيم فروبيشر انطباعًا بأنها ربما تقول عن هانو في أي لحظة إنه القريب منهم والعزيز عليهم. كانت قد تجاوزت تمامًا الصدمة المحدودة الأولى التي سبَّبها إعلان وجوده. ثم جلست بجانب بيتي في مقعد النافذة ونظرت إلى جيم بثقة واضحة تمامًا وأردفت: «بالإضافة إلى أننا يمكننا أن نشعر بالأمان الآن على أي حال.»

أبدى جيم فروبيشر يأسه. يمكن القول إن ذلك المظهر الغريب والدال على التحفظ خدع آن أبكوت بشأنه، كما حدث بالفعل مع بيتي. إذا كانت هاتان الفتاتان طلبتا مساعدته عندما وجدتا نفسيهما في خضم عاصفة هوجاء أو وسط متاعب جمة، لَما تردَّد في تلبية طلبهما. لكن هذه كانت مسألة مختلفة تمامًا. لقد كانتا ببساطة تضعانه في مواجهة مع هانو.

فهتف يقول: «كنتما في أمان من قبل. هانو ليس عدوكما، وأما أنا، فليس لديَّ خبرة ولا موهبة فطرية لهذا النوع من العمل ...» ثم توقف عن الحديث وهو يئن. ذلك أن الفتاتين كانتا تحدقان فيه بابتسامة تنم عن عدم التصديق.

وفكر جيم في نفسه: «ربَّاه، إنهن يعتقدن أنني ماكر، وكلما اعترفت بعدم كفاءتي، زاد اعتقادهن أنني أكثر دهاءً.» ثم تخلى عن الجدال. وقال: «بالتأكيد أنا في خدمتكما.»

قالت بيتي: «أشكرك. ستجلب أمتعتك من الفندق وتمكث هنا، أليس كذلك؟»

شعر جيم بشيء من الميل نحو قبول هذه الدعوة. لكن من ناحية، ربما يرغب هو في رؤية هانو في جراند تافيرن؛ أو ربما يرغب هانو في رؤيته، والسرية هي شرط هذه اللقاءات وحالها. كان من الأفضل أن يحافظ على حريته الكاملة في الحركة.

فجاء رده: «لن أسبِّب لكِ هذا الإزعاج يا بيتي. لا يوجد أي سبب في العالم يجعلني أفعل ذلك. مكالمة هاتفية وفي غضون خمس دقائق أكون إلى جانبكِ.»

بدَت بيتي هارلو في حيرة، أتلح في دعوتها أم لا.

وشرعت تقول: «لا يبدو هذا من كرم الضيافة في رأيي ...» فانفتح الباب، ودخل هانو إلى الغرفة.

وقال: «تركت قبعتي وعصاي هنا.» ثم التقطهما وانحنى تحية للفتاتين.

فسألته بيتي: «هل رأيت كل شيء، سيد هانو؟»

وردَّ هانو يقول: «كل شيء يا آنستي. لن أزعجكِ مرة أخرى حتى يصبح تقرير التحليل بين يديَّ. أتمنى لكِ صباحًا سعيدًا.»

انزلقت بيتي من مقعد النافذة ورافقته إلى القاعة. بدا لجيم فروبيشر أنها كانت تحاول تعويض سوء مزاجها؛ وعندما سمع صوتها، فكَّر أنه يلحظ فيه نبرة اعتذار.

قالت بيتي مُناشِدة: «سأشعر بسعادة غامرة إذا أخبرتني بنتيجة ذلك التقرير في أسرع وقت ممكن. أنت تفهم أفضل من أي شخص أن هذه ساعة صعبة بالنسبة إليَّ.»

أجاب هانو بجدية: «أعي ذلك جيدًا يا آنسة. سأحرص على ألا تطول هذه الساعة.»

كان جيم — الذي يراقبهما من خلال المدخل وهما واقفان معًا في القاعة التي تضيئها الشمس — يشعر بلمسة خفيفة جدًّا على ذراعه. فالتفت سريعًا. كانت آن أبكوت بجانبه، وقد اختفت كل الحيوية وحتى رقة لونها عن وجهها، وكانت عيناها تعكسان نداءً يائسًا يملؤه الرعب.

وهمست: «هل ستأتي وتمكث هنا؟ أوه، أرجوك!»

فأجابها: «لقد رفضت للتو. لقد سمعتِني.»

فواصلت تقول: «أعرف» وتلعثمت الكلمات على شفتَيها. «لكن تراجع عن رفضك. أرجوك أن تفعل! فأنا أرتعد خوفًا. ليس بمقدوري استيعاب أي شيء. أنا مرعوبة!» وقد شبكت يدَيها معًا تتوسل إليه. لم يرَ جيم خوفًا بهذا الوضوح من قبل، كلا، ولا حتى في عيني بيتي قبل بضع دقائق. لقد جرد هذا الخوف وجه آن الجميل من كل جماله، وأحاله في ثانية إلى وجه هزيل عجوز. لكن وقبل أن يتمكن من الإجابة، سمع صوت عصا تصطدم بقوة بأرضية القاعة، مما أفزعهما وكأنهما سمعا صوت طلقة مسدس. نظر جيم عبر المدخل. كان هانو ينحني لالتقاط عصاه. حاولت بيتي التقاطها، لكن هانو كان قد أمسكها بالفعل.

وقال: «أشكركِ يا آنستي، لكنني ما زلت أستطيع لمس أصابع قدمي. أفعل ذلك خمس مرات كل صباح وأنا بملابس النوم»، وضحك، ثم نزل الدرجتين إلى الفناء، وبخطواته السريعة الغريبة هذه اختفى في شارع تشارلز روبرت في لحظة. وعندما التفت جيم مرة أخرى إلى آن أبكوت، كان الخوف قد زال عن وجهها تمامًا لدرجة أنه كاد ألا يصدق عينيه.

وقد صاحت بمرح: «بيتي، سيمكث هنا.»

ردَّت بيتي بابتسامة غريبة فيما كانت تعود إلى الغرفة: «لقد استنتجت ذلك.»

الفصل السابع

خروج وابرسكي

في ذلك اليوم، لم يرَ جيم فروبيشر هانو أو يسمع عنه مزيدًا من الأخبار. وقد أحضر أمتعته من الفندق وقضى المساء مع بيتي هارلو وآن أبكوت في منزل كرينيل. وتناولوا القهوة بعد العشاء في الحديقة خلف المنزل، نازلين إليها عبر درج حجري قصير من باب كبير في مؤخر القاعة. وبغير أي اتفاق شفهي مُعلَن، تجنبوا أي ذكر لتهمة وابرسكي. لم يكُن لديهم حينئذٍ ما يفعلونه سوى انتظار تقرير المحلل. لكن النوافذ العالية المغلقة ستائرها فوق رءوسهم — نوافذ جناح الاستقبال — منعتهم من نسيان الموضوع، وكان حديثهم يتقلَّص باستمرار ليتحوَّل إلى صمت طويل. كان الجو باردًا هنا في الحديقة المظلمة، باردًا وهادئًا جدًّا؛ لدرجة أن حركة طائر بين أوراق أشجار الجميز كانت تفزعهم، والخطوات العابرة النادرة في شارع تشارلز روبرت الصغير كانت تبدو وكأنها ستوقظ مدينة نائمة. ولاحظ جيم مرة أو بعض مرة أن آن أبكوت انحنت بسرعة للأمام وحدقت عبر المروج المظلمة والممرات المتلألئة نحو حجاب الأشجار الطويلة، كما لو أن عينَيها اكتشفتا حركة بين جذوعها. لكن في كل مرة لم تكُن تتفوه بشيء بل تعاود الغوص في كرسيها مع تنهيدة بالكاد تكون مسموعة.

سأل جيم: «هل هناك باب يفضي إلى الحديقة من الشارع؟» وأجابته بيتي.

«كلا. هناك ممر في نهاية المنزل تحت جناح الاستقبال من الفناء يستخدمه البستانيون. والمدخل الوحيد الآخر مكانه عبر القاعة خلفنا. هذا المنزل القديم بُني في أيام كان المنزل فيها هو حقًّا قلعتك الحصينة، وكلما قل عدد المداخل، نمت بأمان أكثر.»

دقت ساعات مدينة الساعات معلنة أنها الحادية عشرة، فكانت أصوات ضرباتها تتحرك ذهابًا وإيابًا فوق القمم وأسطح المنازل في نوع من المنافسة. ثم نهضت بيتي على قدمَيها.

وقالت: «لقد انقضى اليوم، على أي حال» ووافقتها آن أبكوت بتنهيدة تنمُّ عن الارتياح. وقد بدا لجيم أنه لأمر محزن أن هاتين الفتاتين، اللتين ينبغي أن يمثِّل كلَّ يوم لهما سلسلة من ساعات الحيوية القصيرة، تفرحان بهدوء وبكل امتنان تقريبًا أن يومًا آخر قد انقضى.

فقال: «ينبغي بهذا اليوم أن يكون آخر الأيام السيئة» فالتفتت بيتي بسرعة نحوه وعيناها الكبيرتان تتلألآن في الظلام.

وقالت: «طابت ليلتك يا جيم» وكانت نبرتها متوانية وهي تنطق باسمه كأنها تلاطفه، ثم مدَّت يدها. وأردفت: «إن الأمر مُمِل جدًّا بالنسبة إليك، لكننا لا نتمتع بما يكفي من الإيثار لأن ندعك تذهب. كما ترى، نحن منبوذات الآن ... أوه، هذا طبيعي! إن وجودك معنا يعني لنا الكثير. وذلك لسبب واحد» وهنا امتزج صوتها بنبرة جزلة، «هو أنني سأتمكَّن من النوم الليلة.» ثم ركضت إلى الأعلى على الدرج ووقفت للحظة أمام الضوء القادم من القاعة. «صبية نحيلة طويلة الساقين ترتدي جوارب حريرية سوداء طويلة» ... هكذا تحدث عنها السيد هاسلت قبل خمس سنوات، وهذا الوصف لا يزال يلائمها.

قال جيم: «تصبحين على خير يا بيتي» وركضت آن أبكوت أمامه إلى الأعلى على الدرج ولوحت بيدها.

فقال لها: «تصبحين على خير» وبالتواءة بسيطة لكتفَيها، تبعت آن بيتي. لكنها عادت. كانت تلبس رداءً صغيرًا أبيض اللون من القماش الخفيف مع جوارب بيضاء وأحذية من الساتان، وكانت تتلألأ أعلى الدرج كتمثال فضيٍّ أهيف.

وتوسَّلت: «هلَّا أقفلت الباب عندما تدخل، حسنًا؟» بنبرة بها قلق غريب، بالنظر إلى علوِّ الجدران القوية التي تحيط بالحديقة.

أجاب جيم: «سأفعل» وتساءل لماذا كانت آن أبكوت تبدو كرمز للخوف طوال هذه الجلسة. آنَ لهذه النوافذ الطويلة أن تُفتح وأن يُرفع الحظر عن المنزل وساكنيه. مشى جيم فروبيشر في الحديقة الهادئة في الظلام وهو يدعو من أعماقه أن يحين ذلك الوقت من غده. وفي غرفة بيتي فوق جناح الاستقبال، كان الضوء لا يزال منيرًا خلف النوافذ ذات الستائر المُسدَلة، على الرغم من ثقتها بأنها ستنام ... نعم، وفي غرفة آن أبكوت أيضًا، في نهاية المنزل باتجاه الشارع. وعليه اشتعلت في جيم نيران الغضب من بوريس وابرسكي.

كان الوقت قد تأخَّر قبل أن يدخل جيم المنزل ويغلق الباب، كما تأخر الوقت أكثر قبل أن ينام. لكنه بمجرد أن خلد إلى النوم، غطَّ في نوم عميق، وعندما استيقظ، وجد

الستائر مفتوحة عن آخرها أمام أشعة الشمس، وقهوته باردة بجانب الفراش، وكان جاستون، الخادم العجوز، في الغرفة.

قال جاستون: «طلب مني السيد هانو أن أخبرك أنه في المكتبة.»

في لحظة نهض جيم من الفراش.

وقال: «هو موجود بالفعل؟ كم الساعة يا جاستون؟»

أجابه: «التاسعة. لقد جهزت الحمام لك سيدي.» ثم رفع الصينية من فوق الطاولة بجوار الفراش. وأردف: «سأحضر بعض القهوة الساخنة.»

«شكرًا! من فضلك أخبر السيد هانو أنني لن أتأخر كثيرًا.»

«بالتأكيد يا سيدي.»

تناول جيم قهوته وهو يرتدي ملابسه وأسرع إلى المكتبة، حيث وجد هانو جالسًا عند طاولة الكتابة الكبيرة في منتصف الغرفة، مع صحيفة منشورة فوق لوح الكتابة، ويقرأ الأخبار بهدوء. لكنه سرعان ما تكلم في اللحظة التي ظهر فيها جيم.

فقال: «أراك تركت فندقك في ساحة دارسي في نهاية المطاف يا صديقي؟ الآنسة أبكوت الرائعة! كان عليها فقط أن تتنهد باستجداء بسيط وتضم يدَيها معًا ليتم لها الأمر. نعم، لقد رأيت كل ذلك من القاعة. ما أروع الشباب! هل لديك هاتان الرسالتان اللتان أرسلهما وابرسكي لشركتك؟»

أجاب جيم: «نعم.» لم يجد ضرورة ليشرح له أنه على الرغم من أن الاستجداء كان من جانب آن أبكوت، إلا أن فكرة بيتي هي التي أحضرته إلى منزل كرينيل.

وقال هانو: «جيد! لقد أرسلت في طلبه.»

«ليأتي إلى هذا المنزل؟»

«أنا أتوقع وصوله الآن.»

صاح جيم: «هذا رائع! إذَن سأقابله! ذلك الوغد اللعين! لن أستغرب إنْ أنا ضربته» وشدَّ قبضته وهزها في ترقب وسعادة.

قاطعه هانو بجدية: «أشك في أن ذلك سيكون مفيدًا كما تعتقد. كلا، أرجوك أن تتبعني ولا تعصي أمري هذا الصباح يا سيد فروبيشر. إذا واجهت وابرسكي الآن بتلكما الرسالتين، فستنهار اتهاماته على الفور. سيسحبها. وسيقدم أعذارًا. وسينهال علينا سيل من الشكاوى واللوم من جانبه. ولن أحصل على أي شيء منه. هذا ما لا أريده.»

فسأل جيم بضجر: «ولكن ما الذي يمكن الحصول عليه؟»

أجاب المحقق وهو يهز كتفيه: «ربما كان هناك شيء. وربما لا. لديَّ مهمة ثانية في ديجون، كما أخبرتك في باريس.»

قال جيم: «الرسائل المجهولة؟»

قال هانو: «نعم. كنت حاضرًا أمس عندما أخبرتني الآنسة هارلو كيف علمت أنه جرى استدعائي من باريس للتحقيق في هذه القضية. لم يكُن أي من زملائي هنا هو من نشر الخبر. فمن غير المعروف أنني موجود هنا، حتى في الوقت الراهن. كان كاتب الرسائل هو مَن أذاع الأمر. وفي أمر صعب كهذا، لا أستطيع أن أتجاهل أي دليل. هل كان وابرسكي يعلم أنني سأُستدعى؟ هل سمع ذلك في مقر الشرطة عندما قدم اتهامه يوم السبت أو سمعه من قاضي التحقيق في نفس اليوم؟ وإذا كان قد سمع، مع من تحدث بين الوقت الذي رأى فيه القاضي والوقت الذي أُرسلت فيه الرسائل إذا كانت ستُسلَّم صباح الأحد؟ هذه أسئلة يجب أن أحصل على إجاباتها، وإذا أنهينا الأمر على الفور برسائلك، فلن أحصل عليها. يجب أن أتعامل معه بلطف وود. بالتأكيد أنت تفهمني.»

استوعب جيم ذلك على مضض. لقد كان يتوق لرؤية هانو يتعامل مع وابرسكي في أكثر حالاته وقاحة، فينقض عليه ويمزقه ويدوسه بسخرية وفجاجة. وكان هانو قد وعده بذلك بالفعل. لكن وجده جيم الآن يدعو إلى ضبط النفس والجدية، ويبدو أكثر اهتمامًا بكاتب الرسائل المجهولة من تصحيح وضع بيتي هارلو. فشعر جيم أنه قد خُدع.

وقال: «لكنني سألتقي هذا الرجل. علينا ألا ننسى.»

فطمأنه هانو: «لن ننسى.» ثم تقدَّمه إلى الباب الذي بالجدار الداخلي بالقرب من نافذة المراقبة وفتحه.

وقال: «تفضل بالدخول! وانتظر هنا رجاءً»، ومع ازدياد أمارات الإحباط على وجه جيم، أضاف: «أوه، لا أطلب منك أن تغلق الباب. كلا. بل أحضر كرسيًّا إليه ... هكذا! وأبقِ الباب مفتوحًا قليلًا ... هكذا! حينها سترى وتسمع ما يحدث وأنت مستتر. هل أنت راضٍ؟ ليس كثيرًا. كنت تفضل أن تكون على المسرح طوال الوقت في خضم الأحداث. نعم، كلنا نفضِّل ذلك. لكن، على أي حال، لا تتخلى عن دورك»، وبابتسامة ودودة، عاد هانو إلى الطاولة.

جاء من الفناء صوتٌ غريب أخرق، صوت خطوة ثقيلة يتداخل مع خطوة تالية.

فقال هانو بصوت خافت: «لقد حان الوقت لنضع ترتيباتنا الصغيرة. لأن بطلنا قد وصل من السهوب.»

فأطلَّ جيم برأسه من خلال مدخل الباب.

وهمس بحماس: «سيد هانو! سيد هانو! لا يمكن أن يكون من الحكمة ترك تلك النوافذ مفتوحة على الفناء. هذا لأنه إذا كنا نسمع صوت الخطوة بهذا الوضوح في الغرفة، فكل ما يُقال هنا سيُسمع بسهولة في الفناء.»

رد هانو بالدرجة الخفيضة نفسها من الصوت: «هذا صحيح!» وضرب جبهته بقبضته غاضبًا من حماقته. وأردف: «لكن ماذا نفعل؟ الطقس حار جدًّا. هذه الغرفة ستكون كالفرن. كما أن السيدتين ووابرسكي سيغمى عليهم جميعًا من الحرارة. إضافة إلى أنني عيَّنت بالفعل ضابطًا بملابس مدنية في الفناء لضمان بقائه فارغًا. نعم، سنخاطر بذلك.»

فانسحب جيم إلى الخلف.

وقال بغضب: «ذلك الرجل لا يرحب بالنصيحة من أي أحد»، لكنه قالها في نفسه، وما كاد ينتهي من كلامه حتى دقَّ الجرس. ودخل جاستون بعد ذلك بثوانٍ.

وقال: «السيد بوريس.»

فرد هانو بإيماءة: «أدخله. هل يمكنك أن تخبر السيدتين أننا مستعدون؟»

ثم إن بوريس وابرسكي، وهو رجل طويل، محدب الظهر، بركبتين مثنيتين وقدمين خرقاوين، يرتدي الأسود ويحمل في يده قبعة سوداء ناعمة، دخل إلى الغرفة وهو يتمايل بسرعة وتوقف فجأة عند رؤية هانو. انحنى هانو، ورد وابرسكي التحية؛ ثم وقف الرجلان ينظران إلى بعضهما ... هانو يقف بكل بشاشة مبتسمًا، بينما وقف وابرسكي قلقًا ومرتبكًا، كأحد الرسوم الكاريكاتيرية العديدة التي نُحتت بخيال العصور الوسطى على أعمدة كنائس ديجون. كان ينظر إلى المحقق وهو يرمش في حيرة ويداعب شاربيه الرماديين الطويلين بأصابعه الطويلة الملطخة بالتبغ مداعبة قاسية.

قال هانو بتهذيب: «هلَّا تفضلت بالجلوس؟ أعتقد أن السيدتين لن تجعلانا ننتظر طويلًا.»

وأشار نحو كرسي أمام طاولة الكتابة ولكن على يساره ومقابل الباب.

قال وابرسكي بريبة: «لا أفهم. لقد تلقيت رسالة. فهمت أن قاضي التحقيق استدعاني.»

قال هانو: «أنا ممثله. أنا ...» ثم توقف. وسأل: «ماذا؟»

حملق به بوريس وابرسكي.

وقال: «لم أقل شيئًا.»

«معذرة. أنا ... هانو.»

وقد نطق الاسم بسرعة، لكنه لم يتلقَّ أي رد فعل مفاجئ أو أي إشارة على أنه تعرَّف عليه.

هز وابرسكي رأسه وقال: «هانو؟ ينبغي بهذا الاسم أن يكون كافيًا بلا شك لأتعرف عليك، لكن من الأفضل أن أكون صريحًا ... إنه ليس كافيًا.»

قال هانو: «هانو من الشرطة الجنائية في باريس.»

فبدأت تظهر على وجه وابرسكي ببطء نظرة ذهول تام.

وقال: «أوه!» ثم كررها وهو يلقي نظرة بائسة نحو الباب، كما لو كان مترددًا بين الهرب أو البقاء. أشار هانو مرة أخرى إلى الكرسي، وغمغم وابرسكي: «نعم ... بالتأكيد» واتجه إليه مسرعًا بعض الشيء وغاص فيه.

كان جيم فروبيشر — الذي يراقب من مكانه السري — متأكدًا من شيء واحد. وهو أن بوريس وابرسكي لم يكن هو كاتب الرسالة المجهولة إلى بيتي، ولم يكن هو من قدم إلى الكاتب المعلومات عن هانو. ربما يمكن الاعتقاد بأن وابرسكي تظاهر بجهله باسم هانو، إلى أن حانت اللحظة التي شرح له فيها هانو من يكون. لكن بعد ذلك، لم يعد الأمر على هذا النحو. كان ذهوله حقيقيًّا للغاية.

وتابع هانو حديثه دون أي أثر للسخرية: «ستتفهم بطبيعة الحال أن اتهامًا خطيرًا مثل الذي وجهته للآنسة هارلو يتطلب تحقيقًا دقيقًا، وقاضي التحقيق المسئول عن القضية قد شرفنا في باريس بطلب المساعدة.»

رد وابرسكي: «نعم، الموقف صعب جدًّا»، وكان يتلوَّى كما لو كان ضحيَّة يتقلَّب على ألواح ملتهبة.

لكن بحسب تقدير جيم الذي كان على مرأى ومسمع من الرجل المضطرب، كان موقف وابرسكي هو الصعب. لقد هرع وابرسكي إلى مقر الشرطة عندما لم يصل أي رد من شركة فروبيشر وهاسلت على رسائله التهديدية، وقدم اتهامه في إطار من خيبة الأمل والمرارة، وبلا شك مع أمل في أن يُقدَّم له عرض نقدي كي يتمكَّن من سحب الاتهام. والآن يجد نفسه أمام جهاز التحقيق المدرب في فرنسا، مطالَبًا بتقديم الأدلة والشهادة. وكان هذا أكثر مما يتوقعه.

تابع هانو بلين: «فكرت أن محادثة غير رسمية بينك وبيني والسيدتين الشابتين، دون كتبة اختزال أو أمناء سر قد تكون مفيدة.»

قال وابرسكي بترقُّب: «نعم، بالتأكيد.»

وأضاف هانو بنبرة جافة: «وذلك كتمهيد طبعًا، كتمهيد للإجراءات الأكثر جدية التي أصبحت الآن محتومة.»

هنا انطفأ بريق الأمل في عيني وابرسكي.

وغمغم: «بالتأكيد» وبدا التوتر على صوته. «لا بد أن تستمر إجراءات القضية.»

قال هانو بتكلُّف: «هذا هو سبب وجود تلك الإجراءات»؛ وهنا فُتح باب المكتبة. فدخلت بيتي إلى الغرفة وتبعتها مباشرة آن أبكوت.

وقالت لهانو: «لقد أرسلت في طلبي» ثم رأت بوريس وابرسكي. فحرَّكت رأسها الصغير حركة طفيفة، وعيناها تنمَّان عن غضب. وقالت: «سيد بوريس»، ثم عادت تتحدث إلى هانو: «أتيت لتتمكن من الحيازة على ما أظن؟» ثم جالت بنظرها في الغرفة بحثًا عن جيم فروبيشر، وصاحت بجزع مفاجئ:

«لكنني فهمت أن ...» فأوقفها هانو في الوقت المناسب عن ذكر أي اسم.

إذ قال بسرعة: «كل شيء في وقته يا آنسة. دعينا نأخذ الأمور بترتيبها.»

جلست بيتي في مكانها المعتاد في مقعد النافذة. وأغلقت آن أبكوت الباب وجلست في كرسي يبعد قليلًا عن الآخرين. وطوى هانو صحيفته ووضعها جانبًا. وعلى لوح الكتابة الكبير الذي ظهر الآن، كان هناك أحد الملفات الخضراء التي لاحظها جيم في مكتب الشرطة الجنائية. فتح هانو الملف وأخذ الورقة الأولى. والتفت بسرعة إلى وابرسكي.

وقال: «سيد وابرسكي، أنت تذكر أنه في ليلة ٢٧ أبريل، هذه الفتاة هنا، بيتي هارلو، أعطت عمدًا لوالدتها بالتبني ومحسنتها، جين ماري هارلو، جرعة زائدة من مخدر أدت إلى وفاتها.»

قال وابرسكي بجرأة: «نعم، أؤكد ذلك.»

«هلا حدَّدت المخدر؟»

«ربما كان المورفين، لكنني لست متأكدًا.»

قال هانو: «ووفقًا لما ذكرت، إذا كان هذا الملخص الذي أحمله هنا صحيحًا، فقد وُضِع في كوب عصير الليمون الذي كانت السيدة هارلو تبقيه دائمًا بجانب فراشها.»

«نعم.»

وضع هانو الورقة جانبًا مرة أخرى.

وسأل: «هل تتهم المرضة، جين بودان، بالتواطؤ في هذه الجريمة؟»

صاح وابرسكي بشيء من الرهبة: «أوه، كلا!» وكانت عينه مفتوحة على آخرها وحاجباه مرتفعان يكادان يلامسان حافة شعره المتشابك. «ليس لديَّ أي شك في جين بودان. أتوسل إليك، سيد هانو، أن تكون واضحًا في هذه النقطة. يجب ألا يكون هناك أي ظلم! كلا! أوه، أمر جيد أنني أتيت إلى هنا اليوم! جين بودان! اسمع! سأقوم بتوظيفها كي تُمرِّضني في المستقبل إذا ما أُصبت بوعكة صحية.»

رد هانو بتعاطُف جاد: «لا يمكن للمرء أن يقول أكثر من ذلك. إنما سألتك هذا السؤال فقط لأن جين بودان كانت بالتأكيد في غرفة السيدة عندما دخلت الآنسة لتتمنى لها ليلة هانئة وتريها فستانها الجديد.»

قال وابرسكي: «نعم، أفهم.» وكان يزداد ثقة أكثر فأكثر، فقد كان السيد هانو الذي يعمل في الشرطة الجنائية في غاية الود واللطف. «لكن لا شك أن المخدر القاتل وُضع في ذلك الكوب دون أن يسترعي ذلك انتباه جين بودان. أنا لا أتهمها. كلا! إنها تلك القاسية»، وبدأ صوته يرتجف وفمه يتلوَّى، «تلك القاسية هي مَن وضعته ثم هرعت للرقص حتى الصباح، بينما كانت ضحيتها تموت. هذا أمر فظيع! أجل يا سيد هانو، إن هذا لأمر فظيع. كم كنتِ مسكينة يا أختي!»

«أخت زوجك.»

هكذا جاء التصحيح بهدوء لاذع من كرسيٍّ بالقرب من الباب كانت آن أبكوت تستلقي فيه.

رد وابرسكي بكآبة: «هي كأختي بالنسبة لي!» ثم التفت إلى هانو. وقال: «سيدي، لن أتوقف أبدًا عن لوم نفسي. كنت غائبًا أصطاد في الغابة. لو كنت بقيت في المنزل! فكر في الأمر! أطلب منك ...» ثم انفطر صوته.

قال هانو: «نعم، لكنك عدت، سيد وابرسكي. وهذا هو ما يحيرني. لقد أحببت أختك. هذا واضح، لأنك لا تستطيع حتى التفكير فيها دون أن تبكي.»

قال وابرسكي: «نعم، نعم» وهو يغطِّي عينَيه بيدَيه.

«إن كنت تحبها بهذا القدر، لماذا طال انتظارك إذَن قبل أن تتخذ أي إجراء للانتقام لموتها؟ لا شك أن هناك سببًا وجيهًا، لكنني لم أعرفه.» وأردف هانو وهو ينشر يده: «استمع إلى التواريخ. أختك العزيزة ماتت في ليلة ٢٧ أبريل. وأنتَ عدت إلى المنزل يوم ٢٨ أبريل؛ ولم تفعل شيئًا، لم تقدم أي اتهام، كل ما هنالك أنك جلست ساكنًا تمامًا. ودُفنت أختك في يوم ٣٠ أبريل، وما زلت لم تفعل شيئًا بعد، كنت ساكنًا تمامًا. أنت لم

تُوجِّه اتهامك ضد الآنسة إلا بعد أسبوع من ذلك. لماذا؟ أرجوك يا سيد وابرسكي ألَّا تنظر إليَّ من بين أصابعك، لأن الإجابة ليست مكتوبة على وجهي، وأرجوك أن تشرح لي هذه المعضلة.»

صدر الطلب بالنبرة الودية واللطيفة نفسها التي استخدمها هانو حتى الآن، دون أي تغيير في أدائه. لكن وابرسكي انتزع يده عن جبهته وجلس منتصبًا وقد شاع الدم في وجهه.

ثم صاح: «أجيبك على الفور. منذ البداية علمت بالأمر هنا»، وضرب صدره بقبضته، «أن جريمة قتل قد ارتُكبت. لكنني لم أكُن أعرفها هنا بعد» وربت على جبهته، «في رأسي. لذا فكرت وأخذت أفكِّر وأفكِّر. حتى رأيت الأسباب والدوافع. إذ أخذت تتراكم. فتاة شابة جميلة وأنيقة، لكنها صاحبة شخصية غريبة وغامضة، مُتعطِّشة في داخلها إلى الألوان والضحك والاستمتاع والقوة التي يوفِّرها لها جمالها إذا ما أرادت أن تمُدَّ يدها إليها، لكنها كانت قادرة على إخفاء كل علامات التعطُّش. هذه هي الصورة التي أرسمها لك عن تلك القاسية، بيتي هارلو.»

أظهرت بيتي نفسها بعض الاهتمام بالمقابلة للمرة الأولى منذ بدأت. حتى الآن كانت قد جلست دون حراك، كتمثال يُجسِّد الازدراء على قاعدة من الكبرياء. أما الآن فقد بُثَّت فيها الحياة. انحنت بيتي للأمام، ومرفقها على ركبتها المتقاطعة، وذقنها تستقر على يدها، وعيناها على وابرسكي، وابتسامة من التسلية على هذا التحليل لشخصيتها تضفي الحياة على وجهها. من ناحية أخرى، شعر جيم فروبيشر وهو خلف الباب وكأنه يستمع إلى تجديف وفُحش. لماذا يتحمل هانو هذا؟ لقد قال إن هناك معلومات يريد الحصول عليها من بوريس وابرسكي. والنقطة التي يريد المعلومات عنها أمكن تسويتها منذ فترة طويلة، في بداية هذه الجلسة غير الرسمية. كان واضحًا وضوح الشمس أن وابرسكي ليس له أي علاقة بالرسالة المجهولة التي تلقَّتها بيتي. لماذا إذَن يعطي هانو هذا المحتال فرصة مجانية للافتراء على بيتي هارلو؟ لماذا يطرح المزيد من الأسئلة وكأن هناك وزنًا حقيقيًّا للاتهام؟ باختصار، لماذا لا يفتح هذا الباب ويسمح لفروبيشر بإظهار رسائل الابتزاز الموجهة إلى السيد هاسلت، ثم يتنحَّى جانبًا بينما يوضع بوريس وابرسكي في الحالة التي سيحتاج فيها إلى خدمات جين بودان؟ في الواقع، كان جيم منزعجًا انزعاجًا شديدًا من السيد هانو. وقد علَّل لنفسه أنه كان يشعر بخيبة أمل.

في هذه الأثناء، استمرَّ بوريس وابرسكي في وصفه، بعد أن كان قد توقف من القلق عندما انحنت بيتي للأمام.

فقال: «بالنسبة إلى شخص مثلها، ديجون مدينة مُمِلة. صحيحٌ أن كان هناك فرصة لقضاء شهر أو نحو ذلك من كل عام في مونت كارلو، أي ما يكفي فقط لاستبصار لمحة عما يمكن أن يكون عليه الحال خارج ديجون، مثل المدخن الذي يشبع رغبته بتدخين سيجارة. ثم تعود إلى ديجون! لكن يا سيدي، ليس المقصود ديجون الخاصة بدوقات بورجوندي، ولا حتى ديجون برلمان الولايات، ولكن المقصود ديجون في نسختها الحالية، المدينة الفرنسية العادية والمملة، التي لا تحتفظ من مجدها ومسرَّاتها السابقة إلا ببعض الأبنية القديمة النادرة وشيء من روح التهكُّم. تخيَّل إذَن يا سيدي هذه القاسية وبحوزتها ثروة، وحريتها في متناول يدها، إذا كانت تتمتَّع فقط بالجرأة لتحصل على ذلك في ليلة ما، عندما يكون السيد بوريس غائبًا! وليس هذا كل شيء. فهناك مريضة في المنزل تستحق الاهتمام ... نعم، ويجب أن يتوفَّر لها.» كبح وابرسكي نفسه في فورة الإثارة هذه، وأغلق عينَيه لكن ليس بشكل كامل، وأومأ إيماءة بسيطة مختلسة. وتابع: «ذلك أن المريضة لم تكن سَلِسة ولطيفة. كلا، حتى تلك العزيزة كانت لديها عيوبها. أوه، نعم، ولن ننسى تلك العيوب عندما يحين وقت تقديم التماسات التخفيف. كلا» ورفع ذراعه بنبل. «سأكون أنا أول مَن يحث عليها قاضي المحكمة عندما يُصدر الحكم.»

اتكأت بيتي هارلو نحو الخلف مرة أخرى بلا مبالاة. وانطلقت من الكرسي بالقرب من الباب ضحكة خفيفة من شفتي آن أبكوت. وحتى هانو ابتسم.

قال هانو: «نعم، نعم؛ لكننا لم نصل بعد إلى محكمة الجنايات، سيد وابرسكي. لا نزال عند النقطة التي كنت تعي فيها الأمر بقلبك وليس بعقلك.»

رد وابرسكي مسرعًا: «هذا صحيح. في يوم السابع من مايو، وكان ذلك يوم سبت، قدمت اتهامي إلى مقر الشرطة. والسبب؟ السبب أنني أصبحت متأكدًا من الأمر في صباح ذلك اليوم. أخيرًا تأكدت منه هنا أيضًا» ورفع يده إلى جبهته، وجلس على حافة كرسيه.

وتابع: «كنت في شارع جامبيتا، أحد الشوارع الشعبية الصغيرة الجديدة، شارع به بعض المحلات الصغيرة وسمعته ليست هي الأفضل. في الساعة العاشرة، كنت أمرُّ بسرعة عَبْر ذلك الشارع عندما خرجت ابنة أختي القاسية تلك من محل صغير على بعد أمتار قليلة أمامي.»

فجأةً، تغير طابع الجلسة بأكملها. صحيح أن جيم فروبيشر كان يجلس بعيدًا عن المشهد، لكنه شعر بالتوتر الجديد، وكان مدركًا للتوقعات الجديدة. قبل لحظة، كان بوريس وابرسكي مدعاة للسخرية وهو يتحدث ويلوح بيدَيه، بل مدعاة للضحك الصريح.

أما الآن، ورغم أن صوته ما يزال يتقلَّب بطريقة هستيرية بين النغمات العالية والمنخفضة، وجسده ينتفض كالدمية، فإنه كان يحظى باهتمام الجميع ... باستثناء بيتي هارلو. لم يعُد وابرسكي غامضًا. كان يتحدَّث عن ساعة محددة، ومكان، وحادثة محددة وقعت.

«نعم، في ذلك الشارع الصغير السيئ رأيتها. لم أصدق عيني. تحولت إلى زقاق ضيق واختلست النظر من الزاوية. تلصَّصت عليها بعيني» وأشار وابرسكي إلى عينيه بإصبعين، كما لو كان هناك شيء مقنع للغاية في حقيقة أنه كان يختلس النظر بعينَيه وليس بمرفقَيه، «فصرت موقنًا. ثم انتظرت حتى اختفت عن الأنظار، فتسلَّلت للأمام لأرى أي محل زارته في ذلك الشارع الصغير القذر. مرَّة أخرى لم أصدق عيني. ذلك لأنني قرأت هذا الاسم فوق باب المحل: جان كلاديل العشَّاب.»

نطق وابرسكي الاسم بنبرة المنتصر ورجع بظهره في كرسيه وهو يهز رأسه بعنف كل ثانية. ساد الصمت في الغرفة تمامًا حتى كسره هانو.

إذ قال بهدوء: «لا أفهم. من هو جان كلاديل هذا، ولماذا يجب على سيدة شابة ألا تزور محله؟»

رد وابرسكي: «أعتذر. أنت لست من ديجون. كلا! وإلا لما كنت طرحت هذا السؤال. جان كلاديل ليس له سمعة أفضل من الشارع الذي يعيش فيه واللائق به. سَلْ أي شخص من ديجون عن جان كلاديل، وسترى كيف يصمت ويهز كتفيه كما لو كان هذا موضوعًا من المناسب الصمت عنه. أتعرف الأفضل من ذلك يا سيد هانو، يمكن أن تسأل في مقر الشرطة. جان كلاديل! لقد حُوكم مرتين بتهمة بيع العقاقير المحظورة.»

أخيرًا، خرج هانو عن هدوئه.

وصاح بصوت حاد: «ماذا؟»

قال وابرسكي: «نعم، مرتين يا سيدي. وفي كل مرة كان بالكاد يفلت، هذا صحيح. لديه أصدقاء أقوياء، وتم إبعاد الشهود وإخفائهم. لكنه معروف! جان كلاديل! نعم، جان كلاديل!»

كرَّر هانو ببطء: «جان كلاديل، عشَّاب في شارع جامبيتا. لكن ...» ثم استرخى في وضع مريح أكثر، وتابع: «سترى دقَّة الموقف يا سيد وابرسكي. الساعة العاشرة هي ساعة عادية. فهي ليست ساعة واعدة يختارها أي شخص يرغب في عمل زيارة متهورة، حتى لو كان ذلك الشخص غبيًّا.»

ردَّ وابرسكي بسرعة: «نعم، وهكذا كان فكري أيضًا. كما أخبرتك، لم أصدق عيني. لكنني تأكدت ... أوه، لم يكُن هناك شك، سيد هانو. وفكرت في نفسي فيما هو آتٍ.

تُكتشف الجرائم لأن المجرمين — حتى الأكثر ذكاءً منهم — يرتكبون شيئًا أحمق عاجلًا أم آجلًا. أليس كذلك؟ أحيانًا يكونون حذِرين للغاية؛ فهم يجعلون أدلتهم مثالية في عالم غير مثالي. وأحيانًا أخرى يكونون مهملين للغاية أو مضطرين إلى الإقدام على فعل متهور. لكن بطريقة ما يرتكبون الخطأ، وتفوز العدالة.»

ابتسم هانو.

وقال: «أها! أنت من تلاميذ الجريمة أيها السيد!» ثم التفت إلى بيتي، ولاحظ جيم فروبيشر بشعور غريب من عدم الراحة أن هذه كانت المرة الأولى التي ينظر فيها هانو مباشرة إلى بيتي منذ أن بدأت المقابلة.

وقال: «وما قولك عن هذه القصة يا آنسة؟»

أجابت بيتي بهدوء: «إنها كذبة.»

سأل هانو: «ألم تزوري جان كلاديل في شارع جامبيتا في الساعة العاشرة من صباح يوم السابع من مايو؟»

«لم أفعل سيدي.»

ابتسم وابرسكي وبرم شاربه.

قال: «بالطبع! بالطبع! لا يمكننا أن نتوقع من الآنسة أن تعترف بذلك. فالمرء يقاتل لينجو بنفسه، أليس كذلك؟»

لكن هانو قاطعه بصوت يحمل شيئًا من الشراسة، ما يكفي لإحباط اطمئنان وابرسكي، فقال: «لكن، في نهاية المطاف، دعونا لا ننسى أنه في يوم السابع من مايو، كانت السيدة هارلو قد ماتت منذ ١٠ أيام. لماذا كانت الآنسة ما تزال تذهب إلى محل جان كلاديل؟»

قال وابرسكي: «لدفع المال. فلا شك أن سلعة جان كلاديل باهظة الثمن ويجب دفع ثمنها أكثر من مرة يا سيدي.»

قال هانو: «بالسلعة تقصد السم. فلنكن واضحين.»

«نعم.»

«السم الذي استُخدم لقتل السيدة هارلو.»

أعلن وابرسكي: «هذا ما أقول» وهو يطوي ذراعَيه على صدره.

قال هانو: «جيد جدًّا.» ثم أخرج من ملفه الأخضر ورقة ثانية مكتوبة بخط أنيق ومختومة بختم رسمي. وأردف: «ما قولك إذَن يا سيدي إذا أخبرتك أن جثة السيدة هارلو

قد استُخرجت؟» فَقَدَ وجه وابرسكي ما تبقى من لونه. وحدَّق في هانو، وفكه يتحرَّك لأعلى وأسفل بعصبية، ولم ينطق بكلمة.

واصل هانو: «وماذا ستقول إذا أخبرتك أنه تعذر العثور على كمية من المورفين أكثر مما يمكن أن يكون سببًا لجرعة مُنوِّمة واحدة، ولا أي أثر لأي سم آخر؟»

في صمت تام، أخرج وابرسكي منديله من جيبه ومسح جبهته. لقد انتهت اللعبة. كان يرغب في إملاء شروطه، لكن خدعته انكشفت. لم يكُن لديه ذرة إيمان باتهامه الذي وجهه بنفسه. لم يكُن هناك سوى خيار واحد أمامه، وهو سحب اتهامه والادعاء بأن حبه لشقيقة زوجته قد قاده إلى خطأ فادح. لكن بوريس وابرسكي لم يكُن أبدًا الرجل المناسب لهذا. كان لديه ذلك القدر الإضافي من المكر الذي دائمًا ما يدمِّر المحتال البسيط. كان أحمق بما يكفي ليتخيل أن هانو ربما يلجأ إلى الخداع بدوره.

فقرَّب كرسيه قليلًا من الطاولة. وأطلق ضحكة خفيفة وأومأ لهانو بثقة.

قال بسلاسة: «أنت تقول «إذا أخبرتك.» نعم، لكنك لا تخبرني، سيد هانو ... كلا، على الإطلاق. بل على العكس، ما تقوله هو الآتي: «صديقي وابرسكي، هنا مسألة عسيرة إذا أمكن الكشف عنها فستسبب فضيحة كبيرة، ونهايتها مشكوك فيها. لا فائدة من تعقيد المشكلة».»

فسأل هانو بابتسامة لطيفة: «أوه، أنا أقول ذلك؟»

شعر وابرسكي الآن أنه على أرض صلبة.

فقال: «نعم، وأكثر من ذلك. أنت تقول: «لقد عُوملت بطريقة سيئة، صديقي وابرسكي، وإذا كنت ستتحدث قليلًا مع ابنة أخيك القاسية تلك ...»»

وانزلق كرسيه للخلف أمام خزانة الكتب وجلس يحدِّق ببلاهة كرجل أُطلق عليه الرصاص.

وكان هانو قد هبَّ واقفًا على قدمَيه، فوقف شامخًا بجوار الطاولة، وقد اكفهرَّ وجهه فجأة غاضبًا.

وقال بصوت هادر: «أوه، أنا أقول كل ذلك، صحيح؟ لقد قطعت كل هذه المسافة من باريس إلى ديجون لإدارة صفقة صغيرة في قضية قتل! أنا ... المحقق هانو! أوه! هو! هو! سألقنك درسًا على ذلك! اقرأ هذا!» وبينما انحنى للأمام، مد الورقة التي تحمل الختم الرسمي. «إنه تقرير المحللين. خذه واطلع عليه!»

مد وابرسكي ذراعًا مرتجفة، خائفًا أن يقرِّبها أكثر. حتى عندما كانت الورقة في يده، كانت تهتز بشدة لدرجة أنه عجز عن قراءتها. لكن بما أنه لم يكن مقتنعًا أبدًا باتهامه، لم يكن ذلك مهمًّا.

وتمتم: «نعم، بلا شك أنني ارتكبت خطأً.»

تلقَّف هانو الكلمة.

«خطأ! آه، هذه كلمة ممتازة! سأريك أي نوع من الأخطاء ارتكبت. قرِّب كرسيك إلى هذه الطاولة أمامي! هكذا! وخذ قلمًا ... هكذا! وورقة ... هكذا! والآن اكتب لي رسالة.»

قال وابرسكي: «حسن، حاضر»، واختفى كل التبجُّح من سلوكه، وكل المكر الدسيس. كان يرتجف من رأسه إلى قدميه. «سأكتب أنني آسف.»

زمجر هانو قائلًا: «هذا ليس ضروريًّا. سأحرص على أن تشعر بالأسف. كلا! بل اكتب لي ما أمليه عليك وباللغة الإنجليزية. هل أنت مستعد؟ نعم؟ إذَن ابدأ. «السادة الأفاضل.» هل كتبت هذا؟»

قال وابرسكي وهو يكتب بسرعة: «نعم، نعم.» كان رأسه في دوامة. وكان يجفل وهو يكتب تحت هيئة المحقق الضخمة التي أظلَّته. ولم يكُن لديه بعد أي استيعاب للهدف الذي كان يُقاد إليه.

كرَّر هانو: «جيد! «السادة الأفاضل.» لكننا نريد تاريخًا لتلك الرسالة. ٣٠ أبريل، ما رأيك؟ هذا سيفي بالغرض. اليوم الذي قُرئت فيه وصية السيدة هارلو وعرفتَ أنك لم يُترك لك أي مال. ٣٠ أبريل ... اكتبه. هكذا! الآن نكمل. «السادة الأفاضل، أرسلوا لي على الفور ١٠٠٠ جنيه عن طريق البريد الموصى به، أو سأسبِّب بعض المتاعب!».»

قذف وابرسكي بقلمه وقفز من كرسيه.

وقال متلعثمًا: «لا أفهم ... لا يمكنني كتابة ذلك ... هناك خطأ ... لم أقصد أبدًا ...» وقد رفع يديه كما لو كان يحاول صد هجوم.

صاح هانو بشراسة: «آه، لم يكن قصدك الابتزاز! آه! ها! ها! من مصلحتك أنني أعرف ذلك الآن! لأنه عندما يحين وقت التماسات التخفيف كما عبَّرت بكل رقة للآنسة، يمكنني أن أقف في المحكمة وأوصي بها. نعم! سأقول: «سيدي الرئيس، على الرغم من أن ذلك المسكين قام بالابتزاز، فإنه لم يقصده أبدًا. لذا من فضلك احكم عليه بخمس سنوات إضافية».» وهنا اندفع هانو عَبْر الغرفة كالإعصار وفتح الباب خلفه حيث كان جيم فروبيشر ينتظر.

وقال: «تعالَ!» وأدخل جيم إلى الغرفة. «هات الرسالتين اللتين كتبهما لشركتك يا سيد فروبيشر. جيد!»

لكن لم يكُن ضروريًّا إظهارهما. فقد انهار بوريس وابرسكي في الكرسي وانفجر في البكاء. وقد أتى جميع من في الغرفة على حركة بسيطة تنم عن الانزعاج باستثناء هانو؛ بل إن غضبه حتى هدأ وخفت. ثم نظر إلى وابرسكي في صمت.

وسرعان ما قال: «أنت تجعلنا جميعًا نشعر بالعار. يمكنك العودة إلى فندقك. لكنك لن تغادر ديجون يا سيد وابرسكي، حتى يتقرَّر ما سنفعله معك.»

نهض وابرسكي يمشي وكان يتعثَّر في طريقه نحو الباب.

وتمتم متلعثمًا: «أقدم اعتذاري. الأمر برمته خطأ. أنا فقير جدًّا ... لم أتعمد أي أذًى.» وبدون أن ينظر إلى أحد، خرج من الغرفة.

قال هانو: «يا له من رجل! هو لا يمكنه بعد الآن على أي حال أن يعتقد أن ديجون مملة» ومجددًا، خاطر بالخوض في اللغة الإنجليزية. فقال: «أتعلمون ماذا كان سيقول صديقي السيد ريكاردو؟ لا تعلمون؟ سأخبركم. كان ليقول: «عجبًا لذلك الرجل! ربَّاه! ما هذه الجرأة!»»

كان من بقي في الغرفة — وهم بيتي وآن أبكوت وجيم فروبيشر — في مزاج يرحب بأي عذر للضحك. لقد رُفِع الحظر عن المنزل، وثبُت أن التهمة الموجهة إلى بيتي لا أساس لها، وانتهت هذه المسألة السيئة برمتها. أو هكذا بدا الأمر. لكن هانو ذهب بسرعة إلى الباب وأغلقه، وعندما عاد، لم يكن وجهه يحمل أي أمارات على الانفراج.

وقال بجدية: «الآن بعد أن ذهب ذلك الرجل، لديَّ شيء خطير جدًّا أخبر به ثلاثتكم. أعتقد أن السيدة هارلو قد قُتلت بالسم في هذا المنزل ليلة ٢٧ أبريل، على الرغم من أن وابرسكي لا يعرف ذلك.»

استقبل الجميع هذا البيان بصمت رهيب. فقد وقف جيم فروبيشر كرجل صعقته كارثة. أما بيتي فانحنت إلى الأمام في مقعدها بوجه مليء بالرعب وعدم التصديق؛ ثم انطلقت صرخة عالية ومفزعة من الكرسي الموضوع بالقرب من الباب حيث كانت آن أبكوت جالسة.

صاحت آن قائلة: «كان هناك شخص في المنزل تلك الليلة.»

التفت هانو إليها وعيناه تتقدان.

وسأل بصوت غريب وثابت: «أأنتِ واثقة مما تخبريننني به يا آنسة؟»

هتفت: «نعم. إنها الحقيقة» بشيء من الارتياح في نبرتها كما لو أن سرًّا قد خرج أخيرًا بعد أن أصبح لا يُحتمل. «أنا واثقة الآن. كان هناك شخص غريب في المنزل.» ورغم أن وجهها كان ممتقعًا، فإن عينيها التقتا بعيني هانو دون خوف.

الفصل الثامن

الكتاب

أصيب جيم فروبيشر بالدوار من هذين التصريحين المذهلين المتتاليين، فغرق في دوامة من الأفكار. واختلطت بداخله مشاعر الحيرة والدهشة. لم يكُن لديه وقت ليسأل «كيف»؛ لأنه كان بالفعل يسأل «ماذا بعد؟» كانت أول فكرة واضحة في رأسه تتعلق ببيتي، وبينما كان ينظر إليها، استولى عليه وزعزعه غضب شديد إزاء كلٍّ من هانو وآن أبكوت. لماذا لم يتحدثا من قبل؟ لماذا يجب أن يتحدثا الآن؟ لماذا لا يتركان الأمور على ما هي عليه؟

كانت بيتي متكئة بظهرها على مقعد النافذة، وقد أرخت يديها ساكنتين إلى جانبيها، بينما ارتسم على وجهها إرهاقٌ وضيقٌ شديدان. فكر جيم في مريض مصاب يستيقظ في الصباح ليعتقد لبعض اللحظات أن المرض كان مجرد كابوس؛ ثم تأتي الطعنة، وتستقرُّ غيمة الألم ليوم آخر. قبل لحظة، بدا أن محنة بيتي قد انتهت. أما الآن فكانت تبدأ مرحلة جديدة.

فقال لها: «أنا آسف.»

كان تقرير المحللين يستقرُّ على طاولة الكتابة تحت أنظاره مباشرة. فالتقطه بلا مبالاة. كان التحليل مجرد خدعة، بكل أختامه وتوقيعاته، دبَّرها هانو لإجبار وابرسكي على التراجع. ألقى فروبيشر نظرة عليه، ثم بدأ يقرؤه بعناية من البداية إلى النهاية. وعندما انتهى، رفع رأسه وحدق في هانو.

وصاح: «لكن هذا التقرير حقيقي. هنا تفاصيل الاختبارات التي أُجريت والنتيجة. لم يتم العثور على أي أثر للسم.»

رد هانو: «لا أثر على الإطلاق.» ولم يكن منزعجًا مطلقًا من السؤال.

فقال جيم: «إذَن، لا أفهم لماذا تقدم الاتهام، أو من تتهم.»

فقال هانو بثبات: «لم أتهم أحدًا. دعنا نكُن واضحين في ذلك! أما بالنسبة لسؤالك الآخر ... انظر!»

وجذب هانو جيم من مرفقه وقاده إلى رف الكتب بجانب النافذة حيث وقفا معًا بالأمس.

«كان هناك فراغ هنا بالأمس. أنت نفسك لفتَّ انتباهي إليه. أترى أن الفراغ قد امتلأ اليوم؟»

قال جيم: «نعم.»

أخذ هانو المجلد الذي يشغل الفراغ. كان الكتاب بحجم صفحة الرُّبعية، وكان سميكًا إلى حدٍّ ما ومغلفًا بغلاف ورقي.

وقال: «انظر إلى هذا»؛ ولاحظ جيم فروبيشر، وهو يأخذه بشيء من الدهشة، أنه على الرغم من أن عيني هانو كانتا تستقران على وجهه، فإنهما كانتا خاليتين من أي تعبير. لم تكُن عين هانو تريانه. انصبَّت حواس هانو على الفتاتين، رغم أنه لم يرمقهما حتى بنظرة؛ فقد كان يترقَّب أي حركة قد تصدر عنهما، سواء كانت دهشة أم رعبًا. رفع جيم رأسه فجأة في تمرد. كان يُستخدم في خدعة أخرى، كما قد يستخدم ساحر ما شخصًا أحمق من الجمهور على منصته. نظر جيم إلى غلاف الكتاب، وصاح بعنف كافٍ لاستعادة انتباه هانو:

«لا أرى أي شيء ذي صلة هنا. إنه أطروحة طبعتها جمعية علمية في إدنبرة.»

«صحيح. وإذا نظرت مرة أخرى، فسترى أن من كتبه هو أستاذ الطب في تلك الجامعة. وإذا نظرت مرة ثالثة، فسترى من خلال نقش صغير بالحبر أن النسخة قدمت مع تحيات الأستاذ إلى السيد سايمون هارلو.»

وبينما كان يتحدَّث، ذهب هانو إلى النافذة الثانية المطلة على الفناء وأخرج رأسه وتحدث لبعض الوقت بصوت منخفض.

وقال بينما يلتفت إلى داخل الغرفة: «لن نحتاج إلى حارسنا هنا بعد الآن. لقد أرسلته في مهمة.»

وعاد إلى جيم فروبيشر الذي كان يقلب صفحات الأطروحة دون أن يفهم شيئًا.

سأل هانو: «حسنًا؟»

قرأ جيم بصوت عالٍ: «ستروفانثوس هسبيدوس.» ثم أضاف: «لا أستطيع فهم أي شيء منه.»

قال هانو: «دعني أحاول!» وأخذ الكتاب من يد جيم. وقال: «سأطلعك على الكيفية التي أمضيت بها نصف الساعة أثناء ترقبي لك هذا الصباح.»

وجلس عند طاولة الكتابة، ووضع الأطروحة على لوح الكتابة أمامه وفتحها على لوحة ملونة.

ثم قال: «هذه هي ثمرة نبات ستروفانثوس هسبيدوس عندما تنضج.»

أظهرت اللوحة جِرابين طويلين مدبَّبين متصلين عند ساقيهما ثم ينفصلان مثل زوج من البوصلات مضبوط بزاوية حادة. كانت أظْهُر هذه الجِرابات مستديرة، وداكنة اللون ومرقطة؛ أما الأسطح الداخلية، فكانت مسطحة، وكانت الميزة الغريبة فيها أن ريشًا أبيض حريريًّا يبرز من شقوق طولية.

واصل هانو: «كل ريشة من هذه الريشات ...» ونظر لأعلى ليجد أن آن أبكوت قد اقتربت من الطاولة، وأن بيتي هارلو نفسها كانت تميل للأمام بوجه يعكس الفضول «... كل ريشة من هذه الريشات متصلة بساق رفيعة بجِراب بيضاوي، وهو البذرة، وعندما تنضج الثمرة تمامًا وتفتح هذه الجرابات لتصنع خطًّا مستقيمًا، تتحرَّر الريشات وينشر الهواء البذور. هذا رائع، صحيح؟ انظر!»

وقلب هانو الصفحات حتى وصل إلى لوحة أخرى. هنا كانت الريشة ممثلة بشكل مستقل تمامًا عن الجراب. كانت منبسطة كالمروحة، فاتنةً ودقيقة النسيج على نحوٍ بديع؛ ومن ساق رفيعة كالشعرة، كانت البذرة تتدلى كجوهرة.

سأل هانو وهو ينظر إلى وجه آن أبكوت بابتسامة: «ما رأيك فيها يا آنسة؟ حلية صنعها فنان مرهف لسيدة أنيقة، صحيح؟» وأدار الكتاب حتى تتمكن هي على الجانب الآخر من الطاولة من الإعجاب بالرسم بشكل أفضل.

بدا أن بيتي هارلو قد استولى عليها الفضول الآن. أما جيم فروبيشر، الذي كان ينظر من فوق كتف هانو إلى اللوحة ويتساءل بقلق عن غاية هذا، فرأى ظلًّا يسقط على الكتاب. وجد بيتي واقفة بجانب صديقتها، وكفَّاها على حافة الطاولة ووجهها يميل فوق الكتاب.

أردف هانو وهو يهز رأسه: «يتمنى المرء أن تكون بذرة ستروفانثوس هسبيدوس هذه حلية. لكن للأسف! هي ليست بهذه البراءة.»

ثم أدار الكتاب نحوه، متصفحًا صفحاته من جديد. واختفت الابتسامة تمامًا من وجهه. حيث توقف عند لوحة ثالثة؛ وهذه اللوحة الثالثة أظهرت صفًّا من الأسهم ذات الرءوس المسننة.

نظر هانو من فوق كتفه إلى جيم.

وسأل: «هل فهمت الآن أهمية هذا الكتاب، سيد فروبيشر؟ لم تفهمها بعد؟ يُصنع من بذور هذا النبات سمُّ السهام الشهير في أفريقيا. إنه أشد السموم فتكًا على الإطلاق؛ إذ لا يوجد له ترياقٌ مُضاد.» وزاد التجهم في صوته. حيث قال: «وهو شر السموم، لأنه لا يترك أي أثر.»

فُوجئ جيم فروبيشر. وصاح: «هل هذا صحيح؟»

قال هانو: «نعم»؛ وفجأةً انحنت بيتي للأمام وأشارت إلى أسفل اللوحة.

وقالت بفضول: «هناك علامة أسفل مقبض ذلك السهم. نعم، وملاحظة صغيرة بالحبر.»

للحظة تنزلت على جيم فروبيشر هبة صغيرة من البصيرة، وُلدت بلا شك من حيرته وقلقه. إذ انقشع حجاب في دماغه. لم يرَ أكثر مما كان أمامه — المجموعة الصغيرة حول الطاولة في صباح مشرق من أيام شهر مايو، لكن كل شيء أصبح قاتمًا ومرعبًا، وذبل الإشراق إلى ضوء رمادي مَواتٍ وبارد كالقبور. كانت الفتاتان بجمالهما وشبابهما وأناقتهما منتبهتين وتنحنيان بشعرهما اللامع فوق لوحة أسهم السم كتلميذات في محاضرة. والرجل الذي يلقي المحاضرة بكلام لطيف ودمث، والقريب جدًّا منهما، كان يتتبع بلا هوادة خيوط جريمة قتل، وربما أصبح الآن يرى في إحدى هاتين الفتاتين ضالتَه، وربما كان يخطط الآن حتى لوضعها في قفص الاتهام في محكمة الجنايات وإرسالها بعد ذلك — محمولة وهي تصرخ وتبكي من الرعب مع خيوط الفجر الأولى — إلى المقصلة البشعة التي أُقيمت خلال الليل أمام بوابات السجن. شاهد جيم هانو يتحول من شخصيته الودودة واللطيفة إلى كيان شرير ومرعب، وكأنه يراه في مرآة مشوهة. كيف يمكنه الجلوس بهذا القرب منهما على الطاولة، والتحدث إليهما، ويشير إلى هذا الرسم البياني أو ذاك في اللوحات، وهو إنسان ويعرف ما ينوي فعله. قطع جيم المحاضرة بصيحة من الغضب والاستياء.

«لكن هذا ليس سمًّا! هذا كتاب عن سم. الكتاب لا يمكن أن يقتل!»

فرد عليه هانو على الفور:

«ألا يمكنه ذلك فعلًا؟» وهو يصيح بحدة. «استمع إلى ما قالته الآنسة منذ قليل. أسفل مقبض هذا السهم المسمى «الشكل (و)» كتب البروفيسور ملاحظة صغيرة.»

كان هذا السهم مختلفًا قليلًا عن الأسهم الأخرى في شكل ساقه. أسفل رأس السهم الحديدي المثلث كان حجم الساق يزداد. كان الأمر كما لو أنه جرى تركيب رأس السهم

داخل بصيلة؛ مثلما نرى أحيانًا أقلام الحبر الخشبية التي تكون رفيعة ومستدقة في الطرف العلوي، وسميكة تمامًا فوق سن الكتابة.

وقال هانو وهو يقرأ ملاحظة البروفيسور: «انظر الصفحة ٣٧»، ثم قلب الصفحات. «الصفحة ٣٧. ها نحن أولاء!»

مرر هانو إصبعه إلى منتصف الصفحة وتوقف عند كلمة مكتوبة بحروف كبيرة. «الشكل (و).»

أدنى هانو كرسيه من الطاولة قليلًا، في حين تحركت آن أبكوت حول طرفها لتستوضح الرؤية؛ حتى جيم فروبيشر وجد نفسه منحنيًا فوق كتف هانو. كانوا جميعًا يشعرون بتوتر غريب؛ كانوا يتوقعون شيئًا مثل المستكشفين وهم على حافة الاكتشاف. وبينما قرأ هانو الفقرة بصوت عالٍ، بدا أنهم جميعًا يحبسون أنفاسهم؛ وهذا ما قرأه:

««الشكل (و) هو تمثيل لسهم مسموم أعارنيه السيد المحترم سايمون هارلو، من بلاكمانز، نورفولك، ومن منزل كرينيل في ديجون. وقد أعطاه إياه السيد جون كارلايل، وهو تاجر على نهر شاير في منطقة كومب، وهو أفضل مِثال لسهم مسموم رأيته. سُحقت بذور ستروفانثوس في الماء وخُلطت مع الطين الأحمر الذي يستخدمه أهالي كومب الأصليون، ودُهنت ساق السهم بالكامل وكذلك رأسه باستثناء نقطة الاختراق ليظل السهم حادًّا كما هو.»»

استلقى هانو في كرسيه عندما انتهى من قراءة هذه الفقرة.

ثم قال: «أترى يا سيد فروبيشر السؤال الذي يجب أن نجيب عنه. أين هو سهم سايمون هارلو اليوم؟»

نظرت بيتي إلى وجه هانو:

«إذا كان في أي مكان في هذا المنزل يا سيدي فيجب أن يكون في الخزانة المقفلة في غرفة الجلوس الخاصة بي.»

صاح هانو بحدة: «غرفة جلوسك؟»

«نعم. إنها ما نسميه غرفة الكنوز ... فنصفها متحف ونصفها غرفة معيشة. كان عمي سايمون يستخدمها، وكذلك السيدة. كانت غرفتهما المفضلة، وهي مليئة بالتحف والأشياء الجميلة. ولكن بعد وفاة سايمون هارلو، رفضت السيدة دخولها. فأغلقت الباب الذي يصل بينها وبين غرفة تغيير ملابسها، حتى لا تدخلها ولو سهوًا. وللغرفة بابٌ يفضي إلى القاعة. وقد أعطتني هذه الغرفة.»

زال التجهم من جبين هانو.

وقال: «فهمت. وهذه الغرفة مقفلة بالختم.»

«أجل.»

«هل سبق لك أن رأيت السهم يا آنسة؟»

«لا أتذكر ذلك. لم تلقِ نظرةً في الخزانة إلا مرةً واحدةً وحسب؛ ففيها أشياء مروعةٌ خبيئة»؛ ثم اقشعرت بيتي قشعريرة صغيرة وهزت كتفها لتتخلَّص من ذكراها.

جادل فروبيشر بمرارة: «الأرجح أنه ليس في المنزل على الإطلاق، إنه لم يعُد إلى المنزل البتة. يرجح أن البروفيسور كان ليختار الاحتفاظ به.»

رد هانو: «إذا استطاع ذلك. لكن من المستبعد جدًّا أن يسمح له جامع التحف النادرة بالاحتفاظ به. كلا!» وجلس لبعض الوقت يتأمل. وأخيرًا تساءل: «هل تعلم ما أفكر فيه؟» ثم أجاب عن سؤاله بنفسه. «أنا أتساءل ما إذا كان بوريس وابرسكي في شارع جامبيتا فعلًا يوم السابع من مايو وقريبًا جدًّا من متجر جان كلاديل العشاب أم لا.»

صاح جيم: «بوريس! بوريس وابرسكي» هل كان هانو يرى أنه المجرم؟ لكن ما المانع؟ من يكون مرجحًا أكثر منه إذا كان هناك مجرم، بما أن بوريس وابرسكي كان يعتقد نفسه وريثًا بموجب وصية السيدة هارلو؟

وتابع هانو: «أنا أتساءل إنْ كان هو نفسه يفعل الشيء الذي ألقى باللوم عليك فيه يا آنسة بيتي.»

صاحت بيتي: «يدفع له؟»

«يدفع ... أو يعتذر عن عدم الدفع، وهو الأرجح، أو يستعيد السهم المسموم بعد أن نُظِّف من السُّم، وهو الأرجح على الإطلاق.»

أخيرًا، أنهى هانو أسراره وتحفظُّاته. أما شكوكه التي كانت مجنحة مثل السهم في اللوحة، فكانت مصوبة مباشرة نحو هذا الهدف الواضح. تنفس جيم الصعداء، كالمستيقظ من كابوس؛ فعم الاسترخاء ذلك الجمع الصغير؛ وابتعدَت آن أبكوت عن الطاولة؛ وقالت بيتي بهدوء وكأنها تخاطب نفسها: «السيد بوريس! السيد بوريس! أوه، لم أفكر في ذلك قط!» وما أثار تعجب جيم أنه كان هناك بالفعل نبرة من الأسى في صوتها.

وقد سمعها هانو أيضًا، حيث أجاب بابتسامة:

«لكن عليك أن تحملي نفسك على التفكير في ذلك يا آنسة. ففي نهاية المطاف، هو لم يكُن لطيفًا معك لدرجة أن تظهري له هذا القدر الكبير من حسن النية.»

ظهر احمرار خفيف على خدي بيتي. ولم يكُن جيم متأكدًا تمامًا من أن كلمات هانو يغيب عنها قدر بسيط من السخرية.

فأجابت بسرعة: «لقد رأيته جالسًا هنا، قبل نصف ساعة ... رجلًا مَهينًا، يذرف الدموع!» ثم هزَّت كتفَيها بإيماءة تنمُّ عن الاشمئزاز. «لا أتمنى له شيئًا أسوأ من ذلك. كنت مقتنعة وراضية.»

ابتسم هانو مرة أخرى بفضول وتسلية، وهو شيء لم يستطِع فروبيشر فهمه تمامًا. لكنه كان يشعر من وقت لآخَر بانطباع مزعج بأن مبارزة سرية غريبة كانت تدور طوال هذا الوقت بين بيتي هارلو وهانو تحت المظهر الخارجي الهادئ للأسئلة والأجوبة ... مبارزة كان فيها المتباريان يتعرَّضان واحدًا تلو الآخَر لخدوش بسيطة. لكن بدا هذه المرة أن بيتي قد تأذت.

رد هانو: «أنت راضية يا آنسة، لكن القانون لم يرضَ. كان بوريس وابرسكي يتوقَّع إرثًا. كان بحاجة إلى المال على الفور، كما يظهر في أول رسالتين أرسلهما إلى شركة السيد فروبيشر. كان لدى بوريس وابرسكي دافع.» ثم قلَّب نظره بين الحاضرين بإيماءة لتأكيد الجزئية التي يشير إليها. «إن الدوافع بلا شك هي علامات إرشادية يصعب قراءتها، وإذا أخطأنا في قراءتها، فإنها تضلنا إلى طريق بعيد. مفهوم! لكن على المرء أن يبحث عن العلامات الإرشادية ويحاول قراءتها قراءةً صحيحة. استمعوا مرَّة أخرى إلى أستاذ الطب بجامعة إدنبرة! إنه دقيق قدر الإمكان.»

وقعت عينا هانو ثانية على وصف «الشكل (و)» في الكتاب الذي ما زال مفتوحًا على الطاولة أمامه.

«كان السهم أفضل نموذج لسهم مسموم رآه على الإطلاق. فقد دُهِن رأس السهم وبضع بوصات من ساقه بطبقة سميكة وناعمة من معجون السم. وكان السهم غير مستخدم والسم طازجًا، وهذه السموم تحتفظ بسميتها لسنوات عديدة. أرى أنه إذا سُلِّم هذا الكتاب وهذا السهم إلى جان كلاديل العشَّاب، فبإمكانه بسهولة أن يصنع محلولًا كحوليًّا سيُسبِّب الموت في غضون ١٥ دقيقة إذا أمكن حقنه بإبرة تحت الجلد ولن يترك أي أثر.»

سألت بيتي بإنكار: «في غضون ١٥ دقيقة؟» بينما انطلقت صيحة مفاجئة من الكرسي بجانب الحائط، حيث جلست آن أبكوت مرة أخرى.

صاحت «أوه!» لكن لم يلاحظها أحد على الإطلاق. كان كلٌّ من جيم وبيتي يحدِّقان إلى هانو، في حين كان هو مشغولًا تمامًا بتأكيد حجَّته.

هتف جيم: «في غضون ١٥ دقيقة؟ كيف تعرف هذا؟»

«هذا مذكور هنا في الكتاب.»

تابع جيم: «وأين كان جان كلاديل ليتعلَّم كيفية التعامل مع المركب بأمان، وكيفية تحضير المحلول؟»

أجاب هانو: «هنا! هنا! هنا!» وهو يطرق ببراجمه على الكتاب. «كل شيء مكتوب هنا ... توالت التجارب على الحيوانات الحية، حيث قيس تأثير السم وسُجِّل بدقة على مدى الدقائق. أوه، إذا كان هناك رجل يتمتَّع بمعرفة عملية بالمواد الكيميائية مثل المعرفة التي ينبغي أن يتمتَّع بها جان كلاديل، فإن النتيجة مؤكدة.»

مالت بيتي هارلو مرة أخرى فوق الكتاب، ولف هانو الكتاب نصف لفة بينهما، حتى يتمكَّن كلاهما من القراءة إذا ما حرَّكا رأسَيهما. وقد قلب الصفحات إلى بداية الكتاب واستعرضها بسرعة.

«انظري آنستي إلى الجداول الزمنية. يقبض ستروفانثوس عضلات القلب مثل نبات ديجيتاليس، لكن بعنف وسرعة أكبر. انظري إلى انقباضات القلب المسجلة بالدقيقة تلو الأخرى، حتى لحظة الموت وكل شيء ... وإليكم المفارقة! ... يمكن من خلال هذه التجارب تحويل السم إلى دواء ويصبح هذا السلاح القاتل ترياقًا منقذًا للحياة ... كما حدث فعلًا.» مال هانو إلى الخلف، ونظر إلى بيتي هارلو من بين عينَيه نصف المغلقتين. وقال: «هذا رائع يا آنسة. ما رأيك؟»

أغلقت بيتي الكتاب ببطء.

وقالت: «أعتقد، يا سيد هانو أن دراستك لهذا الكتاب بعناية خلال نصف الساعة التي انتظرتنا فيها هنا هذا الصباح لا تقلُّ إدهاشًا.»

كان هذا هو دور هانو ليتغيَّر لونه. فزاد الدم في وجهه. ارتبك هانو لثانية أو نحو ذلك. ولمح جيم مرة أخرى المبارزة السرية، وانتابه فرح أن هانو بجلاله هو الذي تأذى هذه المرة.

وسرعان ما قال: «إنَّ دراسة السموم على وجه التحديد هي مجال تخصُّصي. في عصرنا هذا، يجب أن نتخصَّص في شيء، حتى ونحن أعضاء في الشرطة الجنائية.» ثم التفَت بسرعة نحو فروبيشر، وقال: «أراك مستغرقًا في التفكير يا سيدي!»

كان جيم يتابع سلسلة أفكاره الخاصة.

فأجاب: «أجل.» ثم تحدث إلى بيتي.

«أظن أن بوريس وابرسكي كان لديه مفتاح للباب، أليس كذلك؟»

أجابت: «نعم.»

قال: «هل أخذه معه؟»

«أظنُّ ذلك.»

فسألها: «متى تُغلق البوابات الحديدية؟»

«هذا آخِر شيء يفعله جاستون قبل أن يذهب إلى الفراش.»

كان ارتياح جيم يزداد مع كل إجابة يتلقَّاها.

هتف جيم: «أترى يا سيدي هانو، طوال هذا الوقت كنا نغفل سؤالًا مهمًّا. من أعاد هذا الكتاب إلى رفه؟ ومتى؟ أمس عند الظهر كان المكان فارغًا. وهذا الصباح أصبح ممتلئًا. مَن ملأه؟ ليلة أمس جلسنا في الحديقة بعد العشاء خلف المنزل. أيُّ شيءٍ أيسرُ من تسلُّل وابرسكي إلى المنزل بمفتاحه عندما كان الفناء خاليًا، فيعيد الكتاب ويتسلَّل خارجًا دون أن يلحظه أحد؟ ...»

أوقفته إيماءة من بيتي.

إذ قالت بمرارة: «دون أن يلاحظه أحد؟ مستحيل! لقد عينت الشرطة رقيبًا لحفظ الأمن عند بواباتنا وهو لا يغادر لا ليلًا ولا نهارًا.»

هز هانو رأسه.

وقال: «لم يعُد موجودًا. بعد أن كنتِ طيبة بما يكفي للإجابة عن أسئلتي بصراحة صباح أمس، وهي الأسئلة التي كان من واجبي أن أسألكِ إياها، أمرته بالانصراف على الفور.»

هتف جيم بفرح: «هذا صحيح.» وقد تذكر الآن أنه عندما جاء بسيارته من الفندق في فترة الظهيرة، كان شارع تشارلز روبرت فارغًا تمامًا. وقفت بيتي هارلو مذهولة من المفاجأة. ثم أصبح وجهها وديًّا أكثر بعد أن ارتسمت عليه ابتسامة؛ فصارت عيناها وكأنهما ترقصان مع الابتسامة، وانحنت قليلًا نحو المحقِّق في إيماءة صغيرة. لكن صوتها كان رقيقًا بفعل نبرة الامتنان.

إذ قالت: «أشكرك، يا سيدي. غاب عني بالأمس أن الرجل قد أُعفي من عمله، وإلا كنت قد أسديت إليك الشكر آنذاك. في الحقيقة، لم أكُن أتوقَّع هذا القدر من اللطف منك. وكما أخبرت صديقي جيم، كنت أعتقد أنك غادرت وأنت تعتقد أنني مذنبة.»

رفع هانو يده مُحتجًّا. بالنسبة إلى جيم، كانت هذه الحركة بمثابة تحية السيف التي يؤديها المبارز في نهاية المبارزة. كانت المعركة السرية الصغيرة بين هذين الاثنين قد

انتهت. هانو، بصرفه الشرطي من أمام البوابة، أعطى إشارة واضحة ليس فقط لبيتي ولكن لكل ديجون بأنه لم يجد ما يبرر أي مراقبة لتحركاتها أو أي قيود على حريتها.

وأعلن جيم بقوة: «أترون إذَن.» كان دائبًا في التركيز على حله للقضية كما يركز الكلب على عظْمته. «أترون أن الطريق كان خاليًا أمام وابرسكي ليلة أمس.»

لكن بيتي لم تكُن مقتنعة. فهزت رأسها بحزم.

وقالت: «لا أريد أن أصدق أن السيد بوريس مدان بهذه الجريمة البشعة. علاوةً على ذلك ...» والتفتت بعينيها الكبيرتين نحو هانو متوسلة، «لا أصدق أن أي جريمة قتل وقعت هنا على الإطلاق. لا أريد أن أصدق ذلك» ثم تعثر صوتها للحظة.

ثم واصلت: «في نهاية المطاف يا سيدي هانو، على أي أساس تبني هذه النظرية المروعة؟ على أن كتابًا لعمي سايمون لم يكُن في مكتبته أمس وهو موجود اليوم. نحن لا نعرف أكثر من ذلك. نحن لا نعرف حتى ما إذا كان جان كلاديل موجودًا أصلًا أم لا.»

قال هانو وهو يحدق إلى الكتاب على الطاولة: «سنعرف ذلك قريبًا يا آنسة.»

فقالت: «ولا نعرف ما إذا كان السهم موجودًا في المنزل، أو ما إذا كان قد وجِد فيه أصلًا.»

فأصر هانو: «سنتحقق من ذلك يا آنسة.»

«وحتى لو كان السهم بحوزتنا الآن وكان أثر السم فيه، فما زلت لا تستطيع أن تتحقق من أن بقيَّته قد استُخدمت. هذا تقرير من الأطباء يا سيدي. ولأنه يقول إنه لا يمكن اكتشاف أي أثر للسم، فلا يمكنك أن تستنتج أن سمًّا لا يترك أثرًا قد استُخدم. لا يمكنك أبدًا إثبات ذلك. ليس لديك أي شيء تعتمد عليه وتنطلق منه. كلها تخمينات ستجعلنا نعيش في كابوس. أوه، لو كنت أعتقد للحظة أن جريمة قتل قد ارتُكبت، لقلت لك أن تستمر فيما تفعل، لكن لم تُرتكب أي جريمة. أنا واثقة من أن جريمة لم ترتكب هنا!»

كان صوت بيتي ينطوي على صدق واضح، وحرارة قوية بهدف الاستعطاف، لإحلال السلام وإنهاء الشكوك، ومن أجل الحق في النسيان والمغفرة، حتى إن جيم شعر بأنه لا يمكن لأي رجل أن يقاوم ذلك. في الواقع، جلس هانو لفترة طويلة وعيناه مثبتتان على الطاولة قبل أن يجيبها. ولكن عندما فعل ذلك أخيرًا، عرف جيم على الفور أنها قد خسرت، على الرغم من أنه بدأ حديثه بصوت لطيف.

إذ قال: «لا بأس بحجتك وبتوسلاتك يا آنسة بيتي. ولكن لكلٍّ منا عقائده التي يعيش وفقًا لها. إليك عقيدتي، وهي متواضعة جدًّا. إنني لأجد المبررات في معظم الجرائم: حتى

في جرائم العنف. فما الانفعال والغضب وحتى الجشع إلا صفات حميدة تطورت بصورة تجاوزت الحدود! أشياء كانت في البداية محمودة ثم صارت وحشية! والأمر نفسه ينطبق على عملية تنفيذ الجريمة. فعادات الحياة تجعل من الطبيعي استخدام هذا السلاح أو ذاك، ونحن نرى في هذه الأسلحة بشاعة وشذوذًا، ومجرد استخدامها علامة على انحراف مروع. أجل، أنا أقرُّ بهذه المبررات. لكن ثَم جريمة واحدة لن أسامح بشأنها أبدًا ... جريمة القتل بالسم. وثم مجرم واحد لن أتوقف أو أتوانى عن ملاحقته أبدًا، القاتل بالسم.»

ومن خلال كلمات هانو، ساد إحساس حقيقي بالكراهية، وعلى الرغم من أن صوته كان منخفضًا، وأنه لم يرفع عينَيه عن الطاولة البتة، فإنه استحوذ على انتباه الثلاثة الذين يستمعون إليه وكأنهم وقعوا تحت تأثير تعويذة سحرية قوية.

وتابع هانو بمرارة: «تكون سيطرة القاتل بالسم على ضحيته سيطرة جبانة وسرية، فتكون حياة الضحية تحت رحمته، ويا لها من رحمة تلك التي يظهرها بالتأكيد. يكون عمله البشع سهلًا للغاية. إذ يصبح مجرد عادة مثل معاقرة شراب، ليس أكثر من ذلك بالنسبة للقاتل، ولكن بمتعة تعدل ألف ضعف المتعة التي يمكن أن يجدها في الشراب. الأمر كممارسة أحد أنواع الفنون الشنيعة. أتدرون! إن مرَّت جريمة قتل بالسم دون رادع ولم يأخذ القاتل عقابه، فلن يطول الأمر قبل أن تقع جريمة أخرى. فلا تستهينوا! لا تستهينوا!»

كان صوته يرتفع ثم يخفت. ولكن الكلمات بدَت وكأنها لا تزال تتردَّد في جو الغرفة، فتصطدم بالجدران وترتدُّ منها ولا تزال مسموعة. وعلى الرغم من خياله البطيء، شعر جيم فروبيشر أنه لو كان هناك قاتل بالسم حاضرًا بينهم وسمع هذه الكلمات، لَتَمزَّق الصمت بصرخته من الذنب وانكشف أمره. فتوقف قلبه عن الخفقان وهو ينصت لأي صرخة، رغم أن عقله أخبره أنه لا يوجد في تلك الغرفة فم يمكن أن تصدر منه هذه الصرخة.

رفع هانو نظره إلى بيتي عندما انتهى. واعتذر منها بأن حرك يديه حركة صغيرة وابتسم ابتسامة مليئة بالندم. وقال: «عليكِ أن تقبليني بجبلتي يا آنستي، ولا تلوميني على المعاناة التي لا بد أنني ما زلت أتسبَّب فيها بأكثر مما يمكنكِ أن تتحملي. فأنا ما صادفت قضية أكثر صعوبة من هذه. ولذلك، أجد صعوبة كبيرة في تحديد أي السبل ينبغي أن أسلك.»

وقبل أن تتمكن بيتي من الرد، جاء صوت طرق على الباب.

فصاح هانو: «ادخل!» فدخل رجل قصير داكن البشرة يبدو عليه النشاط والانتباه، وكان يرتدي ملابس عادية.

وقال موضحًا: «هذا هو نيكولا مورو، الذي كان يحرس الفناء. أرسلته منذ فترة في مهمة»، ثم التفت إلى مورو.

«كيف الأمور يا نيكولا؟»

وقف نيكولا في وضع الانتباه ويداه على جانبي سرواله، على الرغم من ملابسه العادية، وتحدث بصوت رسمي خالٍ من التعبير.

فقال: «وفقًا للتعليمات، ذهبت إلى متجر جان كلاديل. إنه في العقار رقم سبعة. ثم اتجهتُ من شارع جامبيتا إلى مقر الشرطة. تحققتُ من بيانك. مَثُل جان كلاديل مرتين أمام محكمة الجنح لبيع عقاقير ممنوعة، وتمَّت تبرئته مرَّتين بسبب غياب الشهود اللازمين.»

قال هانو: «شكرًا، يا نيكولا.»

فحياه مورو بالتحية العسكرية، واستدار على عقبه وخرج من الغرفة. تلا ذلك لحظة من الصمت، من الإحباط. ونظر هانو إلى بيتي بأسًى.

قال: «أرأيتِ! يجب أن أستمرَّ. يجب أن نبحث في خزانة سايمون هارلو المقفلة عن السهم المسموم، إذا تصادف أنه موجود هناك.»

ذكَّره فروبيشر: «الغرفة مقفلة بالأختام.»

أجاب هانو: «يجب أن نفض هذه الأختام»، ثم أخرج ساعته من جيبه وعبس وجهه.

ثم قال: «نحتاج إلى السيد المفوض، والسيد المفوض لن يكون في مزاج جيد إذا أزعجناه الآن. لأنها الساعة الثانية عشرة، فهي ساعة الغداء المقدسة. لقد لاحظتم في سياق الأحداث أن مفوضي الشرطة لا يكونون أبدًا في مزاج جيد. ذلك لأن ...» ولكن جمهور هانو لم يسمع مطلقًا تفسيرَه هذه الحقيقةَ المعروفة. ذلك لأنه توقف بحركة غريبة في صوته، وساعته لا تزال تتأرجح من أصابعه في سلسلتها. نظر كلٌّ من جيم وبيتي إلى حيث كان ينظر. رأوا آن أبكوت واقفة عند الحائط ويدها على الحاجز العلوي للكرسي لتمنع نفسها من السقوط. كانت عيناها مغلقتين، وبدَت المعاناة والشدة على وجهها كله. وفي لحظة، كان هانو بجانبها.

فسألها بلهفة: «يا آنسة، ما الذي تريدين أن تخبريني به؟»

همست: «هل هذا صحيح إذَن؟ جان كلاديل موجود بالفعل؟»

«أجل.»

قالت: «وأن السهم المسموم ربما يكون قد استُخدم؟» ثم تردَّدت في نطق الكلمات التالية، ولكنها نطقتها في الأخير: «وأن الموت حل في غضون ١٥ دقيقة؟»

قال هانو مُقسِمًا: «أُقسِم لكِ إن هذا صحيح. ما الذي تريدين أن تخبريني به؟»

«بأنني كنت أستطيع منع كل هذا. لن أسامح نفسي أبدًا. كنت أستطيع منع الجريمة.»

ضاقت عينا هانو وهو يراقب الفتاة. وتساءل فروبيشر، هل كان خائب الأمل؟ هل كان يتوقع ردًّا مختلفًا تمامًا؟ لكن حركة سريعة من بيتي صرفت انتباهه عن هذه الأسئلة. فقد رآها تنظر عبر الغرفة إليهم بعيون لامعة هي أغرب ما رأى. ثم انسحبت آن أبكوت مبتعدة عن هانو ووقفت منتصبة بالكامل عند الحائط وذراعاها ممدودتان. بدت وكأنها تعزل نفسها كمنبوذة؛ كانت وضعيتها ووقفتها وكأنها تصرخ: «ارجموني! أنا بانتظاركم.»

وضع هانو ساعته في جيبه.

وقال: «يا آنسة، سنترك المفوض يتناول غداءه بسلام، وسنصغي إلى قصتك أولًا. ولكن ليس هنا. في الحديقة تحت ظل الأشجار.» ثم أخرج منديله ومسح جبينه. وتابع: «في الحقيقة، أنا أيضًا أشعر بالحرارة. هذه الغرفة ساخنة كالفرن.»

عندما استرجع جيم فروبيشر أحداث ذلك الصباح في وقت لاحق، لم يكُن هناك شيء يبرز بوضوح في ذاكرته — كلا لم يبرز شيء، ولا حتى كتاب الأسهم وصفحاته، ولا بيان هانو عن عقيدته في الحياة — مثل بروز صورة هانو وهو يعبث بساعته في طرف السلسلة بينما تتألَّق في ضوء الشمس وهو يتساءل عما إذا كان يجب أن يقاطع مفوض الشرطة الآن أو يتركه يأكل غداءه بسلام. كان الكثير مما هو غير مُتوقَّع بالنسبة إليهم جميعًا يعتمد على التسلسل الدقيق للأحداث.

الفصل التاسع

السر

كانت كراسي الحديقة قد أُعدت بالفعل على العشب في أقصى الحديقة، تحت ظلال الأشجار الوارفة. وتقدمهم هانو في طريقه نحوها.

قال: «سنكون هنا في النسيم البارد، ولن يسمعنا أحد إلا الطيور» ثم رتب الوسائد بعناية في كرسي عميق من الخوص من أجل آن أبكوت. تذكر جيم فروبيشر مرة أخرى عناية الطبيب بالمريض، وشعر مرة أخرى ببعض الانزعاج من هذه المقارنة. لكنه قد بدأ يفهم على نحو أوضح شخصية هذا الرجل الذي لا سبيل لتغييره. لم تكُن مجاملاته الصغيرة ورعايته مُفتعلة. بل كانت طبيعية، لكنها لن تمنعه للحظة عن تعقب هدفه. كان يرتب الوسائد بيدَين سريعتين وخبيرتين كالمرضة ... هذا صحيح، لكنه سيضع الأصفاد حول معصمي «مريضه» في اللحظة التالية بنفس السرعة والخبرة، إذا اقتضى واجبه ذلك.

قال هانو: «هكذا! الآن يا آنسة أنتِ مرتاحة. أما أنا، فسأدخن إذا سُمح لي.»

ثم التفت ليطلب الإذن من بيتي، التي كانت قد تبعتهما مع جيم إلى الحديقة.

أجابت: «بالطبع»؛ ثم تقدمت وجلست في كرسي آخر.

أخرج هانو من جيبه حزمة زرقاء لامعة من سجائر سوداء رفيعة وأشعل واحدة. ثم جلس في كرسي قريب من الفتاتين. ووقف جيم فروبيشر خلف هانو. كان العشب مرقطًا ببقع من ضوء الشمس والظلال الباردة. وكانت طيور الشحرور والسُّمْنِيَّةُ تغرد على الأغصان والشجيرات، وكانت الحديقة تعج بالورد، والهواء يعبق برائحتها. كان هذا المكان مستغربًا على القصة العجيبة التي ستحكيها آن أبكوت عن مغامراتها في ظلمة الليل وصمته؛ لكن هذا التباين نفسه بدا وكأنه يجعل القصة أكثر وضوحًا وحيوية.

استهلت آن قائلة: «لم أذهب إلى حفل السيد دي بوياك في ليلة ٢٧ أبريل»، ففُوجئ جيم، حتى إن هانو رفع يده ليمنعه من المقاطعة. لم يخطر ببال جيم أين كانت آن أبكوت في تلك الليلة. لكن لم تحمل هذه الجملة لهانو أي مفاجئة.

سألها: «لم تكوني على ما يرام؟»

أجابت آن: «لم يكُن هذا هو السبب. لكن بيتي وأنا كان بيننا ... لن أقول قاعدة، ولكن اتفاق عمل من نوع ما، والذي أعتقد أنه أصبح ساريًا منذ أن جئت إلى منزل كرينيل. لم نتدخَّل في استقلالية بعضنا البعض.»

كانت الفتاتان قد أدركتا منذ البداية أن الخصوصية هي جوهر الرفقة. كان لكلٍّ منهما مكانها الخاص في غرفة الجلوس.

قالت آن: «لا أظن أن بيتي ولَجَت غرفتي قط، أما أنا فلم أدخل حجرتها إلا مرة أو مرتين. كان لكلٍّ منا أصدقاؤه. ولم نُضايق بعضنا بأسئلة عن مكان وجودنا أو مَن كنا برفقته. باختصار، كنا نمنح بعضنا مساحة من الحرية.»

قال هانو باستحسان وودٍّ وحرارة: «قاعدة حكيمة يا آنسة. فالكثير من المنازل تتصدَّع بسبب غياب مثلها. إذَن، عائلة دي بوياك كانت من أصدقاء الآنسة بيتي.»

استأنفت آن: «نعم. وبمجرد أن غادرت بيتي، أخبرتُ جاستون أنه يمكنه إطفاء الأنوار والذهاب إلى الفراش متى شاء؛ وصعدت إلى غرفة الجلوس الخاصة بي، التي هي بجوار غرفة نومي. يمكنك رؤية النوافذ من هنا. ها هي هناك!»

كانت النوافذ في مجموعة تواجه الجزء الخلفي من المنزل الطويل عبر الحديقة. على يمين القاعة امتد خط النوافذ المغلقة، وكانت غرفة نوم بيتي في الطابق العلوي. أشارت آن إلى الجناح على يسار القاعة باتجاه الطريق.

قال هانو: «فهمت. تقع غرفتك فوق المكتبة يا آنسة.»

أجابت آن: «نعم. كان ثَم رسالة يتعيَّن عليَّ كتابتها» ثم توقفت فجأةً. لقد صادفت مانعًا أثناء سرد قصتها كانت قد نسيته عندما صرخت في المكتبة. ثم تنهَّدَت. وتمتمت: «أوه!» ثم همست مرة أخرى: «أوه!» بنبرة منخفضة. ونظرت بقلق إلى بيتي، لكنها لم تتلقَّ أي مساعدة منها. كانت بيتي منحنية إلى الأمام، ومرفقاها على ركبتَيها، وعيناها مثبتتان على العشب عند قدمَيها، وكأنها في عالم آخَر.

سأل هانو بسلاسة: «وبعد يا آنسة.»

تابعت آن حديثها قائلة: «كانت رسالة مهمة»، وهي تختار كلماتها بعناية، كما فعلت بيتي في لحظة ما أثناء استجوابها بالأمس ... كانت تخفي شيئًا أيضًا، تمامًا كما

فعلت بيتي. «كنت قد قطعت وعدًا صادقًا أن أكتبها. لكن العنوان كان في الطابق السفلي في غرفة بيتي. كان عنوان أحد الأطباء.» وبعد أن قالت ذلك، بدا وكأنها تجاوزت المانع، فتابعت بنبرة سلسة وطبيعية أكثر.

«تعرفون ما هو الأمر، يا سيد هانو. كنت قد لعبت التنس طوال فترة الظهيرة. كان قد أصابني تعب خفيف. كانت هناك رسالة يجب كتابتها بعناية، والعنوان كان في الطابق السفلي. قلت لنفسي إنني سأفكر في صياغة الرسالة أولًا.»

وهنا قطع جيم فروبيشر سرد القصة، وقد كان يتقلقل على قدمَيه بفارغ الصبر.

فسأل: «لكن ما موضوع هذه الرسالة؟ وإلى أي طبيب؟»

التفت هانو بحدة.

وهتف: «أرجوك! ستتكشف هذه الأمور في وقتها المناسب إذا تركناها وشأنها واحتفظنا بها في ذاكرتنا. دع الآنسة تروي قصتها بطريقتها» ثم عاد إلى آن أبكوت بالتفاتة خاطفة.

وقال: «وبعد يا آنسة. قررتِ أن تفكري في صياغة رسالتك.»

تلألأت ابتسامةٌ خافتةٌ على محيا الفتاة للحظة، وقالت: «لكن الأمر كان في حقيقة المطاف مجرد ذريعة، ذريعة لأستقر في كرسيي الكبير، وأمد ساقيَّ، وأخلد إلى الراحة. يمكنك أن تخمن ما حدث.»

ابتسم هانو وأومأ برأسه.

«لقد غلبكِ النوم. الإرادة في الشباب الأصحاء المتعبين لا تجدي في إبقائهم مستيقظين.»

أجابت آن: «كلا، لكن الندم يستيقظ معهم، ويوبخهم على الفور وبقسوة. استيقظتُ وقد خالطني شعورٌ بالبرد قليلًا، كما يحدث مع من ينامون في كراسيهم. كنت أرتدي فستانًا خفيفًا من الحرير الرقيق، بلونه الأزرق الفاتح ... أوه، كم كان الفستان خفيفًا جدًّا! نعم، كنت أشعر بالبرد، وضميري كان يقول: «أيتها الكسولة الكبيرة! وماذا بشأن رسالتك؟ لماذا لم تنجزيها؟»

«هببت واقفة في لحظة، وفي اللحظة التالية كنت خارج الغرفة على منبسط الدرج، وكنت ما زلت خدرة من النوم. أغلقت بابي خلفي. كان ذلك بمحض الصدفة. كانت الأنوار مطفأة على الدرج وفي القاعة بالأسفل. وكانت الستائر مسدلة على النوافذ. ولم يكُن ثَمَّ قمرٌ تلك الليلة. كنت في ظلام دامس لدرجة أنني لم أستطِع رؤية يدي عندما رفعتها قريبًا من وجهي.»

أسقط هانو طرف سيجارته عند قدمَيه. وكانت بيتي قد رفعت وجهها وتحدِّق في آن فاغرة فاهها. بالنسبة لهم جميعًا، توارت الحديقة عن الأنظار ببهائها المشمس وورودها الفاتنة وطيورها الشادية. كانوا على الدرج مع آن أبكوت في تلك الليلة المظلمة. كانت التغيرات السريعة في لون خدَّيها وتعبيرات عينَيها ... وقد أجبرتهم حيويتها وانفعالها في سردها على متابعتها باهتمام.

قال هانو بهدوء: «وبعد يا آنسة؟»

تابعت آن: «لم يكُن الظلام يهمني» وهي مندهشة من جرأتها، الآن بعد أن عرفت ما حدث لاحقًا في تلك الليلة. «أنا خائفة الآن. لكنني لم أكُن خائفة حينها»، وتذكر جيم كيف كانت عيناها تتقلبان الليلة الماضية في الحديقة بين البقع المظلمة بحثًا عن متسلل. بالتأكيد، كانت خائفة الآن! كانت يداها تقبضان بقوة على ذراعي الكرسي، وشفتاها ترتعشان.

«كنت أعرف كل درجة من الدرج. كانت يدي على حاجز السلم. ولم يكُن هناك أي صوت. ولم يخطر ببالي أن أحدًا كان مستيقظًا غيري. حتى إنني لم أفتح الأنوار في القاعة بالمفتاح الموجود في أسفل الدرج. كنت أعلم أن هناك مفتاحًا بالقرب من باب غرفة بيتي من الداخل، وكان ذلك كافيًا. أعتقد أيضًا أنني لم أكن أرغب في إيقاظ أي أحد. وعند أسفل الدرج، استدرت إلى اليمين بتلقائية مثل الجندي. كان باب غرفة بيتي أمامي بالضبط على الجانب الآخر من القاعة. اجتزتُ القاعة ويداي ممدودتان أمامي، وإذا ببيتي، كما لو أنها هي التي تسير في القاعة، تبسط يديها إلى الأمام.

وقالت ببطء: «أجل، كان يجب فعل ذلك. في الظلام ... ومع عدم وجود شيء سوى الفراغ أمامك ... نعم!» ثم ابتسمت عندما رأت أن عيني هانو كانتا تراقبانها بفضول. «ألا تظن ذلك يا سيد هانو؟»

قال هانو: «بلا شك. لكن دعينا لا نقاطع الآنسة.»

تابعت آن: «لمست الحائط أولًا، عند زاوية الممر والقاعة.»

سأل هانو: «الممر الذي توجد به النوافذ المطلة على الفناء من جهة وأبواب غرف الاستقبال من الجهة الأخرى؟»

أجابت: «نعم.»

فسأل: «هل كانت الستائر مُسدَلة على جميع النوافذ أيضًا، يا آنسة؟»

أجابت: «نعم. لم يكُن هناك أي وميض ضوء في أي مكان. رحت أتحسَّس طريقي على طول الحائط إلى يميني — أي في القاعة، بالطبع، وليس الممر — حتى انزلقت يدي

عن سطح الجدار ولمست الفراغ. كنت قد وصلت إلى فتحة الباب. تحسست مقبض الباب، وأدرته ودخلت الغرفة. كان مفتاح الكهرباء مثبتًا في الجدار بجانب الباب، قريبًا من يدي اليسرى. ضغطت عليه. أعتقد أنني كنت لا أزال شبه نائمة عندما أشعلت الأنوار في غرفة الكنوز، كما كنا نسميها. لكن في اللحظة التالية كنت مستيقظة تمامًا؛ أوه، لم أعهد نفسي قط بهذه الدرجة من اليقظة.» لم تكد أصابعي تبتعد عن المفتاح بعد إشعال الضوء، حتى عادت مرة أخرى لإطفائه. لكن هذه المرة رفعت المفتاح بحذر شديد، حتى لا يصدر أي صوت ... لا، ولا حتى أخفض صوت قد يشي بي. كانت الفترة بين حركتَي يدي قصيرة جدًّا، لدرجة أنني بالكاد لاحظت الساعة الموجودة فوق الخزانة المطعمة في منتصف الحائط المقابل لي، ثم وقفت مرَّة أخرى في الظلام، ولكن بثبات تام وأنا أحبس أنفاسي — شعرت ببعض الخوف — نعم، لا شك أنني شعرت بشيء من الخوف، لكنني كنت مندهشة أكثر من كوني خائفة. والسبب في ذلك أن الجدار الداخلي للغرفة، في الطرف الآخر، بالقرب من النافذة، هناك ...» وأشارت آن إلى النافذة الثانية من النوافذ المغلقة التي تحدِّق في الحديقة تحديقًا عقيمًا «... الباب الذي طَالَمَا كان مُقفَلًا منذ وفاة سايمون هارلو كان مفتوحًا، وكان نور ساطع يلمع من خلفه.»

أطلقت بيتي هارلو صرخة خافتة.

وقالت وقد بدا عليها الاضطراب أخيرًا: «ذلك الباب؟ كان مفتوحًا؟ كيف حدث ذلك؟»

غير هانو وضعه في كرسيه، وسألها سؤالًا.

فقال: «في أي جانب من الباب كان المفتاح، يا آنسة؟»

أجابت بيتي: «في جانب سيدتي، إذا كان المفتاح موجودًا في القفل أصلًا.»

«أوه! أنتِ لا تتذكرين إذا كان موجودًا؟»

أجابت بيتي: «كلا.» ثم أضافت: «بالطبع، كنا أنا وآن نذهب ونعود من غرفة نوم عمتي عندما كانت مريضة، لكن غرفة تبديل ملابس كانت تفصل بين غرفة النوم والباب المؤدي إلى غرفتي، لذا لم نكُن لنفطن لذلك.»

قال هانو: «بالتأكيد. غرفة تبديل الملابس التي كان يمكن أن تقيم فيها المرضة، وقد أقامت فيها بالفعل عندما كانت السيدة تصاب بنوبة. هل تتذكرين إذا كان الباب الواصل بين الغرفتين لا يزال مفتوحًا أو غير مقفل في صباح اليوم التالي؟»

عقدت بيتي حاجبيها وفكرت، ثم هزت رأسها.

قالت: «لا أستطيع التذكر. كنا جميعًا في حالة اضطراب كبير. كان هناك الكثير لنفعله. لم ألاحظ.»

قال هانو: «لا. بالفعل، لماذا قد تلاحظين؟» ثم التفت إلى آن. «قبل أن تستمرِّي في هذه القصة الغريبة، يا آنسة، أخبريني! هل كان الضوء خلف الباب المفتوح، ضوءًا في غرفة تبديل الملابس أم في الغرفة التي تليها، أي غرفة نوم السيدة هارلو، أم أنكِ لم تلاحظي؟»

أجابت آن بثقة: «في الغرفة البعيدة كما أعتقد. لو كان الضوء في غرفة تبديل الملابس، لكانت غرفة الكنوز أكثر إضاءة. غرفة الكنوز طويلة بلا شك، لكن حيث كنت واقفة، كنت في ظلام تام. كان هناك فقط هذا الشريط من الضوء الأصفر في المدخل المفتوح. كان يمتدُّ باستقامة عَبْر السجادة، وأضاء المحفَّة المقابلة للمدخل حتى صارت كلها تلمع مثل الفضة.»

قال هانو بمرح: «أوه، هناك كرسي محمول في غرفة التحف تلك؟ سيكون من المثير رؤيته. إذَن يا آنسة، كان الضوء قادمًا من الغرفة البعيدة؟»

فقالت آن بصوت يرتجف: «الضوء و... والأصوات.»

هتف هانو: «أصوات!» وجلس باستقامة في كرسيه، بينما أصبحت بيتي هارلو بيضاء كالشبح. «أصوات! ما هذه الأصوات؟ هل تعرفتِ عليها؟»

«كان أحدها هو صوت سيدتي. ما كنت لأخطئه. كان عاليًا وعنيفًا للحظة. ثم تحول إلى همهمة أنين. أما الصوت الآخر فتحدث مرة واحدة بكلمات قليلة وواضحة. لكنه فعل ذلك همسًا. وكان هناك أيضًا صوت ... حركات.»

قال هانو بحدة: «حركات!» وبدا وجهه يزداد حدة أيضًا. «هذه كلمة لا تساعدنا كثيرًا. للحركات أنواع كثيرة، فالمواكب تتحرك. والكرسي يتحرك إذا دفعتُه. ويدي تتحرك إذا غطيت فمًا وأوقفت صرخة. هل هذا هو نوع الحركات الذي تقصدين يا آنسة؟»

بدأت آن أبكوت تضعف فجأة تحت وطأة أسئلته القاسية.

وقالت بهتاف مرتفع: «أوه، نعم للأسف» وغطت وجهها بيديها. «لم أفهم حتى هذا الصباح عندما تحدثت عن كيفية استخدام السهم. أوه، لن أسامح نفسي أبدًا. وقفت في الظلام، على بعد أمتار قليلة — ليس أكثر — وقفت ساكنة تمامًا وأصغيت، وكانت سيدتي تُقتل خلف المدخل المضيء!» ثم كشفت وجهها وبدأت تضرب ركبتيها بقبضتيها وهي في حالة من الهياج.

«صرخت سيدتي «نعم، أصدق ذلك الآن!» بصوتها الأجش الذي نعرفه. «صرت الآن مكشوفة، ها؟ مكشوفة تمامًا!» ثم ضحكت بشكل هستيري؛ ثم جاء الصوت، كما لو كان

... نعم، ربما كان ذلك! ... وكأنها كانت تُكبَّل وتُقيَّد، تحوَّل صوت سيدتي إلى همهمة ثم إلى صمت مطبق ... ثم جاء الصوت الآخر يهمس بوضوح: «هذا سيفي بالغرض.» وطوال الوقت كنت واقفة في الظلام ... أواه!»

سأل هانو بنبرة آمرة: «ماذا فعلتِ بعد أن وصل هذا الهمس الواضح إلى أذنيكِ؟ أزيلي يديكِ عن وجهكِ، من فضلكِ، ودعيني أسمعك.»

أطاعت آن أمره. فألقت برأسها إلى الخلف والدموع تنساب على وجهها.

وهمست: «استدرت. خرجت من الغرفة. أغلقت الباب خلفي ... برفق شديد. وهربت.»

قال هانو: «هربتِ؟ هربتِ؟ إلى أين؟»

«الطابق العلوي! إلى غرفتي.»

قال هانو: «ولم تدقي جرسًا؟ لم توقظي أحدًا؟ هربتِ إلى غرفتكِ! خبأتِ رأسكِ تحت الأغطية مثل طفل! هيا، أخبريني يا آنسة!»

كفَّ هانو عن سخريته اللاذعة ليسألها:

«مَن تظنين كان صاحب الصوت الذي همس بوضوح: «هذا سيفي بالغرض»؟ هل تعتقدين أنه صوت الغريب الذي ذكرتِه في المكتبة هذا الصباح؟»

أجابت آن: «كلا يا سيدي. لم أستطِع التمييز. فكل الأصوات حين الهمس تكون متشابهة.»

قال هانو: «لكنكِ بالتأكيد عرفت لذلك الصوت صاحبًا. وأن تهربي وتختبئي ... لا أحد يفعل ذلك.»

قالت آن: «ظننت أنه صوت جين بودان.»

عاد هانو للاسترخاء في مقعده، ناظرًا إلى الفتاة بنظرةٍ تجمع بين الرعب والريبة على حدٍّ سواء. بينما وقف جيم فروبيشر خلفه، يعتريه شعورٌ بالخزي من جنسيته. هل يمكن أن تكون هناك خديعة أكثر وضوحًا؟ إذا كانت تعتقد أن المرضة جين بودان كانت في غرفة النوم، فلماذا استدارت وهربت؟

قال هانو: «بحقك يا آنسة.» وقد أصبح صوته فجأة لطيفًا، يكاد يكون متوسلًا. «لا تطلبي مني أن أصدق ذلك.»

فالتفتت آن أبكوت بإيماءة بائسة نحو بيتي.

وقالت: «أرأيتِ!»

أجابت بيتي: «نعم.» ثم جلست مرتابة لثانية أو نحو ذلك قبل أن تهب واقفة على قدميها.

وقالت: «انتظروا!» وقبل أن يتمكَّن أي شخص من إيقافها، كانت تجري بسرعة إلى المنزل. وتساءل جيم فروبيشر إذا كان هانو قد قصد إيقافها، ثم تخلى عن الفكرة باعتبارها مستحيلة. بالتأكيد، كان قد صدر عنه حركة صغيرة سريعة؛ وحتى الآن، كان يتابع هروب بيتي وسط العشب الفسيح وبين الورود بنظرة غامضة وغريبة.

وقال لفروبيشر: «أن تركض هكذا! برشاقة الصبية وطلاوة الفتيات! هذا جميل، أليس كذلك؟ يا لرشاقة ساقَيها الطويلتَين النحيلتَين، ويا لخفة جسدها!» وركضت بيتي صعودًا على الدرج الحجري ودخلت إلى المنزل.

كان ثمة توتر في سلوك هانو لا ينسجم مع كلماته المرحة، وكان يحدِّق في نوافذ المنزل الخالية بترقُّب. لكن بيتي لم تستغرق أكثر من دقيقة في مهمتها. فقد عادت إلى الدرج وفي يدها مظروف كبير وعاودت الانضمام سريعًا إلى المجموعة.

وقالت بندم لكن من دون مرارة: «يا سيدي، حاولنا إخفاء هذا عنك. حاولت أنا بالأمس، وحاولت آن اليوم، كما حاولنا لسنوات عديدة إخفاءه عن كل ديجون. لكن لا مفرَّ من ذلك الآن.»

ثم فتحت المظروف وأخرجت صورة فوتوغرافية وسلمتها إلى هانو.

قالت: «هذه صورة للسيدة عمتي، في وقت زواجها من عمي.»

كانت الصورة بطول ثلاثة أرباع وتظهر امرأة نحيلة بوقفة مستقيمة تدلُّ على الشباب، وفي وجهها حلَّت ملامح شخصيتها الفردية محلَّ جمال الشباب. كانت المعاناة قد أضفت على وجهها بُعدًا روحانيًّا، فيما بدَت عيناها حزينتين تُظلِّلُهما الهالات السوداء، وفمها رقيقًا، ويوحي حتى من خلال هذه الصورة الجامدة بشيء من حس الدعابة. وبالنسبة لجيم فروبيشر الذي كان ينظر من فوق كتف هانو، فلم يهتف قائلًا: «كانت جميلة»، ولكنه قال: «كنت أودُّ التعرُّف عليها.»

قال هانو: «نعم! هي ودودة.»

أخرجت بيتي صورة ثانية من المظروف.

وقالت: «لكن هذه، يا سيدي، هي السيدة نفسها قبل عام.»

كانت الصورة الثانية قد التُقطت في مونت كارلو، وكان من الصعب تصديق أنها لنفس المرأة، فقد حدث تغيير مأساوي خلال تلك السنوات العشر. أمسك هانو بالصورتين جنبًا إلى جنب. كانت الرشاقة وحس الدعابة قد اختفيا تمامًا؛ أصبحت هيئة جسدها عريضة، وملامحها غليظة وضخمة؛ وقد صار خداها ممتلئين، وشفتاها متدليتين؛ ولم يكُن هناك في عينَيها سوى العنف. كانت صورة مروعة تجسد التدهور.

قال هانو بلطف: «من الأفضل أن نكون دقيقين، يا آنسة، على الرغم من أن هذه الصور تحكي قصتها المؤلمة بوضوح كافٍ. هل كانت السيدة هارلو تعاقر الشراب خلال السنوات الأخيرة من حياتها؟»

قالت بيتي موضحة: «منذ وفاة عمي. حياتها، كما تعرف على الأرجح، كانت بائسة ووحيدة قبل أن تتزوجه. لكن حينها كان لديها حلم تعيش عليه. لكن بعد وفاة سايمون هارلو ...» وأنهت شرحها بإيماءة.

قال هانو: «نعم، بالطبع يا آنسة، كنا نعلم أنا والسيد فروبيشر منذ أن دخلنا في هذه القضية أن هناك سرًّا. كنا نعرفه قبل تحفظكِ بالأمس أو تحفظ الآنسة أبكوت اليوم. لا شك أن وابرسكي كان على علمٍ بأمرٍ ما لم ترغبي في إفشائه، وذلك قبل أن يهدِّد محاميكِ في لندن، أو يوجه إليكِ اتهاماته.

أجابت بيتي: «نعم، كان يعرف، والأطباء والخدم بالطبع الذين كانوا مخلصين للغاية. فعلنا ما بوسعنا لإخفاء سرنا، لكننا لم نكُن متأكدين أبدًا من أننا نجحنا.»

تهلَّل وجه هانو بابتسامة ودية.

ثم قال: «في الواقع، يمكننا التأكد من ذلك، الآن وهنا» فحدَّق فيه جيم والفتاتان.

وهتفوا بارتياب: «كيف؟»

ابتسم هانو ابتسامة عريضة. وأبقاهم في حالة من التشويق. ثم مدَّ يدَيه. لقد اعتَرَتْه شخصية الفنان، كما كان ليقول — أو الدجال، كما كان جيم فروبيشر ليصفه — وكان يستعد لترك انطباع.

قال هانو: «بالإجابة عن سؤال بسيط واحد. هل تلقَّتْ أيٌّ منكما أيها السيدتان رسالة مجهولة تتحدَّث عن هذا الموضوع؟»

أخذهم الاختبار على حين غِرَّة؛ ومع ذلك، أدرك كلٌّ منهم على الفور أنه لا يمكن أن يكون هناك اختبار أفضل. لقد استغلَّ هذا الشخص المجهول أو تلك المجموعة المجهولة كل أسرار البلدة في وقت أو آخَر؛ كل الأسرار، باستثناء سر تدهوُر السيدة هارلو. فأجابت بيتي:

«لا! لم أتلقَّ رسالة قط.»

وأضافت آن: «ولا أنا.»

قال هانو: «إذَن سركما لا يزال سرًّا.»

سألت بيتي بسرعة: «إلى متى؟» ولم يُجِب هانو بكلمة. لم يَستطِع أن يقطع وعدًا بأي شيء دون أن يكون مخالفًا لما أسماه عقيدته.

قالت بيتي بحزن: «هذا مؤسف. لقد كافحنا طويلًا، أنا وآن.» وقدمت للرجلين لمحة عن الحياة التي عاشتها الفتاتان في منزل كرينيل. «لم نستطِع فعل الكثير. لم يكُن لأيٍّ منا أي سلطة. كنا نعتمد كلتانا على كرم السيدة، ورغم أن أحدًا لم يكُن أكثر لطفًا منها عندما ... عندما كانت على طبيعتها، فإنها لم تكُن سهلة المراس عندما كانت تصاب ... بنوباتها. كان الفرق في العمر بيننا وبينها كبيرًا جدًّا؛ بحيث لم نستطِع فعل أي شيء سوى البقاء متيقظين.»

لم تكُن تتحمَّل التدخل؛ كانت تشرب بمفردها في غرفة نومها؛ وكانت تصبح عنيفة وتطلق التهديدات إذا ما تدخل أي شخص. كانت لتطرد الجميع إلى الشارع. وإذا احتاجت أي مساعدة، كانت تدق الجرس لاستدعاء الممرضة، كما كانت تفعل أحيانًا، وإنْ كان نادرًا.» بحسب وصف بيتي هارلو، كانت حياة مرهقة ومروعة لهاتين الحارستين الشابتين.

كنا في حالة يأس تام. لأن السيدة بالطبع كانت مريضة مرضًا عضالًا بقلبها، وكنا دائمًا نخشى أن تحدث مأساة ما. بدَت لنا تلك الرسالة، التي كانت آن تعتزم كتابتها إبَّان وجودك في حفل السيد دي بوياك، الفرصة الوحيدة المتاحة. كانت موجهة إلى طبيب في إنجلترا — كان يدعي أنه طبيب على أي حال — وكان يعلن أن لديه علاجًا مُعيَّنًا يمكن إعطاؤه دون علم المريضة في طعامها وشرابها. أوه، لم أكُن أُومِنُ بذلك، لكن كان علينا أن نجرِّبه.»

نظر هانو إلى فروبيشر بانتصار.

وقال: «ماذا قلتُ لك يا سيد فروبيشر عندما أردت أن تسأل سؤالًا عن هذه الرسالة؟ أرأيت! إن هذه الأمور تتكشَّف في وقتها المناسب إذا تركتها وشأنها.»

اختفت نبرة الانتصار من صوته. ثم نهض من كرسيه، وبعد أن انحنى لبيتي بوقار واحترام صادقين، سلمها الصور مرة أخرى.

وقال: «أنا في غاية الأسف يا آنسة. من الواضح أنكِ وصديقتكِ عشتما في ظل صعوبات لم نكُن نتوقعها. وبالنسبة للسر، سأفعل ما بوسعي.»

سامحه جيم تمامًا على التوبيخ الذي وجهه له بسبب أسلوبه الرائع مع بيتي. كان لديه أمل حتى أن هانو سيتخلى الآن عن عقيدته، لكي يظل السر محفوظًا، وتحصل الحارستان الشابتان على مكافأتهما لحراستهما اللصيقة. لكن هانو جلس مرة أخرى في كرسيه، والتفت نحو آن أبكوت. كان ينوي المُضِيَّ قدمًا في استجوابه. لن يدع الأمر

على ما هو عليه. وكانت خيبة أمل جيم أكبر، لأنه لم يسعه إلا أن يدرك أن القضية — هذه القضية ضد شخص ما — كانت تتبلور أكثر فأكثر من شيء غير ملموس إلى شيء ملموس، ومن فرضية إلى حجة.

الفصل العاشر

الساعة أعلى الخزانة

أصبحت قصة آن أبكوت، في ضوء هذا الكشف الجديد، أكثر قبولًا وفهمًا. فبينما كانت واقفة في الظلام، ظنت أنها سمعت السيدة هارلو في إحدى نوباتها العنيفة. ثم شعرت بالراحة عندما فهمت أن جين بودان المرضة كانت مع السيدة هارلو، تسيطر عليها وتكبحها وتعطيها في الأخير مهدئًا. كانت آن قد سمعت الصراخ يخفت ويتوقف، ثم سمعت همسة أخيرة من المرضة لمريضتها أو ربما لنفسها: «هذا سيفي بالغرض.» بعدها استدارت وهربت، مع الحرص على عدم جذب الانتباه إليها. لم يكُن هروبها جبنًا حقيقيًّا. كانت الأزمة قد انتهت. وتدخلها، الذي لو حدث قبل ذلك لكان مجرد استفزاز لنوبة أكثر عنفًا من جانب السيدة هارلو، أصبح الآن دون أي مبرر. كان سيثير المريضة مرة أخرى، وسيضيف إلى الإزعاج والإحراج في الحياة في منزل كرينيل في يومهم التالي. ذلك لأن السيدة هارلو كانت ستعرف عندما تعود لوعيها أن آن كانت شاهدًا على عرض آخر من عروضها المروعة. لقد فعلت آن أفضل شيء يمكن أن تفعله، بافتراض أن تفسيرها للمشهد كان صحيحًا. وهو أنها ركضت بهدوء في الظلام عائدة إلى غرفتها.

قال هانو: «نعم. لكنكِ تعتقدين الآن أن تفسيركِ لم يكُن صحيحًا. تعتقدين الآن أنكِ بينما كنتِ واقفة في الظلام والباب مفتوح والضوء يلمع من خلفه، كانت السيدة هارلو تُقتل، تُقتل ببرود وقسوة على بُعد أقدام قليلة منكِ.»

ارتجفت آن أبكوت من رأسها إلى أخمص قدمَيها.

وصاحت: «لا أريد أن أصدق ذلك. إنه أمر مروع للغاية.»

فواصل هانو: «أنتِ تعتقدين الآن أن الشخص الذي همس «هذا من شأنه أن يفي بالغرض» لم يكُن جين بودان، بل شخص مجهول، وأن الهمسة كانت بعد أن قُتِل شخص ثالث في تلك الغرفة.»

تململت آن في جلستها؛ وضغطت على يديها.

قالت وهي تئن: «أخشى هذا!»

«وما يعذبكِ الآن يا آنسة هو الندم على أنكِ لم تتقدَّمي بخطوات هادئة إلى الأمام وتنظري من ظلام غرفة الكنوز عبر ذلك المدخل المضيء.» تحدث هانو بتعاطف كبير، وكانت فطنته إلى محنتها بمثابة عزاء لها.

هتفت آن بحماس: «نعم. أخبرتك هذا الصباح أنني كنت أستطيع منع ذلك. لم أفهم حتى هذا الصباح. كما ترى، حدث شيء آخَر في تلك الليلة»؛ والآن كان الخوف الشديد يزيد وجهها شحوبًا ويبرق في عينَيها.

تساءلت بيتي «شيء آخر؟» وهي تشهق شهيقًا سريعًا، ثم حركت كرسيها قليلًا حتى يتيسر لها الجلوس بمواجهة آن. كانت ترتدي معطفًا أسود فوق قميص حريري أبيض مفتوح عند العنق، وأخرجت منديلها من جيب المعطف ومسحت به جبينها.

شرح هانو: «نعم، يا آنسة. من الواضح أن شيئًا آخَر حدث لصديقتكِ في تلك الليلة، شيء إلى جانب حديثنا هذا الصباح عن كتاب السهام جعلها تعتقد أن جريمة قتل قد ارتُكبت.» ثم نظر إلى آن. «ذهبتِ بعد ذلك إلى غرفتكِ؟»

استأنفت آن قصتها.

فقالت: «ذهبتُ إلى الفراش. كما اعتقدت، كنت أشعر — ماذا أقول؟ — باضطراب شديد بسبب نوبة السيدة. لم يكُن أحدٌ ليعرف ما يمكن أن يحدث في هذا المنزل. كان الأمر يؤثر على أعصابي. رحت أتقلب في فراشي من جانب إلى آخَر فترة من الوقت. كنت في حالة انفعال شديد. ثم فجأة غلبني نوم عميق. لكن فقط لوقت قصير. فقد استيقظت وكان الظلام لا يزال دامسًا في غرفتي. ولم يكُن هناك أي خيط من الضوء يتسلَّل خلال الستائر. فتقلَّبتُ من النوم على جنبي إلى النوم على ظهري وبسطت ذراعي فوق رأسي. لمست بيدي وجهًا، أو الله يعلم ماذا ...» كان رعب تلك اللحظة واضحًا وقويًّا حتى بعد مرور كل هذه الأيام، لدرجة أنها ارتجفت وأطلقت شهقة صغيرة. «كان ثَم وجه قريب جدًّا مني، ينحني فوقي في صمت. فسحبت يدي بسرعة وأنا ألهث. كان قلبي منقبضًا بشدة. فبقيت لبضع ثوانٍ صامتة ومشلولة. ثم عاد صوتي إليَّ، فصرخت.»

ربما كان مظهر الفتاة وهي تروي قصتها أبلغ تأثيرًا من الكلمات التي استخدمتها؛ لكن شيئًا من الرعب الذي انتابها سرى كالعدوى بين مستمعيها. فاهتزَّت أكتاف جيم

فروبيشر باضطراب. أما بيتي فكانت تحدِّق بعينين واسعتين وأنفاسها محبوسة، تصغي إلى سرد آن وتترقبه. حتى هانو نفسه قال:

«صرختِ؟ لا عجب في ذلك.»

وتابعت آن: «كنت أعلم أن لا أحد سيسمعني، وأنني عاجزة وأنا مستلقية. فقفزتُ من الفراش في حالة ذعر، وحينها لم ألمس أحدًا. كنت مرعوبة لدرجة أنني فقدت كل إحساسي بالاتجاهات. لم أجد مفتاح المصباح، فصرت أتعثر وأنا أتحسَّس الجدار بحثًا عنه. سمعت نفسي أبكي كما لو كنت غريبة عني. أخيرًا، اصطدمت بخزانة ذات أدراج وعُدت إلى رشدي قليلًا. بعد ذلك وجدت طريقي إلى المفتاح وأنرت الضوء. كانت الغرفة فارغة. حاولت أن أخبر نفسي أنني كنت أحلم، لكنني كنت أعلم أن القصة غير صحيحة. كان هناك شخص ما ينحني خلسة قريبًا مني في الظلام، أوه، بل قريبًا جدًّا. بدت يدي التي لامست الوجه وكأنها خدرة. سألت نفسي وأنا أرتعش، ماذا كان سيحدث لي لو لم أكُن قد استيقظت في تلك اللحظة بالذات؟ وقفت وأصغيت، لكن الغرفة كلها ضجَّت بدقات قلبي. تسلَّلتُ إلى الباب وألصقتُ أذني بلوحه. حينها كنت لأصدق بسهولة أن جيشًا كاملًا يتسلَّل على أطراف أصابعه أمام بابي. أخيرًا، اتخذت قراري. ففتحت الباب على مصراعَيه. وقد تراجعت عنه للحظة، ولكن بمُجرَّد أن فُتح الباب، لم أسمع شيئًا. تسللت إلى قمة الدرج الكبير. كانت القاعة من تحتي صامتة كمعبدٍ خاوٍ. أعتقد أنني كنت لأسمع حتى ولو حركة عنكبوت. أدركت فجأةً أن الضوء كان يتدفَّق من غرفتي، وأن بعضه لا بد أنه يكشفني. صرخت على الفور: «مَن هناك؟» ثم ركضت عائدة إلى غرفتي وأغلقت الباب على نفسي. علمتُ أن لا مجال للنوم تلك الليلة، فسارعتُ إلى النوافذ وفتحتُ الستائر. كان الليل قد صفا، والنجوم تلمع في سماء سوداء خالية، وكان الجو يحمل نسمة صباحية مُنعشة. وكما أعتقد، قضيت حوالي خمس دقائق عند النافذة عندما دقت ساعات المدينة كلها مُعلنة أنها الثالثة، ربما تعرف، يا سيدي، كيف تدق ساعات ديجون وتتناقل الساعة بينها وتمررها إلى التلال. وقد ظللت عند النافذة حتى حل الصباح.»

بعد أن انتهت، لم يتحدَّث أحد لبعض الوقت. ثم أشعل هانو سيجارة أخرى بتأنٍّ، ينظر تارةً إلى الأرض، وتارة إلى الهواء، كان ينظر في أي مكان إلا وجوه رفاقه.

ثم سأل بجدية: «إذَن حدث هذا الشيء المروِّع قبل الساعة الثالثة صباحًا؟ أظن أنكِ متأكدة تمامًا من ذلك؟ كما ترين، قد يكون هذا الأمر في غاية الأهمية.»

قالت: «أنا متأكدة تمامًا، يا سيدي.»

قال: «ولم تخبري أحدًا بهذه القصة حتى هذه اللحظة؟»

أجابت آن: «لم أخبر أحدًا على الإطلاق. في صباح اليوم التالي، وُجدت السيدة هارلو ميتة. ثم كانت هناك ترتيبات الجنازة. بعدها جاء اتهام السيد بوريس. كانت هناك مشكلات كافية في المنزل دون أن أزيد عليها. بالإضافة إلى ذلك، لم يكُن أحد ليصدِّق قصتي عن الوجه في الظلام؛ وأنا بالطبع لم أربطها حينها بوفاة السيدة هارلو.»

قال هانو موافقًا: «لا. لأنكِ كنتِ تعتقدين أن الوفاة كانت طبيعية.»

قالت آن: «نعم، ولست متأكدة حتى الآن أنها لم تكُن طبيعية. لكن كان عليَّ أن أخبركِ بهذه القصة اليوم يا سيد هانو»؛ ثم انحنت إلى الأمام في كرسيها وجذبت انتباهه بعينَيها ووجهها وكل عضلة متوترة في جسدها. «لأنك إذا كنت محقًّا وكانت جريمة قتل قد ارتُكبت في هذا المنزل يوم السابع والعشرين، فأنا أعرف بالضبط الساعة التي حدثت فيها.»

قال هانو: «آه!»

وأومأ برأسه ببطء مرَّة أو نحو ذلك. ثم جمع قدمَيه تحته. كانت عيناه تلمعان ببريق شديد وهو ينظر إلى آن. فأعطى جيم انطباعًا غريبًا عنه كحيوان يتربَّص.

قال: «بالنسبة للساعة فوق الخزانة المطعَّمة، على الحائط في منتصف غرفة الكنوز. ماذا عن واجهتها البيضاء وصورة عقارب الساعة التي طاردتك في تلك اللحظة القصيرة عندما كانت أصابعكِ على المفتاح؟»

قالت آن بتأكيد هادئ ومتأنٍّ: «نعم. كانت الساعة العاشرة والنصف.»

مع هذا التصريح، خف التوتر. وانفتحت يد بيتي المشدودة، وسقط منديلها الصغير على العشب. وغيَّر هانو من وضعيته الغريبة كحيوان متربص. كما تنفَّس جيم فروبيشر الصعداء.

وقال هانو: «نعم، هذا مهم جدًّا.»

هتف جيم: «مهم! أعتقد أنه مهم فعلًا!»

هذا لأن المسألة كانت واضحة ومُؤكدة بالنسبة له. إذا ارتُكبت جريمة قتل ليلة السابع والعشرين من أبريل، فالشخص الوحيد من أفراد منزل كرينيل الذي لا يمكن أن يكون له يد فيها هو موكلتي، بيتي هارلو.

كانت بيتي منحنية لتلتقط منديلها عندما خاطبها هانو؛ حينها انتصبت مرَّة أخرى بهزة طفيفة.

سألها هانو: «هل تلك الساعة فوق الخزانة المطعَّمة تعمل بدقة، يا آنسة؟»

أجابته بيتي: «بدقة كبيرة. السيد سابين، صانع الساعات في شارع دي لا لبرتيه، نظَّفها أكثر من مرة. إنها ساعة تعمل لمدة ثمانية أيام. ستكون لا تزال تعمل عندما تُفضُّ الأختام هذا المساء. سترى بنفسك.»

لكن هانو سلَّم بتصريحها على الفور. ونهض من كرسيه وانحنى لها بشيء من الرسمية، لكن بابتسامة خفَّفت من ذلك.

وقال: «في الساعة العاشرة والنصف، كانت الآنسة هارلو ترقص في منزل السيد دي بوياك في شارع تيير. لا شك في ذلك. لقد أجرينا تحقيقاتنا. لم تغادر الآنسة ذلك المنزل إلا بعد الواحدة صباحًا. هناك أدلة كافية على ذلك لإقناع أسوأ أعدائها، من سائقها وشركائها في الرقص إلى حوذيِّ السيد دي بوياك، الذي كان واقفًا خلال ذلك المساء عند أسفل الدرج ممسكًا بفانوس ويتذكَّر أنه فتح باب سيارتها عندما غادرت.»

قال جيم لنفسه: «إذَن هذا هو الأمر.» لم يكُن لبيتي علاقة بالموضوع من قريب أو بعيد. ومع هذا اليقين، انطلقت ثورة في أفكاره. لماذا لا يستمر هانو في البحث؟ كان من المُمتِع مشاهدة تداعي هذه القضية ضد مجرم مجهول، هذه قضية عصيَّة على الحل في محكمة الجنايات؛ قضية تسمُّم لا يظهر فيها أي أثَر للسُّم، تبرز فيها الحقائق شيئًا فشيئًا من ركام التخمينات؛ تمامًا كما تظهر صواري السفن واحدًا تلو الآخَر وسط بحر مُضطرِب، كلما اقترب المرء من اليابسة. نعم، الآن كان جيم يريد أن يستمرَّ هانو في الغوص في أعماق القضية بفطنة، ويترك الأمور لتتكشف من تلقاء نفسها في تسلسلها الطبيعي، كما قال هو بنفسه. لكن كانت هناك نقطة واحدة فاتت هانو، والتي يجب لفت انتباهه إليها. سيأتي الفأر مرَّة أخرى لمساعدة الأسد المحاصر والعالِق في الشبكة، هكذا فكَّر بغرور زائف في تواضعه. ثم تنحنح جيم.

وشرع يقول: «آنسة آن، هناك سؤال صغير أودُّ أن أسألكِ إياه»؛ ففاجأه هانو بوجه غاضب.

وقال: «تريد أن تسأل سؤالًا؟ حسنًا، يا سيدي، اسأله كما ترغب. هذا حقك.»

وقد أضاف أسلوبه ما لم يذكره بصوته: «ومسئوليتك.» تردَّد جيم وتذبذب. لم يكُن يرى ضررًا في السؤال الذي ينوي طرحه. كان ذا أهمية بالغة. لكن هانو انتصب أمامه عابس الوجه، يتحدَّاه أن يصرعه. لم يساور جيم شكٌّ بعد الآن في أن هانو قد أدرك قصده، ومع ذلك، لسبب مجهول، كان يعارض كشفه. استسلم جيم، لكن دون رضا كامل.

فقال بفظاظة: «لا شيء»، وعاد هانو على الفور إلى مرحه.

وقال: «إذَن سنُؤجِّل الجلسة. إنها الساعة الواحدة تقريبًا. هل نلتقي في الثالثة مع مُفوِّض الشرطة؟ موافقون؟ إذَن سأخبره وسنلتقي في المكتبة في الثالثة ...» ثم مال قليلًا نحو بيتي، وقال: «وسيُرفع الحظر.»

قالت بيتي بابتهاج: «موعدنا الثالثة إذَن.» ثم هبت من كرسيها، وانحنت والتقطت منديلها بحركة سريعة ورشيقة، واستدارت على كعبها وهتفت: «تعالي يا آن!»

تحرك أربعتهم نحو المنزل. ونظرت بيتي إلى الخلف.

ثم قالت لهانو فجأة: «لقد نسيت قفازَيك على كرسيك.» فنظر هانو إلى الخلف.

وقال: «أوه، نعم» ثم قال بنبرة اعتراض: «أوه، آنسة!»

اندفعت بيتي عائدة، وها هي القفازات تتدلى الآن من يدها.

قال وهو يأخذها منها: «كيف أشكركِ، يا آنسة؟» ثم أدار رأسه نحو فروبيشر الذي بدا قاسيًا بعض الشيء.

وقال وهو يبتسم ابتسامة عريضة: «ها! ها! يا صديقي الشاب، لا يروق لك أن أُعامل بكل هذا اللطف. كلا! أنت تبدو في غاية الجدية. تبدو جامدًا ومُتزمِّتًا. لكن اسأل نفسك هذا السؤال: «ماذا يجدي الشباب والجمال مقارنة بهانو؟»»

لم يكُن هانو يروق لجيم فروبيشر على الإطلاق عندما يسيطر عليه الجانب اللعوب، كلا. والأسوأ من ذلك أنه لم يكن لديه أي رد. احمرَّ وجه جيم بشدة، لكنه لم يكن لديه أي رد. ساروا في صمت إلى المنزل، وما إن التقط هانو قبعته وعصاه حتى غادر، عابرًا الفناء والبوابات الكبيرة. وركنت آن إلى المكتبة. أما جيم فشعر بلمسة على ذراعه. كانت بيتي تقف بجانبه بابتسامة مرحة على وجهها.

سألته: «لم تمانع حقًّا أن أعود لأحضر قفازاته، أليس كذلك؟ قل إنك لم تمانع يا جيم!» ثم حولت نبرة المرح إلى حنو ونعومة. «لم أكُن لأفعل ذلك أبدًا لو اعتقدتُ أنك ستمانع.»

هنا تلاشى سوء مزاج جيم كضباب في صباح صيفي.

وهتف: «أمانع؟ يمكنكِ أن تضعي وردة في عروة سترته إذا أردتِ، وكل ما سأقوله هو: «اصنعي لي مثلما صنعتِ له»!»

ضحكت بيتي وضغطت على ذراعه بلطف.

وقالت: «إذَن عدنا أصدقاء مرة أخرى» وفي لحظة كانت على الدرج تحت الواجهة الزجاجية للشرفة. وصاحت: «الغداء في الساعة الثانية يا آن! يجب أن أتمشَّى لأصرف عن ذهني عناء هذا الصباح.»

كانت بيتي سريعة ومحيرة لجيم فروبيشر. وكانت تتمتَّع في تكوينها بشيء من الحوريات. إذ كانت قد اجتازت الفناء واختفت في شارع تشارلز روبرت قبل أن يدرك تمامًا أنها تغادر. التفت جيم بتردد نحو المكتبة، حيث كانت آن أبكوت تقف في المدخل.

قال وهو يمد يده إلى قبعته: «يجب أن ألحق بها.»

ابتسمت آن وهزت رأسها بحزم.

وقالت: «أما أنا فلا. أعرف بيتي. إنها تريد أن تكون بمفردها.»

قال: «تعتقدين ذلك؟»

أجابت: «أنا متأكدة.»

عبث جيم بقبعته، غير متأكد تمامًا من ذلك مثلما كانت آن متأكدة. راقبته آن بابتسامة حزينة لبعض الوقت. ثم هزَّت كتفَيها في حدة مفاجئة.

وقالت: «ثَم شيء يجب أن تفعله. يجب أن تخبر السيد بيكس وهو كاتب العدل الخاص ببيتي هنا بأن الأختام ستُفض هذا المساء. يجب أن يكون هنا. كان هنا عندما وُضعت الأختام. يضاف إلى ذلك أنه بحوزته كل مفاتيح أدراج وخزائن السيدة هارلو.»

قال جيم: «هذا صحيح. سأذهب على الفور.»

أعطَته آن عنوان السيد بيكس في ساحة إتيان دوليه، ومن نافذة المكتبة شاهدته وهو يذهب في مهمته. وقد ظلَّت واقفة عند النافذة لفترة طويلة بعد أن اختفى.

الفصل الحادي عشر

مُشتبَه فيه جديد

ولج السيد بيكس، كاتب العدل، إلى صالة منزله فور أن أرسل إليه جيم فروبيشر بطاقته. كان رجلًا ضئيل البنية مُفعَم النشاط، تزين وجهه لحية مُدبَّبة أنيقة ويعلو رأسه شعر بالغ القصر، وقد دسَّ طرف منديله بخفة بين طيات طوق قميصه عند رقبته.

شرح له جيم أن الأختام ستُفَض عن غرف منزل كرينيل، لكنه لم يذكر شيئًا عن التطورات الجديدة التي بدأت باكتشاف كتاب السهام.

قال الرجل القصير: «لقد تلقيت رسائل من شركة السادة فروبيشر وهاسلت. كل شيء كان صحيحًا قدر الإمكان. أنا سعيد بلقاء شريك من شركة مرموقة كهذه. نعم. بالتأكيد سأحضر في الثالثة ولديَّ مفاتيحي وأشهد نهاية هذه الفضيحة البائسة. كانت وصمة عار. تلك الشابة اللطيفة والراقية! وذاك الحيوان وابرسكي! لكن يمكننا التعامل معه. لدينا قوانين في فرنسا.»

أوحى الرجل لجيم بأنه لا وجود للقوانين في أي مكان آخَر، ثم شَيَّع زائره إلى الشارع.

عاد جيم عَبْر شارع دي جودران والطريق الرئيسي للمدينة، شارع ليبرتي. وبينما كان يعبُر ساحة دارم التي تتخذ شكل نصف دائرة أمام فندق دي فيل، كاد يصطدم بهانو وهو يدخن سيجارًا.

قال: «أتناولت الغداء بعد؟»

قال هانو وهو يلوح بيده: «منذ نحو ربع ساعة. وأنت؟»

أجاب جيم: «ليس قبل الثانية. الآنسة هارلو أرادت أن تتمشى.»

ابتسم هانو.

وقال: «أفهم ذلك تمامًا! أول تمشية بعد محنة! أول تمشية لمريض يتعافى بعد عملية جراحية! أول تمشية لمتهم بُرِّئ من تهمة خطيرة! لا شك أن تمشية كهذه تستحق الجهد المبذول فيها. لكن واسِ نفسك يا صديقي أن غداءك سيتأجَّل. فقد قابلتني!» ثم اتخذ وضعًا دراميًّا بعض الشيء.

كان جيم الآن يعترض بشدة على أي شيء درامي، خاصة في الأماكن العامة، فأجاب ببرودة: «من دواعي سروري بالتأكيد.»

فابتسم هانو لذلك. بالنسبة له، جعل جيم يبدو «جادًّا» أصبح تسلية لا تفشل.

فقال: «الآن أكافئك» على الرغم من أن جيم لم يستطِع أن يتخيل سببًا لذلك. «ستأتي معي. في هذه الساعة، على قمة برج تراس فيليب لو بون العتيق، سنكون وحدنا تمامًا.»

ثم تقدَّمه إلى داخل الفناء الكبير لفندق دي فيل. خلف الجناح الطويل المواجه لهما، انتصب برج متين مربع الشكل بارتفاع ١٥٠ قدمًا. صعد هانو درجاته البالغ عددها ٣١٦ درجة، وفروبيشر في إثره، وخرج إلى السطح في جو امتزج فيه اللون الأزرق بالذهبي في يوم خالٍ من الغيوم من أيام شهر مايو في فرنسا. ولما ولَّوا وجههم نحو الشرق، انحبست أنفاس جيم لجمال المشهد. أمامهم مباشرة، تألقت قبة كاتدرائية نوتردام الرشيقة المزخرفة، مما أثار دهشته كيف صمدت عبر كل هذه القرون؛ وخلفها، انبسط السهل الأخضر الغني البديع، تتلألأ فيه جداوله، وتتراءى قراه الوادعة.

جلس هانو على مقعد حجري ومدَّ ذراعه فوق الحاجز. وهتف بحماس وفخر: «انظر! هذا ما جئت بك هنا لتراه. انظر!»

نظر جيم وتبيَّن، فأشرق وجهه لِما رأى. في الأفق البعيد، برزت قمة مون بلان الضخمة بجمال خارق؛ كانت بيضاء كالفضة، وناعمة كالحرير، وتتلألأ كالذهب، كما لو كانت شعلة نار تعلو وتغوص.

قال هانو وهو يراقب وجه جيم: «أوه! إذَن هذا شيء مشترك بيننا. هل وقفت على قمة ذلك الجبل؟»

أجاب جيم بابتسامة مليئة بالذكريات: «خمس مرات. آمل أن أفعل ذلك مرة أخرى.»

قال هانو ببعض الحسد: «أنت محظوظ. بالنسبة لي، أراه فقط من بعيد. لكن حتى على ذلك الحال، وحين أكون منزعجًا، يكون الأمر مثل الجلوس في صمت بصحبة صديق.»

زاغ ذهن جيم فروبيشر في ذكريات منحدرات الثلوج وحواف الصخور. كانت العبارة التي استخدمها هانو صحيحة. لقد عبرت عن واحدة من المشاعر العديدة التي يصعب

وصفها والتي تعنيها الجبال للأشخاص الذين يشتركون في «ذلك» — أي الشغف نحو الجبال. ثم نظر جيم إلى هانو بفضول.

وقال بتعاطُف: «إذَن أنت قلِق بشأن هذه القضية؟» كان المنظر القصيُّ الرائع لهذا القوس الفضي المخملي الفارع وسط الأجواء الزرقاء الصافية قد جعل من الرجلين للحظة أخوين.

أجاب هانو ببطء دون أن يحول عينَيه عن الأفق: «جدًّا، ولأسباب كثيرة. ما رأيك أنت فيها؟»

قال جيم بجفاف: «أعتقد، يا سيد هانو، أنك لا تحب أن يسأل أحد أي أسئلة إلا أنت.»

ضحك هانو تقديرًا لهذه الطعنة.

وقال: «نعم، كنت تريد أن تطرح سؤالًا على الآنسة أبكوت الجميلة. أخبرني إذا كنت قد خمنت بشكل صحيح السؤال الذي كنت تنوي طرحه! كان السؤال: هل الوجه الذي لمسته في الظلام كان وجهًا ناعمًا لامرأة أم وجه رجل؟»

قال جيم: «نعم. كان هذا هو السؤال.»

الآن كان دور هانو أن ينظر بفضول وبسرعة إلى جيم. لم يكُن هناك شك في الفكرة التي كانت تدور في ذهنه: «يجب أن أبدأ في منحك قدرًا خاصًّا من الاهتمام يا صديقي.» لكنه كان حريصًا على عدم التعبير عن أفكاره بالكلمات.

فقال: «لم أكُن أريد أن يُطرح ذلك السؤال.»

سأل جيم: «لماذا؟»

أجاب هانو: «لأنه كان غير ضروري، والأسئلة غير الضرورية أمور مربكة يُفضل تجنبها كليًّا.»

لم يصدق جيم كلمة واحدة من هذا التفسير. كانت لديه ذكرى واضحة للحركة السريعة والنظرة التي أوقفه بها هانو. كلاهما كانا علامات واضحة على القلق. لم يكُن هانو ليشعر بالقلق من احتمال طرح سؤال، فقط لأنه كان زائدًا عن الحاجة. كان ثمة سبب آخَر، وكان جيم متأكدًا، سبب قوي في ذهن هانو. فقط لم يستطِع جيم اكتشافه.

بالإضافة إلى ذلك، هل كان السؤال زائدًا عن الحاجة؟

أجاب هانو: «بالتأكيد. تخيَّل لو أن يد تلك الشابة لامست في الظلام وجه رجل ذي ذقن خشِنة، وبشرة قاسية، وشعر قصير يحيط برأسه، وهو مُنحنٍ بهذا القرب من

وجهها؛ ألن يكون ذلك أشد ما ترتاع منه في هذه الحادثة المروعة بأكملها؟ وبينما هي تمطُّ يدَيها بلا اكتراث فوق رأسها، تلمس وجه رجل فجأةً وبشكل غير مُتوقَّع؟ لم تكُن لتستطيع أن تحكي قصتها دون ذكر ذلك. لم تكُن لتنسَ هذه التفصيلة أبدًا، فهي السبب الرئيسي في ارتياعها. فقد لامست وجه رجل!»

أدرك جيم أن المنطق سليم، لكنه لم يقترب بعد من حل مشكلته؛ لماذا كان هانو يعترض بشدة على طرح السؤال. ثم أبدى هانو ملاحظة هادئة طردت الفكرة تمامًا من تأملات جيم لفترة طويلة.

فقال: «لامست الآنسة آن وجه امرأة في الظلام في تلك الليلة؛ إذا كان ذلك قد وقع على الإطلاق.»

كان جيم مصدومًا تمامًا.

وهتف: «هل تعتقد أنها كانت تكذب علينا؟»

هزَّ هانو يده في الهواء مُحتجًّا.

وقال: «لا أعتقد أي شيء. أنا أبحث عن مجرم.»

«آن أبكوت!» نطق جيم الاسم بدهشة. «آن أبكوت!» ثم تذكر مظهرها وهي تحكي قصتها، وجهها مُتشنِّج من الرعب، ونبرات صوتها المُرتعِشة. «أوه، من المستحيل أنها كانت تكذب. بالتأكيد لا أحد يستطيع أن يتظاهر بالخوف على هذا النحو؟»

ضحك هانو.

وقال: «أصدُقُك القول يا صديقي، كل عتاة الإجرام مُمثِّلات بارعات، لم أرَ منهن غير ذلك.»

قال جيم مرة أخرى: «آن أبكوت!» لكن الآن بدهشة أقل قليلًا. كان يعتاد ببطء وتدريجيًّا على الفكرة. لكن ... تلك الفتاة التي تشعُّ بريعان الشباب! أوه، لا!

وعاود يقول: «لم يُخصَّص لآن أبكوت أي شيء في وصية السيدة هارلو. فما الذي يمكن أن تكسبه من قتلها؟»

قال هانو: «تمهل يا صديقي! انظر بعناية إلى قصتها! حللها. سترى ... ماذا ترى؟ أنها تنقسم إلى جزأين.» ثم أطفأ هانو عقب سيجارته تحت كعبه، وقدم واحدة من سجائره السوداء لجيم فروبيشر وأشعل واحدة لنفسه. أشعلها بعود كبريت ظل جيم يعتقد أنه لن يتوقف عن الأزيز، ولن يشتعل أبدًا.

قال: «الجزء الأول عندما كانت وحدها في غرفة نومها ... قصة صغيرة مُرعِبة وقد مثَّلتها بشكل فعَّال، لكن في النهاية، يمكن لأي شخص اختراعها. أما الجزء الثاني فلم

يكن من السهل اختراعه. الباب الواصل بين الغرفتين مفتوح بدون سبب، والضوء من خلفه، والصوت الذي همس: «هذا سيفي بالغرض»، وصوت الصراع! كلا يا صديقي، لا أعتقد أن ذلك كان مُختلقًا. كانت التفاصيل الدقيقة كثيرة، وبدَت وكأنها عاشتها حقًّا. واجهة الساعة البيضاء، ورؤيتها المفاجئة للتوقيت حينها. كلا! أعتقد أن كل ذلك يجب أن يكون مقبولًا وقائمًا. لكن عدِّل فيه قليلًا. انظر! هذا الصباح أخبرنا وابرسكي قصة عن شارع جامبيتا وعن جان كلاديل!»

قال جيم: «نعم.»

قال هانو: «وسألتك بعد ذلك إذا كان وابرسكي سيحكي قصة حقيقية حدثت معه وينسبها إلى الآنسة هارلو؟»

قال جيم: «نعم.»

قال هانو: «حسنًا، فسِّر قصة آن أبكوت بالطريقة نفسها. هبَّ أنها في وقتٍ ما خلال ذلك اليوم قد فتحت قفل الباب الواصل! ما أسهل ذلك؟ كانت السيدة هارلو مستيقظة خلال النهار. غرفتها كانت فارغة. وهذا الباب الواصل لم يكن يفتح على غرفة نوم السيدة؛ إذ ربما كان يمكن اكتشاف ما إذا كان مُقفَلًا أم لا، بل يفتح على غرفة تبديل الملابس.»

قال جيم: «نعم.»

قال هانو: «حسنًا، إذَن استمر! تُترك آن أبكوت وحدها بعد مغادرة الآنسة هارلو إلى حفل السيد دي بوياك. تُرسِل جاستون إلى الفراش. المنزل كله مظلم ونائم. افترض الآن أن — شخصًا مجهولًا — انضمَّ إليها، شخصًا لديه سم السهم جاهز في إبرة تُعطى تحت الجلد. يدخلون غرفة الكنوز تمامًا كما وصفت آن أبكوت. تشعل الضوء لثانية بينما — ذلك المجهول — يجتاز غرفة الكنوز ويفتح الباب. وافترض أن الصوت الذي همس: «هذا سيفي بالغرض» كان صوت آن أبكوت نفسها وأنها همسَتْ به فوق جسد السيدة هارلو إلى الشخص الثالث في تلك الغرفة!»

هتف جيم: «ذلك المجهول. ولكن مَن يكون إذَن؟ مَن يكون؟»

هزَّ هانو كتفَيه. وقال: «لماذا لا يكون وابرسكي؟»

هتف جيم بحماس جديد: «وابرسكي؟»

«لقد سألتني ما الذي يمكن أن تكسبه آن أبكوت من جريمة القتل هذه وأجبتَ أنت بنفسك عن سؤالك. قلتَ: لا شيء، يا سيد فروبيشر، ولكن هل كانت إجابتك السريعة

كافية؟ وابرسكي ... على الأقل، كان يتوقَّع إرثًا ثمينًا وسخيًّا. ماذا لو اقترح، مقابل المساعدة، أن يتقاسم هذا الإرث مع الآنسة آن الرائعة؟ أليس لديها دافع الآن؟ في النهاية، ما الذي نعرفه عنها على الإطلاق سوى أنها مرافقة مأجورة، وبالتالي فهي فقيرة؟ الآنسة آن!» وهزَّ يدَيه في الهواء. «من أين أتت؟ كيف دخلت ذلك المنزل؟ ربما كانت صديقة وابرسكي؟» وهنا توقف هانو بفعل هتاف أطلقه جيم.

كان جيم قد فكر في وابرسكي كقاتل مُحتمَل إذا كانت جريمة القتل قد وقعت بالفعل؛ قاتل خاب أمله بسبب عدم حصوله على الإرث، فواصل جرمه بالابتزاز والاتهام الكاذب. لكن لم يخطر له أن يربط آن أبكوت به حتى تلك اللحظات في برج تيراس. ومع ذلك، بدأت الذكريات تزدحم في ذهنه الآن. على سبيل المثال، الرسالة التي كتبتها له. كانت قد ذكرت أن وابرسكي طلب دعمها وسخرت من طلبه. هل يمكن أن تكون تلك الرسالة مجرَّد غطاء بارع؟ وفوق كل ذلك، كان هناك مشهد يمرُّ بوضوح في ذهنه يختلف تمامًا عن المشهد الذي كان أمام عينَيه الآن، مشهد غرف مُضاءَة وحشد من الناس حول طاولة خضراء طويلة، وفتاة نحيفة جالسة عند الطاولة خسرت مرارًا وتكرارًا حتى اكتسح الموزِّع بذراع مسح الطاولة كومة الأوراق النقدية الصغيرة التي تملكها، ثم استدارت مبتعدة بتأنٍّ ولكن بشفاه مرتجفة.

قال هانو بحدة: «آه! أنت تعرف شيئًا عن آن أبكوت يا صديقي. ما الذي تعرفه؟»

تردد جيم. في البداية شعر أنه ليس من المنصف بحقها أن يروي قصته. فقد تكون هناك تفسيرات تجعل الموقف يبدو مختلفًا تمامًا. بعد ذلك، رأى أنه من الإنصاف أن يمنحها فرصة الشرح بنفسها. وكان عليه أن يأخذ بيتي بعين الاعتبار. نعم، كان عليه أن يأخذ بيتي بعين الاعتبار قبل كل شيء. فقد كان في ديجون من أجلها.

فقال لهانو: «سأخبرك. عندما رأيتك في باريس، قلت لك إنني لم أرَ آن أبكوت في حياتي. وكنت أعتقد ذلك فعلًا. ولم أدرك أنني ضلَّلتك إلا عندما دخلت المكتبة صباح الأمس. لقد رأيت آن أبكوت عند طاولة لعبة «الأحمر والأسود» في نادي سبورتينج في مونت كارلو في يناير من هذا العام. جلستُ بجانبها. وكانت بمفردها تمامًا وتخسر أموالها. لم يكُن هناك شيء يسير لصالحها. لكنها كانت تتحمَّل الموقف بإباء وجلد. كانت العلامة الوحيدة التي رأيتها وتدلُّ على كربها هي قبض أصابعها حول حقيبتها الصغيرة، ونظرة تحدٍّ سددتها للاعبين الآخرين عندما وقفت بعد محاولتها الأخيرة، وكأنها تتحداهم أن يشفقوا عليها. أما أنا، فقد كنت أربح، فأسقطتُ خلسة ورقة نقدية بقيمة ١٠٠٠ فرنك

من فوق الطاولة إلى الأرض، وثبَّتُّ قدمي عليها كما تعلم. وعندما استدارت الفتاة للخروج من وسط الحشد، أوقفتها. وقلت لها بالإنجليزية؛ إذ كان من الواضح أنها من جنسيتي، «هذه لك. لقد أسقطتِها على الأرض». فابتسمت لي وهزَّت رأسها قليلًا. أعتقد أنها للحظة لم تجرؤ على أن تثق بشفتَيها فتتكلَّم، وبالطبع كان الحشد قد ابتلعها في ثانية. واصلت اللعب لبعض الوقت. ثم وقفتُ أنا أيضًا، وعندما مررتُ بمدخل الحانة في طريقي لأخذ معطفي، نهضت تلك الفتاة من إحدى الطاولات الصغيرة العديدة وتحدثت إليَّ. نادتني باسمي. شكرتني بلطف شديد وقالت إنها لم تكُن في مأزق حقيقي بالرغم من خسارتها في تلك الليلة. شككت في صدق ما قالته. فلم تكُن ترتدي ولو خاتمًا واحدًا في أيٍّ إصبع من أصابعها، ولا قلادة صغيرة حول عنقها، ولا حلية واحدة على فستانها أو في شعرها. ثم استدارت بعيدًا عني على الفور وعادت إلى الطاولة الصغيرة حيث عاودت الجلوس مع رجل. كانت الفتاة بالطبع هي آن أبكوت، وكان الرجل هو وابرسكي. ولا شك أنها حصلت منه على اسمي.»

سأل هانو: «هل وقعت هذه الحادثة الصغيرة قبل أن تصبح آن أبكوت عضوًا في العائلة؟»

أجاب جيم: «نعم. أعتقد أنها انضمَّت إلى السيدة هارلو وبيتي في مونت كارلو. وأعتقد أنها عادت معهم إلى ديجون.»

قال هانو: «بلا شك.» ثم جلس صامتًا لفترة. بعدها قال بلطف: «لا يبدو هذا مبشِّرًا بحق الآنسة آن.»

كان على جيم أن يعترف بأن الأمر كذلك.

لكنه قال: «لكن فكر في الآتي يا سيد هانو. إذا كانت آن أبكوت متورطة في هذه القضية، وهو ما لا أصدقه، لماذا قد تروي بمحض إرادتها قصة ما سمعته في ليلة السابع والعشرين وتخترع ذلك الوجه الذي مال فوقها في الظلام؟»

أجاب هانو: «لديَّ فكرة عن ذلك. متى أخبرتنا بهذه القصة؟ بعد أن قلتُ إنه يجب أن نفض الأختام هذا المساء ونفتح الغرف. من الممكن أن نعثر على شيء في تلك الغرف يجعل من الحكمة أن تتشكَّك في امرأة أخرى في المنزل. جين بودان، أو حتى خادمة الآنسة هارلو، فرانسين رولار.»

قال جيم بسرعة: «لكن ليس الآنسة بيتي.»

ردَّ هانو بهزة من يده: «لا، لا! الساعة فوق الخزانة المطعَّمة حسمت ذلك. الآنسة بيتي خارج المسألة. حسنًا، سنرى ما في الأمر هذا المساء. في هذه الأثناء يا صديقي، ستتأخر على غدائك.»

ثم نهض هانو من المقعد، وبعد نظرة أخيرة ألقاها على الجبل الساحر، ذلك الحصن الفرنسي، اتجهوا نحو المدينة.

نظر جيم فروبيشر إلى الساحات الصغيرة جدًّا والمُخضرَّة بأشجار الليمون، وإلى الأسطح المنحدرة للمنازل القديمة والملونة بأنماط بهيجة. من حوله كانت القمم المستدقة الأنيقة ترتفع عاليًا مثل الرماح من أسقف الكنائس العديدة. وباتجاه الجنوب قليلًا وعلى بُعد ربع ميل خلف أسطح المنازل، رأى نتوءًا طويلًا لمنزل كبير والدخان يتصاعد من مدخنة أو اثنتين، ومن خلفها قمم الأشجار الطويلة التي كانت تتمايل وتنفض أشعة الشمس من أوراقها.

فقال: «منزل كرينيل!»

لم يأتِه أي رد، ولا حتى أدنى حركة بجانبه.

فسأل: «صحيح؟» ثم التفت.

لم يكُن هانو قد سمعه حتى. كان يحدِّق أيضًا نحو منزل كرينيل بنظرة غريبة على وجهه؛ نظرة كان جيم يعرفها بنوع من التداعي، لكنه لم يستطِع تحديدها لنحو لحظة. لم تكُن نظرة دهشة. من ناحية أخرى، كانت كلمة «اهتمام» ضعيفة جدًّا لوصفها. فجأة فهم جيم فروبيشر نظرة هانو، ورافق هذا الفهم شعور بعدم الارتياح. فنظرة هانو، شديدة الوضوح والتيقظ وقاسية قليلًا، كانت تمامًا مثل نظرة كلب صيد بارع ومطيع عندما يُخرِج سيده البندقية.

نظر جيم مرة أخرى إلى النتوء العالي للمنزل. كانت النوافذ المُجملَنة تتخلَّل الألواح الصخرية، لكنه لم يستطِع رؤية أي جسم في أيٍّ منها. بدا الأمر كما لم يكُن هناك أحد يُلوِّح بأي إشارة منها.

سأل جيم في حيرة: «ما الذي تنظر إليه؟» ثم أضاف ببعض الانفعال: «أنت ترى شيئًا، أنا متأكد.»

سمع هانو رفيقه أخيرًا. فتغير وجهه في لحظة؛ إذ اختفى ترقُّبه الوحشي وأصبح وجه مُهرِّج.

وقال: «بالطبع أنا أرى شيئًا. دائمًا أرى شيئًا. ألست أنا هانو؟ أوه يا صديقي، لكم هي ثقيلة، مسئولية أن تكون هانو! وكم أنت محظوظ أنك لا تحمل مثلها! رفقًا بي! فمثلي لا بد أن يرى شيئًا في كل مكان ... حتى عندما لا يوجد ما يُرى. هيا!»

اندفع هانو مبتعدًا عن ضوء الشمس في تلك المنصة العالية إلى الدرج المظلم. نزل الرجلان الدرجات وخرجا مرَّة أخرى إلى ساحة دارم شبه الدائرية.

قال هانو: «والآن!» ثم قال: «نعم» كما لو كان لديه شيء ما بسيط يودُّ قوله ولم يكُن متأكدًا تمامًا إذا كان سيقوله. ثم أفشى ما بنفسه. فقال: «ستتناول كأس فيرموت معي قبل أن تذهب لتناول غدائك.»

أجاب فروبيشر: «سأتأخر إذا أنا فعلت.»

تجاهل هانو الاعتراض بأن هزَّ إصبعه الممدود.

وقال: «بل لديك مُتَّسَع من الوقت أيها السيد. ستتناول كأس فيرموت معي ثم ستصل إلى منزل كرينيل حتى قبل الآنسة هارلو. هذا هو رأيي أنا، أنا هانو» قال ذلك بافتخار فضحك جيم ونزل على رأيه.

قال: «سأتذرَّع بغرورك عندما أجدها هي وآن أبكوت قد أوشكتا على الفراغ من الطعام.»

كان ثمة مقهى في زاوية شارع ليبرتي وساحة دارم، وُضعت طاولتان صغيرتان أو ثلاث من طاولاته على الرصيف تحت مظلة. جلس الرجلان عند إحداها، وبينما يتناولان الشراب، كان هانو على وشك تقديم توصية أو تصريح ما مرة أخرى.

بدأ يقول: «كما ترى ...» ثم تهرَّب مرة أخرى. فقال: «إذَن ذهبت خمس مرات إلى قمة مون بلان! من شاموني؟»

أجاب جيم: «بل مرة واحدة من شاموني. ذهبت مرة واحدة من كول دو جيانت عَبْر نهر برينفا الجليدي. ومرَّة عَبْر طريق دوم. ومرَّة من نهر برويار الجليدي. وآخر مرَّة عَبْر مونت مانديت.»

استمع هانو بلطف حقيقي وقال:

«أنت تخبرني بأشياء مثيرة للاهتمام وجديدة جدًّا بالنسبة لي» وكان قوله وديًّا صادقًا. «أنا مُمتَنٌّ يا سيدي.»

أجاب جيم بجفاف: «من ناحية أخرى، أنت يا سيدي لا تخبرني إلا بالقليل جدًّا. حتى ما جئت بي إلى هذا المقهى لتقوله، ستظلُّ تحتفظ به لنفسك. لكن بالنسبة لي، لن أكون بهذا الجفاف والبخل. سأخبرك بما أفكر فيه.»

قال هانو: «وما ذاك؟»

«أعتقد أننا أضعنا الطريق.»

«أوه؟»

وتخيَّر هانو سيجارة من علبتها المغلفة باللون الأزرق اللامع.

«ربما تجد وقاحة في قولي هذا.»

أجاب هانو بجدية: «ولا مثقال ذرة من ذلك. نحن في الشرطة مكلفون بالبحث على نطاق واسع فنغفل عن الحقيقة تحت أعيننا. هذا هو المزلق. لا شيء أثمن من أن تمدني بزاوية إضافية للرؤية. إنني منتبه لك تمامًا.»

اقترب جيم فروبيشر بكرسيه من الطاولة الحديدية المستديرة ووضع مرفقيه عليها.

وقال: «أعتقد أن هناك سؤالًا واحدًا على وجه الخصوص يجب أن نجيب عنه إذا أردنا اكتشاف ما إذا كانت السيدة هارلو قد قُتلت وبيد من إذا كان ذلك صحيحًا.»

أومأ هانو برأسه.

وقال بتريُّث: «أوافقك. لكنني أتساءل إذا كنا نتحدَّث عن السؤال نفسه.»

قال جيم: «إنه سؤال أهملناه. وهو: من أعاد كتاب البروفيسور عن نبات الاسبورانثوس إلى مكانه على رف الكتب في المكتبة، بين منتصف نهار أمس وصباح اليوم.»

أشعل هانو عود ثقاب آخر من أعواده المُزعِجة، وأبقى الشعلة في ظل كفه حتى اضطرمت. فأشعل سيجارته وأخذ منها بضع نفخات.

وقال: «بلا شك هذا السؤال مهم»، وإنْ كان قال ذلك بشكل عابر. «لكنه ليس سؤالي. كلا. أعتقد أن هناك سؤالًا آخر أكثر أهمية. أعتقد أننا إذا استطعنا أن نعرف لماذا كان باب غرفة الكنوز مفتوحًا في ليلة السابع والعشرين من أبريل، وهو الذي لم يُفتح منذ وفاة سايمون هارلو، سنكون قريبين جدًّا من الحقيقة الكاملة لهذه المسألة المبهمة.» ثم مدَّ يدَيه وهزَّهما، وأضاف: «هذا ما يحيرني.»

تركه جيم جالسًا على الطاولة يحدِّق بشرود في الرصيف، كما لو كان يأمل في قراءة الإجابة عنه.

الفصل الثاني عشر

نزع الأختام

بعد دقائق قليلة، أقرَّ جيم فروبيشر بتوفيق هانو البالغ في تخمينه، لكنه لم يعترف بأن الأمر كان يتجاوز مجرد التكهُّن. فقد يكون السيد هانو رجلًا ضليعًا وعليمًا بكل شيء؛ لكن لا يمكن لأي بصيرة، مهما كانت نافذة، أن تخبره بظرف عرضي كهذا. لكن الحقيقة كانت متجسدة أمامه. فقد وصل فروبيشر إلى منزل كرينيل قبل بيتي هارلو، مما تسبب له بعدم ارتياح شديد. كان قد تسكَّع مع هانو في المقهى فقط حتى لا يحدث هذا. كان عازفًا عن أن يكون وحيدًا مع آن أبكوت بعد أن صار يشتبه بها. وكان أفضل ما يمكنه فعله هو إخفاء سبب اضطرابه. أما اضطرابه من وجودها فلم يكُن بإمكانه إخفاؤه. ولعلَّها زادت من صعوبة حالته بتعبيرها المحزون عن التعاطف.

إذ قالت برقة: «أنت مضطرب. لكن بالتأكيد لم تعُد بحاجة إلى ذلك. ما قلته هذا الصباح كان صحيحًا. كانت الساعة العاشرة والنصف عندما تسلَّل ذلك الهمس المرعب إلى أذني. حينها، كانت بيتي متواجدة مع أصدقائها في قاعة الرقص، بعيدًا عن المكان. لا شيء يمكن أن يزعزع ذلك.»

هتف جيم: «ليس اضطرابي بسببها»، فنظرت إليه آن بعيون مذهولة.

اجتازت بيتي الفناء وانضمت إليهم في القاعة قبل أن تتمكن آن من طرح سؤال؛ وخلال الغداء، كان جيم يُجري محادثات حول مواضيع غير مهمة بسرعة، وإنْ كان دون استمتاع منه.

لحُسن الحظ، لم يكُن هناك مُتَّسَع من الوقت. إذ كانوا ما زالوا يدخنون سجائرهم بينما يتناولون القهوة عندما أخبرهم جاستون أن مفوض الشرطة وسكرتيره ينتظران في المكتبة.

قالت بيتي وهي تقدم جيم: «هذا هو السيد فروبيشر، محاميَّ في لندن.»

كان المفوض، واسمه السيد جيراردو، رجلًا بدينًا أصلع وفي منتصف العمر، يرتدي نظارة قابلة للطي على أنف بارز ممتلئ؛ بينما كان سكرتيره، واسمه موريس ثيفينيه، شابًّا طويل القامة حسن المظهر، مبتدئًا في إدارة الشرطة، يبدو متأنقًا بعض الشيء في مظهره، وقد يعتقد من يراه أنه يعتبر نفسه في تقديره الخاص فاتنًا بين النساء.

قال جيم: «لقد طلبت من السيد بيكس، كاتب العدل الخاص بالآنسة في ديجون، أن يكون حاضرًا.»

أجاب المفوض: «هذا أمر طبيعي تمامًا» وفي تلك اللحظة أُعلن عن وصول السيد بيكس. جاء في تمام الساعة الثالثة. كانت الساعة تدق عندما انحنى في مدخل الباب. كان كل شيء على ما يرام، والسيد بيكس سعيدًا.

فقال مبتسمًا: «بموافقة السيد المفوض، يمكننا الآن المضي قدمًا في المراسم النهائية لهذا الأمر.»

قال المفوض: «ننتظر السيد هانو.»

«هانو؟»

شرح المفوض: «هانو من المباحث الجنائية بباريس، دعاه قاضي التحقيق ليتولى هذه القضية.»

صاح بيكس في حيرة: «قضية؟ لكن لا توجد قضية ليتولى هانو أمرها» فجرته بيتي هارلو جانبًا قليلًا.

وريثما كانت تقدم للكاتب العدل ملخصًا سريعًا لأحداث الصباح، خرج جيم من الغرفة إلى القاعة بحثًا عن هانو. فرآه من فوره؛ لكنه فُوجئ عندما أتى هانو من آخر القاعة كما لو كان قد ولج المنزل من الحديقة.

فقال: «بحثت عنك في غرفة الطعام» مشيرًا إلى باب تلك الغرفة التي كانت بالتأكيد في مؤخر المنزل خلف المكتبة، والتي مدخلها خلف الدرج. «لننضم إلى الآخرين.»

ثم قُدِّم هانو إلى السيد بيكس.

سأل هانو وهو ينحني قليلًا تحية لثيفينيه: «وهذا السيد؟»

قال المفوض: «إنه سكرتيري، موريس ثيفينيه» ثم قال بصوت خفيض حاد: «إنه شاب ظريف، ويتمتَّع بذكاء مُدهِش. سيُحقِّق نجاحًا كبيرًا.»

نظر هانو إلى ثيفينيه باهتمام وود. بينما حدَّق الشاب المبتدئ في الرجل الضخم بعيون متقدة.

وقال بتواضُع رسمي: «هذه فرصة لي يا سيد هانو، فإن أنا ضيعتها، فإنني أثبت أنني بلا ذكاء على الإطلاق» وهو ما أثار إعجاب السيد بيكس.

قال: «هذا صحيح جدًّا.»

لم يكُن هانو أبدًا معارضًا للإطراء. فقد رمق جيم فروبيشر بنظرة؛ وصافح السكرتير بحرارة.

وأجاب: «إذَن لا تتردَّد في طرح الأسئلة عليَّ، يا صديقي الشاب. أنا هانو الآن، نعم. لكنني كنت ذات يوم مثل موريس ثيفينيه الشاب، لكن دون وسامته للأسف.»

فاحمرَّ موريس ثيفينيه بحياء غاية في الجاذبية.

وقال السيد بيكس: «هذا لطيف جدًّا.»

قال جيم فروبيشر في نفسه: «يبدو أن هذا الجمع يتحوَّل إلى حفل عائلي وودي صغير»، وقد رحَّب ببعض الهمهمات من جانب المفوض.

تحرك المفوَّض إلى وسط الغرفة.

وقال بفخر ومباهاة: «سنقوم نحن جيرارد، مفوض الشرطة، بنزع الأختام الآن.»

ثم تقدَّمهم في الطريق من المكتبة عَبْر القاعة وعلى طول الممر إلى الباب العريض لغرفة نوم السيدة هارلو. ثم نزع الأختام وأزال الأشرطة. بعدها أخذ مفتاحًا من يد سكرتيره وفتح الباب على غرفة مغلقة بالستائر. فتدفَّق الحشد الصغير إلى الداخل. لكن هانو بسط ذراعيه وقطع الطريق عليهم.

وقال آمرًا: «لحظة من فضلكم!» فألقى جيم فروبيشر من فوق كتفه نظرة على الغرفة جعلته يرتعش.

هذا الصباح في الحديقة، إثارة المطاردة جعلته للحظة متشوقًا أن يستمر هانو في التحقيق، وأن تتوالى التطورات حتى يقف المجرم مفضوحًا. لكن منذ الساعة التي قضاها على برج تيراس، أصبحت فكرة المطاردة تروعه، وكان ينتظر التطورات وجِلًا. بالنسبة له، كانت غرفة النوم هذه، الخافتة الإضاءة ببعض خيوط ضوء النهار التي اخترقت شقوق الستائر، والباردة والصامتة والغامضة، مليئة بالأشباح، أشباح لا يمكن لأحد رؤية وجوهها وهي تتشاجر شجارًا خافتًا في العتمة. اجتاز هانو والمفوض الغرفة نحو النوافذ المقابلة، ففتحوها وأزاحوا الستائر. وفي لحظة غمر الضياء الساطع كل زاوية فشعر جيم فروبيشر بالارتياح. كانت الغرفة نموذجًا للنظام والهدوء: كراسي مصفوفة بدقة أمام الحائط، وفراش مستوٍ يغطيه غطاء مطرز. لم توحِ بأي وجود بشري، بل بدت كغرفة فندقية فارغة تنتظر نزيلها.

قلَّب هانو ناظريه في الأرجاء.

ثم قال: «كانت هذه الغرفة مفتوحة مدة أسبوع بعد جنازة السيدة. ستكون معجزة إذا اكتشفنا أي شيء يمكن أن يساعدنا.»

توجَّه هانو إلى الفراش الذي يقف رأسه مواجهًا الحائط في منتصف المسافة بين الباب والنوافذ. وكان ثَم حامل مُسطَّح صغير به زر من المينا موضوع على الطاولة المستديرة بجانب الفراش، ومن الحامل كان ثَم حبل يمتد على طول ساق الطاولة ويختفي تحت السجادة.

فقال هانو وهو يلتفت نحو بيتي: «هذا هو الجرس الذي يؤدي إلى غرفة الخادمة على ما أظن.»

فأجابته: «نعم.»

انحنى هانو وفحص الحبل بدقة. لكن لم تكُن هناك أي علامة على أن أحدًا عبث به. فانتصب قائمًا مرة أخرى.

وقال: «آنستي، هلَّا أخذتِ السيد جيراردو إلى غرفة نوم جين بودان وأغلقتِ الباب. سأضغط على هذا الزر، وحينئذٍ تنظرون إن دقَّ الجرس، بينما سنتحقق هنا من مدى سماع الأصوات الصادرة من إحدى الغرف في الأخرى.»

قالت بيتي: «بالتأكيد.»

اصطحبت بيتي مفوض الشرطة بعيدًا، وبعد لحظات سمع من في غرفة السيدة هارلو إغلاق باب في الممر. وطلب هانو قائلًا: «هل يمكن إغلاق بابنا الآن، من فضلكم؟»

فأغلقه بيكس كاتب العدل.

قال هانو: «والآن، صمتًا من فضلكم!»

ثم ضغط على الزر فلم يُسمع أي صوت. ضغط عليه مرة أخرى ثم مرة أخرى لكن بنفس النتيجة. ثم عاد المفوض إلى غرفة النوم.

سأل هانو: «ماذا؟»

قال المفوض: «دقَّ الجرس مرتين.»

فهز هانو كتفيه وهو يضحك.

وهتف: «للجرس الكهربائي صوت حاد ونافذ. يا للسماء، كانوا يبنون منازل حصينة وقت بناء منزل كرينيل! هل الخزانات والأدراج مفتوحة؟»

ثم جرَّب خزانة منها فوجدها مُقفَلة. هنا تقدم السيد بيكس.

وقال: «كانت جميع الأدراج مقفلة صباح اكتشاف وفاة السيدة هارلو. لقد أقفلتها الآنسة هارلو بنفسها بحضوري وسلمت لي المفاتيح لغرض إجراء جرد. وقد كانت الآنسة مصيبة تمامًا في فعل ذلك. إذ لم يكُن مُمكِنًا الكشف عن شروط الوصية حتى بعد انتهاء الجنازة.»

قال هانو: «لكن بعد ذلك، لا بد أنكم فتحتموها عندما أجريتم الجرد.»

أجاب بيكس: «لم أبدأ الجرد بعد يا سيد هانو. إذ كانت هناك ترتيبات الجنازة، وقائمة بالممتلكات التي يجب تقييمها، ومزارع الكرم التي يجب إدارتها.»

قال هانو بتأفُّف: «أوه. إذَن ينبغي أن تحتوي هذه الخزانات والأدراج على نفس ما كانت تحتويه في ليلة السابع والعشرين من أبريل.» وراح يتجوَّل بسرعة في أرجاء الغرفة، يجرب بابًا هنا، ودرجًا هناك، ثم توقف بجانب خزانة مدمجة في الحائط. وأضاف: «المشكلة أن طفلًا بسلك معقود يمكنه فتح أي منها. هل تعرف ما الذي كانت السيدة هارلو تحتفظ به هنا يا سيد بيكس؟» وطرق هانو بيده على باب الخزانة.

أجاب بيكس: «كلا، ليس لديَّ أي فكرة. هل تريدني أن أفتحها؟» وأخرج مجموعة مفاتيح من جيبه.

فقال هانو: «أعتقد أنه ليس الآن.»

كان هانو يضيِّع الوقت على الأقفال والأدراج كما لو كان الوقت لا يعني له شيئًا على الإطلاق. وقد عاد الآن بهمَّة إلى وسط الغرفة، وكأنه يأخذ ملاحظات عن هيئتها، كما بدا لجيم فروبيشر. كان الباب الذي يُفتَح من الممر يواجه، على امتداد الأرضية، النافذتين الطويلتين المطلتين على الحديقة. فإذا وقف المرء في مدخل الباب مواجهًا إياهما، يكون الفراش عن يساره. وعلى جانب الفراش الذي به ممر، كان ثَم باب أصغر شبه مفتوح، يؤدي إلى حمام مبلَّط ببلاط أبيض. أما على جانب الفراش المطل على النافذة، كانت هناك خزانة مدمجة في الحائط، ترتفع قامة المرأة تقريبًا. وبين النافذتين انتصبت طاولة زينة، وعلى الحائط الأيمن كان ثَم مدفأة كبيرة، وفي ذلك الحائط نفسه وبالقرب من النافذة اليمنى، كان ثَم باب آخر. فتحرك هانو نحوه.

وسأل آن أبكوت: «هذا هو باب غرفة تبديل الملابس؟» ثم دفعه ففتحه دون انتظار إجابة.

ودخل السيد بيكس في أعقابه بينما تصدر مفاتيحه صوتًا. فقال: «كل شيء هنا كان مقفلًا أيضًا.»

لم يكُن هانو يعير أيًّا من ذلك أدنى اهتمام. ثم أزاح الستائر.

كانت غرفة ضيقة بدون أي مدفأة، ولها باب يقابل تمامًا الباب الذي دخل منه هانو. فذهب على الفور إليه.

وقال: «وينبغي بهذا أن يكون الباب الواصل الذي يؤدي إلى ما يُسمى بغرفة الكنوز» ثم توقف، ويده قابضة على المقبض، فيما تجولت عيناه بلمح البصر على وجوه الحاضرين.

قالت آن: «نعم.»

شعر جيم بإثارة غريبة. إذ تصوَّر فتح مقبرة فرعون حديثة الاكتشاف في وادي الملوك. طافت بهم مشاعر الترقب وهم ينتظرون، لكن هانو لم يتحرَّك. إذ وقف مكانه جامدًا بلا حراك كتمثالٍ حارسٍ على باب المقبرة. وقد شعر جيم أنه لن يتحرَّك أبدًا، فهتف به بانفعال:

«هل الباب مُوصَد؟»

أجابه هانو بنبرة هادئة لكن غريبة. لا شك أنه هو أيضًا شعر بذلك التيار الغريب من الأحاسيس والترقب، والذي أوقع جميع من بالغرفة تحت تعويذة سحرية، فأضفى للحظة على وجوههم المختلفة نوعًا من التشابه كالذي بين الأقارب.

فقال: «لا أعرف بعد إذا كان موصدًا أم لا. لكن بما أن هذه الغرفة باتت الآن صالة الآنسة هارلو الخاصة، أرى لزامًا علينا التريث حتى عودتها.»

وقد تسنى ما يكفي من وقت لأن يعلِّق السيد بيكس مبينًا موافقته بقوله «هذا مستصوب للغاية» قبل أن يأتي صوت بيتي واضحًا من مدخل الباب المؤدي إلى غرفة نوم السيدة هارلو قائلة:

«أنا هنا.»

أدار هانو مقبض الباب. لم يكُن الباب موصدًا. انفتح الباب بلمسة واحدة، متأرجحًا للداخل نحو الواقفين وللأعلى باتجاه الممر. كانت غرفة الكنوز أمامهم يلفها ضوء خافت، لكن كان ثَم شعاع ضوء يتلألأ هنا وهناك على الذهب ويبشِّر بالروائع. تقدَّم هانو بحذر نحو النوافذ وثبَّت الستائر على الحائط الخارجي. وقال بينما يتدفق الآخرون إلى الغرفة: «أرجو ألَّا تمسُّوا شيئًا.»

الفصل الثالث عشر

غرفة كنوز سايمون هارلو

على غرار بقية غرف جناح الاستقبال على طول الممر، كانت هذه الغرفة طويلة أكثر منها عريضة، وأشبه بمعرض منها بغرفة. لكنها كانت مُعدة للسكن وليس للزيارات العرضية. فقد كانت مُجهزة بوسائل رفاهية مترفة ولم تكُن مكتظة. في ألواح الجدران ذات اللون البني الفاتح كانت هناك بعض اللوحات الرائعة لفراجونار معلقة بأطر؛ وعلى طاولة الكتابة من الطراز الشيبيندالي الصيني بجانب النافذة، كانت كل الأدوات، من حاملة الحبر، ووعاء الأقلام، وحامل الشموع، ومِذرَّة الرمل، كلها مصنوعة من مينا باترسي المتقن ذي اللون الوردي. لكنها كانت موضوعة بغرض الاستخدام لا العرض. علاوةً على ذلك، كان ثمة مدفأة كبير ناتئة في منتصف الجدار على جانب القاعة، تَبرُز في الغرفة وتُضفي عليها مظهرًا وكأنها مقسومة إلى غرفتَين متصلتين. في حقيقة الأمر، كان العنصر الوحيد في الغرفة الذي يشي بشخصية الجامع هي الكرسي الموضوع في تجويف الجدار بجانب المدفأة وبمواجهة الباب الواصل بغرفة نوم السيدة هارلو. كان ذا لون رمادي فاتح، وبه زخارف ذهبية منحوتة بإتقان حول الألواح وصور بارزة تمثل راعيات ورعاة أنيقين، مرسومة بدقة في وسطها. وكان به نوافذ زجاجية على الجوانب لإظهار الجالس فيه، وكان مبطنًا بالساتان الرمادي الفاتح، ومطرزًا بالذهب ليتناسب مع لون الألواح. وأما سقف المقعد، القابل للرفع بمفصلة خلفية، فقد زُيِّن بزركشة ذهبية متداخلة، وكان له باب زجاجي في جزئه العلوي. بشكل عام، كان الكرسي قطعة جميلة ومتألِّقة من أبدع أعمال فن بناء المحفَّات، وكان ثَم حاجز مذهب يحميه بشكل ملائم للغاية. حتى هانو أُعجب بأناقته. إذ وقف ويداه على الحاجز يفحصه بابتسامة تنمُّ عن الاستمتاع، حتى بدأ جيم يعتقد أنه قد نسي تمامًا العمل الذي أتى من أجله. لكن هانو أيقظ نفسه من غشيته.

وقال: «طوبى للأثرياء بهذا العالم يا سيد فروبيشر. ما أجمل صور السيدات الفاتنات في التنانير المنفوخة والسادة الأنيقة مع الجوارب الحريرية! وكم من طينٍ غاص فيه البؤساء الذين قُدِّرَ عليهم المسير!»

ثم أدار ظهره للمحفَّة وقلَّب نظره في أرجاء الغرفة. ووجه سؤالًا لآن: «أهذه هي الساعة التي أشارت إلى العاشرة والنصف خلال اللحظة التي أضأتِ فيها الأنوار يا آنسة؟»

أجابته بسرعة: «نعم.» ثم نظرت إليها مرة أخرى. وأردفت: «نعم، تلك هي.»

وقد رصد جيم أو تخيَّل أنه لاحظ تغيرًا طفيفًا في نبرة صوتها عندما كررت تأكيدها، لم يكُن تشكيكًا — إذ لم يكُن هذا التغيُّر علامة كافية على ذلك — لكنه كان نوعًا من الحيرة. إلا أنه اتضح أن هذا كان من نسج خياله، لأن هانو لم يلاحظ أي شيء. فوبخ جيم نفسه باستنكار صامت. وقال لنفسه محذِّرًا: «احذر! متى ما ساورك الشك في الناس، فلن ترى في أقوالهم أو أفعالهم إلا ما يزيدك ريبة.»

أما هانو فكان راضيًا بلا شك. كانت الساعة بهيئة صغيرة وجميلة ومذهبة من عصر لويس الخامس عشر، شكل خصرها يشبه الكمان؛ فكانت واجهتها بيضاء، وكانت فوق خزانة مطعَّمة من طراز بولي، تعلو عن مستوى الخصر بقليل، أمام مرآة فينيسية طويلة. وقف هانو مباشرة أمام الساعة وقارنها بساعته.

ثم قال لبيتي: «إنها مضبوطة بالدقيقة يا آنسة» وهو يبتسم ويعيد ساعته إلى جيبه.

استدار هانو حتى وقف وظهره إلى الساعة. كان يواجه المدفأة على الجهة المقابلة من عنق الغرفة الضيق. وكان لهذه المدفأة رف بتصميم أنيق من طراز الأخوة آدم، كان الرف مصنوعًا من خشب الألواح نفسه ذي اللون البني الفاتح، مع أعمدة ممشوقة وبعض النقوش الجميلة على اللوح أسفل الرف. وفوق الرف، كانت إحدى لوحات فراجونار معلقة بإطار في الجدار وعلى ما يبدو أن ذلك كي لا يحجبها أي شيء، فلم تكُن هناك أي عناصر تزيين مرتفعة على الرف نفسه. لم تكُن تزينه سوى علبتين صغيرتين من مينا باترسي الوردي، وإطار زجاجي مسطح. تقدَّم هانو إلى رف الموقد، وبعد أن فحصه للحظة، رفع الإطار الزجاجي المسطح وهو يطلق صفارة خفيضة تنم عن الإعجاب.

وقال لبيتي: «عذرًا آنستي. لكن على الأرجح أنني لن أنال مرة أخرى في حياتي أبدًا فرصة رؤية شيء لا يُضاهَى كهذا. هذا بالإضافة إلى أن رف المدفأة مرتفع قليلًا بالنسبة إليَّ فلا أراه على النحو الملائم.»

وبدون انتظار موافقة الفتاة، حمله نحو النافذة.

وهتف يقول: «هل ترى هذا، يا سيد فروبيشر؟» فتقدَّم جيم إلى جانبه.

كان الإطار يحتوي على حلية مشغولة من الذهب والعقيق الأبيض والمينا الشفافة من صنع بنفينوتو تشيليني. وأقرَّ جيم بأنه لم يرَ أبدًا حِرَفية بهذا الإتقان والدقة، لكنه كان يشعر بالضيق من انشغال هانو عن عمله.

قال المحقق: «يمكن للمرء أن يقضي يومًا طويلًا في هذه الغرفة في إظهار إعجابه بهذه الكنوز.»

أجاب جيم بنبرة جافة: «بلا شك. لكنني كنت أظن أننا سنقضي فترة الظهيرة في البحث عن سهم.»

هنا ضحك هانو.

وقال: «يا صديقي، أنت تذكرني بواجبي.» ثم عاود النظر إلى الجوهرة وتنهد. واستأنف قائلًا: «نعم، كما تقول، لسنا زوارًا هنا بهدف الاستمتاع.»

ثم حمل الإطار عائدًا إلى رف المدفأة ووضعه في مكانه. ثم تغيرت طريقته على نحو مفاجئ. كان منحنيًا إلى الأمام ويداه لا تزالان حول الإطار الزجاجي. لكنه كان ينظر إلى الأسفل. كانت شبكة المدفأة مخفية عن الغرفة بواسطة حاجز منخفض طُلِيَ بورنيش أزرق؛ وقد نجح هانو من موقعه في النظر فوق الحاجز إلى داخل المدفأة نفسها.

فسأل: «ما كل هذا؟»

ورفع الحاجز من المدفأة ووضعه بعناية جانبًا. أمكن للجميع الآن رؤية ما أزعجه — كومة من الرماد الأبيض في الموقد.

انحنى هانو على ركبتيه وأخذ المجرفة من سياج المدفأة ودفعها بين القضبان وأخرجها مرة أخرى وعليها طبقة صغيرة من الرماد. كان الرماد أبيض اللون وقد انطحن إلى جسيمات صغيرة. لم تكُن هناك ولو حتى قطعة واحدة يمكن أن تغطي ظفر إصبع. لمس هانو الرماد بحذر، كما لو كان يتوقع أن يجده ساخنًا.

قال جيم فروبيشر بسخرية ثقيلة: «أُغلقت هذه الغرفة صباح الأحد ونحن اليوم بعد ظهر الخميس. لا يبقى الرماد حارًّا لأكثر من ثلاثة أيام في العادة يا سيد هانو.»

نظر موريس ثيفينيه إلى فروبيشر باستياء. كيف يجرؤ على السخرية من هانو! لم يكُن يعامل شرطة باريس باحترام أكثر مما قد يعامل ... لنقل، سكوتلانديارد.

حتى السيد بيكس كان يبدو عليه الاستياء. لم يكُن سلوك هذا الرجل قويمًا بالنسبة لشريك في شركة فروبيشر وهاسلت. أما هانو، فكان متساهلًا للغاية.

إذ أجاب بوداعة: «لقد لاحظت ذلك» ثم جلس على كعبَيه والمجرفة لا تزال في يديه.

ونادى: «يا آنسة!» فتقدمت بيتي ومالت على رف المدفأة بجانبه. فسألها: «من حرق هذه الأوراق بعناية شديدة؟»

أجابت بيتي: «أنا.»

«متى؟»

«بعضها ليلة السبت، والباقي صباح الأحد، قبل وصول السيد المفوض.»

«وما كانت هذه الأوراق يا آنسة؟»

«كانت رسائل يا سيدي.»

نظر هانو إلى وجهها بسرعة.

وقال بهدوء: «أوه! رسائل! نعم! وما نوع هذه الرسائل، من فضلك؟»

كان جيم فروبيشر يومئ بيدَيه تعبيرًا عن استيائه. ماذا أصاب هانو؟ في لحظة ينسى تمامًا العمل الذي كان معهودًا إليه به أثناء استمتاعه بمجموعة سايمون هارلو. وفي اللحظة التالية ينشغل باستقصاء عبثي عن رسائل مجهولة. لم يكُن لدى جيم أي شك في أنه كان يفكر في تلك الرسائل الآن. فلا يقول أحدهم «رسائل» إلا ويحيد هانو عن مساره على الفور وهو على استعداد لاتهام أي شخص بكتابتها كما يظهر من الأمر.

أجابت بيتي بينما اكتسبت وجنتاها لونًا ببطء: «كانت رسائل خاصة جدًّا. لن تكون مفيدة لك.»

قال هانو: «حسنًا» وقد شاب صوته شيء من الغضب بينما هزَّ المجرفة ورمى الرماد مرة أخرى في المدفأة. لكنه أضاف: «لكنني أسألك يا آنسة، ما كان نوع هذه الرسائل؟»

لم تجبه بيتي. ونظرت بشرود إلى الأرض، ثم من الأرض إلى النوافذ؛ ورأى جيم وهو يتألَّم أن عينيها تلمعان بالدموع.

فتدخَّل قائلًا: «أعتقد يا سيد هانو أننا وصلنا إلى مرحلة يجب أن نتشاور فيها أنا والآنسة.»

قال السيد بيكس: «هذا من حق الآنسة بالتأكيد.»

لكن الآنسة تنازلت عن حقها بحركة صغيرة من كتفيها.

إذ قالت: «حسنًا.»

كشفت عن وجهها للجميع. وعيناها الواسعتان تترقرقان بالدموع، وأشارت إلى جيم برأسها إيماءة امتنان وتقدير.

وقالت بصوت مُتقطِّع: «سأجيبك يا سيد هانو. يبدو أنه لن يبقى شيء وإلا سيُكشَف، مهما بلغت درجة خصوصيته. وأكرِّر القول بأن تلك الرسائل لن تُجديَك نفعًا.»

ثم نظرت على الجانب الآخر من المجموعة إلى كاتب العدل.

وقالت: «سيد بيكس» فتحرك ليقف على الجانب الآخر من هانو.

وقال: «في غرفة نوم السيدة، بين فراشها وباب الحمام، كان ثمة خزانة صغيرة تحتفظ فيها بالعديد من الأوراق غير المهمة، مثل الفواتير المدفوعة القديمة التي لم يكُن من الحكمة التخلُّص منها بعد. أخذتُ هذه الخزانة إلى مكتبي بعد وفاة السيدة، بموافقة الآنسة بالطبع، بقصد أن أفحص الأوراق في وقت فراغي وأوصي بالتخلُّص من كل ما ليس مهمًّا. بيدَ أنني كنت منشغلًا، كما أسلفتُ، ولم أفتح الخزانة حتى يوم الجمعة الموافق السادس من مايو. وحين فتحتها، ذُهلتُ لما وجدتُ فوق كل شيء رزمة رسائل بدأ حبرها يتلاشى، وقد رُبطت بشريط. كانت نظرة واحدة كافية لأتأكد أنها أشياء خاصة وشخصية وليس لكاتب العدل الخاص بالآنسة أي علاقة بها. وفقًا لذلك، في صباح السبت، أحضرتها بنفسي إلى الآنسة بيتي.»

ثم انسحب السيد بيكس بإيماءة، وتابعت بيتي القصة.

«وضعتُ الرسائل جانبًا حتى أقرأها بهدوء بعد العشاء. فما حدث أنني لم أكُن أستطيع في أي حال أن أعطيها أي اهتمام قبل ذلك. لأن السيد بوريس قدَّم اتهامه ضدي في ذلك الصباح، وفي الظهيرة كنتُ قد استدعيتُ إلى مكتب قاضي التحقيق. كما تفهم، كنت ... لا أقول خائفة، لكن مضطربة بسبب هذا الاتهام؛ ولم أنظر في الرسائل إلا في ساعة متأخرة من المساء، وكان ذلك بدافع تشتيت أفكاري أكثر من أي سبب آخر. لكن بمجرد أن نظرت فيها، فهمت أنه يجب تدميرها. كانت هناك أسباب ...» وهنا تداعى صوتها، لكنه عاد إلى الثبات بعد محاولة جاهدة منها «أشعر أن في تفسيرها وقاحة. كانت رسائل تبادلها العم سايمون والسيدة هارلو خلال الفترة التي كانت فيها تعيسة في زيجتها من السيد رافيار وتعيش منفصلة عنه ... كانت الرسائل طويلة أحيانًا، وأحيانًا تكون ملاحظات صغيرة مكتوبة بسرعة — دون تحفُّظ — في لحظة من رفع الكلفة والتحرُّر. كانت رسائل ...» ومرَّة أخرى تداعى صوتها وخفت فأصبح همسًا، حتى لا يُساء فهم المعنى الذي ترمي إليه — «بين عاشقين ... عاشقين يتحدثان بأشياء حميمية، ويعتزان بحبهما. أوه، لم يكن ثمة ريب في وجوب التخلص من تلك الرسائل! لكني عقدت العزم على قراءتها كاملة أولًا، خشية أن تحوي شيئًا يجدر بي علمه. فقرأت جلَّها تلك الليلة،

وأحرقت ما طالعت. لكن الوقت كان قد تأخر ... فتركت الباقي حتى صباح الأحد. وقد أنهيت قراءتها صباح الأحد فعلًا، وأحرقت ما تبقى حينها. وبعد أن انتهيت من حرقها بفترة قصيرة، وصل السيد المفوض لوضع الأختام. إن الرماد الذي تراه يا سيد هانو هو رماد الرسائل التي أحرقتها صباح الأحد.»

تحدثت بيتي بتوقير جميل وبسيط أثار تعاطفًا حارًّا لدى مستمعيها. ثم أمال هانو الرماد بلطف معيدًا إياه إلى المدفأة.

وقال بنبرة تنم عن الندم: «أنا دائمًا ما أخطئ بحقك يا آنستي. ذلك لأنني أجبرك دائمًا على إعطاء إفادات تجعلني أشعر بالخجل وتضفي عليك الإجلال.»

شعر جيم بأن هانو يمكنه أن يفعل الشيء اللائق بكل تلطُّف عندما يرغب في ذلك. لكن لسوء الحظ، يبدو أن التلطف لم يكُن أبدًا صفة دائمة فيه؛ كما هي الحال الآن. كان هانو لا يزال على ركبتَيه أمام الموقد. وبينما كان يعتذر، أخذ يقلب الرماد بالمجرفة دون أن يبدو أنه يفكر فيما يفعله. لكن شيئًا استحوذ على انتباهه الآن. كشفت المجرفة عن قطعة صغيرة من الورق لم تحترق، لونها أبيض يميل إلى الزرقة. فتصلَّب جسم هانو. وانحنى إلى الأمام والتقط قطعة الورق من الموقد، بينما انحنت بيتي أيضًا بحركة فضولية بسيطة.

جلس هانو مرة أخرى على كعبيه.

وقال: «إذَن! لم تحرقي الرسائل فقط صباح الأحد الماضي.»

كانت بيتي في حيرة وارتباك، وقد مدَّ هانو إليها قطعة الورق.

وقال: «لقد حرقت فواتير أيضًا، يا آنسة.»

أخذت بيتي القطعة بيدها وهزَّت رأسها وهي تطالعها. كان من الواضح لها أنها قطعة ورق من الزاوية العلوية اليمنى من فاتورة. كان يظهر بها جزء مثير للاهتمام من عنوان مطبوع، وأسفله رقم أو رقمان في عمود.

فقالت بيتي: «لا بد أن هناك فاتورة أو نحو ذلك اختلطت بالرسائل. لا أتذكر ذلك.»

وأعادت قطعة الورق إلى هانو الذي جلس ينظر إليها. كان جيم فروبيشر يقف خلفه مباشرة ويقرأ نهايات الأسماء والكلمات المطبوعة والأرقام تحتها، وصادف أن تذكر شكلها تمامًا، حيث أمسكها هانو لفترة طويلة في يده؛ الجزء العلوي من الاسم بأحرف كبيرة، والكلمات تحتها بأحرف أصغر، ثم الأرقام في الأعمدة، وكلها محاطة بما يشبه شكل المثلث مع خط قطري محروق وممزق بفعل النار ... هكذا على النحو التالي:

ERON STRUCTION LLES IS ======== 375.05

قال هانو: «حسنًا، لحسن الحظ، هذا ليس مهمًّا.» ثم ألقى قطعة الورق مرة أخرى في المدفأة. وسأل: «هل لاحظت هذا الرماد يا سيد جيراردو صباح الأحد؟» ثم أضاف تفسيرًا بغرض تفادي أي إساءة قد تبدو أن السؤال يلقيها على مصداقية بيتي.

فقال: «من الأفضل دائمًا يا آنسة أن يكون هناك إمكانية لإيجاد التأييد.»

أومأت بيتي، لكن جيراردو كان في حيرة. وقد تمكن من أن يبدو جادًّا للغاية، لكن الجدية لم تكن مطلوبة.

فقال: «لا أتذكر.»

ومع ذلك، جاء التأييد من مصدر آخر.

إذ قال موريس ثيفينيه بحماس: «إذا سمحت لي بالكلام، يا سيد هانو؟»

أجاب هانو: «بكل تأكيد.»

فقال: «دخلت هذه الغرفة خلف السيد جيراردو مباشرة صباح الأحد. لم أرَ أي رماد في المدفأة، هذا صحيح. لكن الآنسة هارلو كانت تضع ذلك الحاجز المطلي بورنيش أزرق أمام المدفأة، تمامًا كما رأيناه اليوم. وضعته الآنسة في مكانه وعندما رأت زوارها طفرت فجأة ووقفت.»

قال هانو بحرارة: «آها!» ثم ابتسم لبيتي. «هذه الشهادة قيمة تمامًا كما لو أخبرنا أنه رأى الرماد نفسه.»

ثم نهض واقترب منها.

وقال: «لكن هناك رسالة أخرى كنتِ طيبة بما يكفي لتعديني بها.»

بدأت بيتي تقول: «الرسالة المج ...» لكن هانو أوقفها بسرعة.

وقال: «من الأفضل أن نلتزم الصمت» بابتسامة وإيماءة أوضحا أنهما شريكان ومتواطئان في هذا الأمر. ثم أضاف: «هذا سيكون سرنا الصغير الحصري بيننا، وسنشاركه مع السيد المفوض إذا كان جديرًا بذلك.»

ثم شرع يضحك طويلًا على نكتته، بينما فتحت بيتي درجًا في طاولة الكتابة الصينية. وقد شاركه جيراردو المفوض ضحكة فاترة، لم يُخفِ تردده في استساغتها. أما السيد بيكس، فقد ازداد وجهه جدية، مبيِّنًا بوضوح أن الدعابة لم تكن لائقة في نظره.

أخرجت بيتي ورقة مطوية من ورق عادي وسلمتها إلى هانو الذي أخذها إلى النافذة وقرأها بعناية. ثم بإشارة، استدعى جيراردو إلى جانبه.

وأضاف: «يمكن للسيد فروبيشر أن يأتي أيضًا. إذ هو مشارك في السر» ووقف الرجال الثلاثة منفصلين عند النافذة ينظرون إلى الورقة. كانت مؤرخة في السابع من مايو، وموقعة بـ «السوط»، مثل الرسائل الأخرى من هذه السلسلة البشعة، وقد بدأت دون أي مقدمة. كانت الرسالة تحمل بضع كلمات مكتوبة عليها، وبعضها كان ألفاظًا بذيئة لا يمكن إعادة ذكرها، مما جعل دم جيم يغلي لأن فتاة مثل بيتي كان عليها أن تقرأها.

«قد حانت ساعتكِ الآن، أيتها ...» ثم تبع ذلك سلسلة من الكلمات البذيئة. «لقد حان دورك يا بيتي هارلو. المحقق هانو من باريس قادم ليتولى أمرك وهو يحمل الأصفاد في جيبه. ستبدين جميلة بالأصفاد، أليس كذلك يا بيتي؟ نحن نريد عنقك العاجي! ثلاثة أنخاب لوابرسكي؟ السوط.»

حدق جيراردو في الكلمات الوحشية وعدل نظارته على أنفه ثم حدق مرة أخرى.

وقال بتلعثم: «لكن ... لكن ...» وأشار إلى التاريخ. لكنه توقف فجأة بسبب إشارة تحذيرية من هانو، بيد أن جيم لم يكن لديه شك في الغرض من هذا التعجب غير المكتمل. كان جيراردو مندهشًا — مثل هانو نفسه — من أن هذه الأخبار تسربت بسرعة كبيرة.

طوى هانو الرسالة والتفت ليواجه الغرفة.

وقال لبيتي: «شكرًا لك يا آنسة» وأخرج ثيفينيه السكرتير دفتر ملاحظاته من جيبه.

وسأل يقول: «هل تريدني أن أنسخ لك نسخة من الرسالة يا سيد هانو؟» ثم جلس ومد يده.

فأجاب هانو: «ما كنت لأعيدها، وليس ثمة حاجة للحصول على نسخة في هذه المرحلة. ربما أطلب معونتك لاحقًا.»

ووضع الرسالة في حافظة رسائله، ثم وضع الحافظة في جيبه الصدري. وعندما رفع نظره مرة أخرى، رأى أن بيتي تمد إليه مفتاحًا.

وقالت: «هذا يفتح الخزانة في نهاية الغرفة.»

فقال هانو: «عظيم! دعونا نبحث الآن عن السهم الشهير، وإلا فسنُغضب السيد فروبيشر مرة أخرى.»

في نهاية الغرفة، كانت الخزانة تقف أمام الحائط المقابل للنوافذ وبالقرب من الباب المؤدي إلى القاعة. أخذ هانو المفتاح، وفتح باب الخزانة وتراجع فجأة وهو يصيح: «عجبًا!» كان قد فُوجئ حقًّا، حيث كان أمامه على الرف رأسان بشريان صغيران كاملا

الملامح والشعر والعيون، لكنهما بحجم برتقالتين كبيرتين. كانا رأسين لرجُلينِ من قبائل الأمازون، قتلهما غُزاتهما على ضفاف النهر، واحتفظوا بهما بعد تصغيرهما بالعملية الشائعة في تلك الغابات.

قال هانو: «إذا كان السهم موجودًا في أي مكان في هذه الغرفة، فينبغي أن نجده هنا» لكن على الرغم من أنه وجد العديد من الأشياء الغريبة في تلك الخزانة، فإنه لم يجد أي أثر لسهم مسموم. فالتفت مبتعدًا وقد بدت عليه خيبة الأمل.

وقال بأسًى: «في الواقع يا آنسة، لا يوجد شيء آخر يمكن فعله» وبعد ذلك، قضى ساعة في البحث في الغرفة، فقلب السجادة، وفحص أغطية الكراسي، والستائر، وعاين كل مزهرية، وأخيرًا ركز على طاولة بيتي. فحص كل زاوية فيها؛ واكتشف الآلية البسيطة لأدراجها السرية؛ وأفرغ كل قسم؛ كان يعمل بسرعة فائقة، ويعيد كل شيء إلى موضعه الصحيح. ولما انقضت الساعة، كانت الغرفة مرتبة كما كانت عندما دخلها؛ رغم أنه فحصها بدقة كبيرة.

قال هانو: «كلا، إنه ليس هنا.» ثم جلس في كرسي وتنفس بعمق. «لكن من ناحية أخرى، وكما تعلم السيدات ويعلم السيد فروبيشر، كنت مستعدًّا لئلا أجده هنا.»

فسألت بيتي: «هل انتهينا إذن؟» لكن هانو لم يتحرك.

وأجاب: «سأكون ممتنًّا يا سيد جيراردو إذا نزعت الأختام من على الباب في نهاية الغرفة.»

غادر المفوض ومساعده عبر غرفة نوم السيدة هارلو. وبعد دقيقة، سُمع صوت احتكاك المفتاح بالقفل وانفتح الباب، ليعودا بعدها إلى الغرفة من القاعة.

قال هانو: «عظيم!»

ثم نهض من كرسيه ونظر حوله إلى المجموعة الصغيرة التي أصبحت الآن في حيرة وقلق، وقال بجدية شديدة:

«من أجل مصلحة العدالة، أطلب الآن ألا يقاطعني أي منكم بكلمة أو إيماءة، لأن لديَّ تجربة لأجريها.»

وفي صمت تام، مشى إلى المدفأة ودق الجرس.

الفصل الرابع عشر

تجربة واكتشاف

استجاب جاستون لجرس الاستدعاء.

وقال هانو: «هلَّا أرسلت فرانسين رولار إلى هنا من فضلك؟»

لكن جاستون ظل واقفًا في مكانه. ونظر إلى بيتي متجاوزًا هانو.

ثم قال باحترام: «إذا أَمَرَتني الآنسة.»

ردَّت بيتي: «على الفور إذن يا جاستون» وجلست على كرسي.

بدا إقناع فرانسين رولار بالمجيء عسيرًا؛ فقد مضت دقائق طوال قبل أن تلج غرفة الكنوز أخيرًا، وحين حضرت، بدت عليها علائم الخوف والتردد. كانت فتاة بالكاد تجاوزت العشرين من عمرها، كانت أنيقة ومهندمة وجميلة، وأشبه بمخلوق بري خجول خرج للتو من الغابة. راحت فرانسين تقلب نظرها بعينين قلقتين وبملامح تنم عن الريبة في المجموعة التي كانت في انتظارها، لكن تلك الريبة كانت أشبه بريبة سكان البراري تجاه أهل الحضر.

قال هانو بلطف: «لقد استدعيتكِ آنسة رولار لأنني بحاجة إلى امرأة أخرى لمساعدتي في تمثيل مشهد صغير.»

ثم استدار نحو آن أبكوت.

وقال: «والآن يا آنسة، هلَّا كررتِ حركاتك بالضبط في الليلة التي تُوفيت فيها السيدة هارلو؟ دخلتِ الغرفة ... هكذا. ووقفتِ إلى جانب مفتاح الكهرباء هناك. وشغَّلته، ولاحظتِ الوقت، ثم أطفأتِه سريعًا. ذلك لأن هذا الباب الواصل بين الحجرتين كان مفتوحًا على مصراعيه ... هكذا! ... وكان الضوء القوي يتدفق من غرفة نوم السيدة هارلو عبر المدخل.»

كان هانو منهمكًا؛ فكان يقف أولًا بجوار آن للتأكد من وقوفها تمامًا في الموضع المحدَّد، ثم يهرع عَبْر الغرفة ليفتح الباب على مصراعيه.

تابع هانو: «لقد رأيتِ الضوء ينعكس عن زخارف المحفَّة وألواحها، على الجانب الآخر من المدفأة عن يمينك. هكذا! وقفتِ هناك في الظلام يا آنسة، و...» هنا مطَّ هانو كلماته فسادت بينها فواصل ضئيلة: «سمعتِ صوت صراع في غرفة النوم والتقطت أذنكِ بضع كلمات مهموسة بوضوح.»

ارتجفت آن وأجابت: «نعم.» كان واضحًا أن أسلوب حديثه الرسمي والجاد قد بثَّ فيها الرهبة. فنظرت إليه بعينين مضطربتين.

وواصل: «قفي هناك مرة أخرى إذن، وعاودي الاستماع كما فعلتِ في تلك الليلة. أنا ممتن لكِ!» ثم التفت إلى بيتي وقال: «والآن يا آنسة بيتي، وأنتِ يا فرانسين رولار، من فضلكما تعاليا معي.»

ثم تحرك نحو الباب الواصل، لكن بيتي لم تحاول حتى النهوض من كرسيها.

وقالت وقد شحب وجهها وارتعش صوتها: «سيد هانو، يمكنني تخمين ما تنوي فعله، لكنه أمر فظيع وقاسٍ جدًّا علينا، ولا أرى كيف سيكون هذا مجديًا.»

فقاطعتها آن أبكوت قبل أن يتاح لهانو الرد. بدَت أشد اضطرابًا من بيتي، رغم يسر دورها بلا ريب.

فقالت: «لن يجدي بشيء على الإطلاق. لماذا يجب أن نمثِّل الآن هذا المشهد المروع الذي عِشنا تفاصيله من قبل؟»

فاستدار هانو وهو عند المدخل.

وقال: «سيداتي، أرجوكن أن تدعانني أفعل ما أريد بطريقتي. أعتقد أنكن ستدركن بأنفسكن عندما أنتهي أن تجربتي لم تكن بلا جدوى. أتفهم بالطبع أن هذه اللحظات تجلب معها الضيق والكرب. لكن — واعذروني على قولي هذا — أنا لديَّ أولويات أخرى» وكان في صوته هدوء وجدية جعلت كلماته لا تحمل أي إهانة رغم قسوتها. «كلا، أولويتي هي امرأة أكبر من أي منكما بضعفي العمر، انتهت حياتها التعيسة هنا ليلة السابع والعشرين من أبريل. أتذكر الآن صورتين أريتِنيهما هذا الصباح يا آنسة هارلو ... وقد أثَّرا بي كثيرًا. نعم، هذه هي الحقيقة.»

وأغلق هانو عينيه كما لو كان يرى الصورتين ماثلتين أمامه. ثم صاح بصوت متأثر: «أنا نصيرها! أنا ناصر تلك المرأة المفجوعة! إذا كانت قد قُتلت، فإنني أنوي اكتشاف الجريمة وعقاب قاتلها!»

لم يسبق لفروبيشر أن ظن أن هانو يمكن أن يتحول بهذا الشكل، وأن يشعر أو يتحدث بهذه العاطفة الجياشة. وقف أمامهم منتصبًا ومتهيبًا، وقد تلاشت عنه كل جلافة، فصار كمن يحمل سيفًا متأججًا.

«أما أنتما يا سيدتيَّ، فأنتما بَعدُ شابتان. ماذا يعني قليل من الضيق لكما؟ أو بضع قشعريرات من الانزعاج؟ كم ستدوم؟ أرجو ألا تعرقلا عملي!»

نهضت بيتي من كرسيها دون كلمة أخرى. لكنها بذلت جهدًا لتنهض، وعندما وقفت أخيرًا، تمايلت قليلًا وكان وجهها أبيض كالطباشير.

وقالت كمَن يعاني من إعاقة في الكلام: «هلمي بنا فرانسين! يجب أن نُظهر للسيد هانو أننا لسنا جبناء كما يظننا.»

لكن فرانسين ظلت مترددة.

وقالت: «أنا لا أفهم أي شيء على الإطلاق. أنا مجرد فتاة فقيرة، وهذا الأمر يخيفني. الشرطة، كم هم ماكرون! إنهم ينصبون الفخاخ.»

فضحك هانو.

وقال: «وكم مرة يقع الأبرياء في فخاخهم؟ أخبريني آنسة فرانسين!»

ثم استدار بنظرة أقرب إلى الازدراء نحو غرفة السيدة هارلو. وتبعته بيتي وفرانسين مباشرة، ثم تبعهم الآخرون من خلفهم، وكان فروبيشر آخرهم. إذ كان مترددًا في مشاهدة تجربة هانو بقدر ما كانت الفتيات مترددات في المشاركة فيها. بدا له الأمر وكأنه مشهد مسرحي. وكأنه إعادة تمثيل متخيلة للمشهد الذي وصفته آن أبكوت، ولا شك أن اختبار صدقها كان غايته. سيكون اختبارًا للأعصاب بحق أكثر منه اختبارًا لبراءتها، ولذلك لم يكن الاختبار بالنسبة إليه موثوقًا ولا عادلًا. لكنه توقف عند المدخل ليهمس بكلمة تشجيع لآن، لكنها كانت تحدق مرة أخرى بتلك النظرة المليئة بالحيرة في الساعة المعلَّقة على الخزانة المطعمة.

فقال: «لا داعي للخوف يا آن» فحولت آن عينيها عن الساعة. الآن كانت عيناها تلمعان وهي تنظر إليه.

وقالت بابتسامة: «كنت أتساءل إن كنت سأسمعك تناديني باسمي يومًا ما. شكرًا لك يا جيم!» ثم ارتبكت للحظة فاحمر وجهها فجأة. وأضافت بصوت منخفض وضحكة صغيرة «سأخبرك، كنت أشعر بالقليل من الغيرة» كما لو كانت خجلة قليلًا من اعترافها.

ومن حسن حظ جيم أن ظهور هانو عند المدخل أعفاه من الرد.

قال هانو مبتسمًا: «أكره أن أقاطعك يا سيد فروبيشر، لكن من المهم جدًّا أن تستمع الآنسة دون أي شيء يشتت انتباهها.»

دخل جيم فروبيشر إلى غرفة النوم فأصابته الدهشة. كان المفوض وكاتبه ومعهما السيد بيكس يقفون في مجموعة منعزلة قرب إحدى النوافذ. وكانت بيتي هارلو ممددة على فراش السيدة هارلو، أما فرانسين رولار، فقد وقفت ملتصقة بالحائط بالقرب من الباب، وقد بدا عليها الذعر الشديد، وعيناها تجولان في الغرفة بتوتر وريبة كما لو كانت مخلوقًا بريًّا وقع في فخ. لكن لم يكُن هذا المشهد الغريب هو ما صدم جيم فروبيشر، بل شيء آخَر، شيء غريب، بل يكاد يكون مروعًا، في ملامح بيتي نفسها. كانت تتكئ على مرفقها وعيناها مثبتتان على الباب بنظرة شديدة الغموض والحدة، نظرة لم يرَ مثلها من قبل. كانت منفصلة تمامًا عن محيطها؛ فلم يكن للتجربة التي تهابها فرانسين أي دلالة لديها. فوثب إلى ذهن جيم التعبير القديم «كأنها ممسوسة» إذ كان وجهها جامدًا كقناع، قناع من مشاعر متجمدة مكبوتة. لكن هذا المشهد الغريب لم يستمر سوى لحظة واحدة. فسرعان ما تراخت ملامحها؛ فاستلقت على الفراش وعيناها تتابعان تحركات هانو وكأنها بانتظار تعليماته.

وجَّه هانو جيم بإشارة من إصبعه أن يأخذ مكانه مع المجموعة عند النافذة. ثم تموضع بنفسه على جانب الفراش وأومأ إلى فرانسين. اقتربت فرانسين ببطء نحو حافة الفراش. فأشار إليها بنفس الطريقة الصامتة لتأتي مقابله على الجانب الآخر من الفراش. رفضت فرانسين في بداية الأمر. إذ وقفت عند حافة الفراش تمامًا وهي تهز رأسها بعناد. كانت خائفة من أن تكون ضحية خدعة ما، وعندما تقدَّمت أخيرًا إلى الموضع الذي عُيِّن لها بعد إشارة من بيتي، كانت تتقدم بخطوات حذرة كما لو كانت تخشى أن تنفتح الأرض من تحتها فتبتلعها. أومأ إليها هانو مرة أخرى، فنظرت إلى قصاصة من الورق كتب عليها هانو بعض الكلمات. كان جليًّا أنها تلقَّت التعليمات، وحصلت على تلك القصاصة بينما كان جيم يتحدث مع آن أبكوت. كانت فرانسين تعرف ما ينبغي أن تفعل، لكن طبيعتها الريفية المتشككة كانت تعلن العصيان التام. ظلَّ هانو يحدق إليها بتركيز شديد، مسلطًا نظراته عليها حتى أجبرها أخيرًا على الامتثال، فانحنت رغمًا عنها إلى الأمام فوق جسد بيتي هارلو الممدد.

وهنا أومأ هانو، فهمست بصوت خفيض وواضح:

«هذا ... سيفي ... بالغرض.»

وما كادت تنطق بهذه الكلمات الثلاث التي قالت آن أبكوت أنها سمعتها ليلة موت السيدة هارلو حتى كررها هانو نفسه وبالنبرة الهامسة نفسها.

ثم هتف بصوته الطبيعي، موجِّهًا حديثه نحو الباب:

«هل سمعتِ يا آنسة؟ هل كان هذا هو الهمس الذي بلغ مسامعكِ في الليلة التي توفيت فيها السيدة هارلو؟»

حبس جميع من في الغرفة أنفاسهم بانتظار الإجابة. حتى فرانسين رولار نفسها، التي كان وجهها متشنجًا من الخوف والشك، ظلت تراقب هانو في قلق شديد. ثم جاء الرد.

«نعم، لكن من همس بهذه الكلمات أيًّا كانت هويته، فقد همس بها مرتين ظهر اليوم. لكن في الليلة التي نزلتُ فيها إلى غرفة الكنوز في الظلام، لم أسمع همسًا بهذه الكلمات سوى مرة واحدة.»

«هل كان الصوت الذي نطق بالكلمات اليوم هو الصوت نفسه الذي سمعتِه في تلك الليلة؟»

«أجل ... أعتقد ذلك ... لم ألحظ أي فرق ... نعم.»

فرفع هانو ذراعيه بحركة مسرحية يائسة، ثم قال مخاطبًا من بالغرفة:

«الآن تفهمون تجربتي الصغيرة. صوت هامس! كيف يمكن تمييزه عن صوت هامس آخر؟ ليس ثمة نبرة، ولا عمق، ولا نعومة. بل حتى لا يمكن تحديد ما إذا كان صوت رجل أم امرأة. ليس لدينا أي دليل، كلا، ولا حتى أضعف خيط، لمعرفة هوية الشخص الذي همس. «هذا سيفي بالغرض» في الليلة التي توفيت فيها السيدة هارلو.» ثم لوَّح بيده نحو السيد بيكس. وقال: «سأكون ممتنًّا لو فتحت هذه الخزائن الآن، ولتخبرنا الآنسة هارلو، بقدر معرفتها، إن كان هناك شيء قد سُرق أو عُبِث به.»

عاد هانو إلى غرفة الكنوز، تاركًا السيد بيكس وبيتي يؤديان عملهما، تحت إشراف المفوض وسكرتيره. فلحق به جيم فروبيشر. لكنه كان بعيدًا كل البعد عن الاقتناع بأن هانو قد كشف عن الغرض الحقيقي من تجربته. استحالة التعرف على صوت هامس! هذا شيء لا بد أن هانو صادفه في مئات القضايا! كلا، هذا التفسير لا يفي بالغرض تمامًا. لا بد أن هناك سببًا حقيقيًّا آخر لهذا المشهد المسرحي الذي دبَّره. كان يتبع هانو أملًا في استجلاء السبب، فلما سمعه يتحدث بصوت خافت، توقف داخل غرفة الملابس عند الباب الواصل، حيث استطاع سماع كل كلمة خفية عنه.

كان هانو يخاطب آن أبكوت: «آنسة، هناك شيء ما بشأن هذه الساعة يثير انزعاجكِ.»

«نعم ... بالطبع، هذا مجرد وهم ... لا بد أنني مخطئة ... فها هي الخزانة، وفوقها الساعة.»

استطاع جيم أن يحدد من صوتيهما أنهما كانا يقفان معًا بالقرب من الخزانة المزخرفة.

فعاجلها هانو: «نعم، صحيح. لكنكِ ما زلتِ منزعجة.»

ساد صمت وجيز. استحضر جيم في ذهنه صورة الفتاة وهي تنظر من الباب إلى الساعة، ثم تعود بنظرها مرة أخرى إلى الباب. لا شك أن ذلك المشهد الذي جرى في غرفة النوم كان يهدف إلى استدراج اعتراف من آن أبكوت بزيف قصتها. فهل ما يفعله هانو الآن بعدما أخفقت تجربته هو أن يلجأ إلى حيلة أخرى، هل ينصب فخًّا جديدًا؟

وألحَّ هانو يسألها: «أخبريني؟ ما الذي يزعجك؟»

أجابته آن بصوت يشوبه التردُّد: «يبدو لي أن الساعة الآن أقصر مما كانت عليه. بالطبع هذا غير ممكن ... فقد لمحتُها لمحة سريعة وحسب ... لكن ذكراها في غاية الوضوح — إذ كانت الغرفة كلها واضحة أمامي في لحظة من الإضاءة الساطعة، ثم اختفت في الظلام مرة أخرى ... نعم، بدت لي الساعة وكأنها موضوعة في مستوى أعلى ...» وفجأة، توقفت عن الكلام، وكأن يدًا خفية أمسكت بذراعها محذرةً إياها. هل ستتابع قولها؟ هكذا تساءل جيم في نفسه حين ظهر هانو أمامه في مدخل الباب فجأة وبصمت تام وكأنه وحش مباغِت.

قال هانو، بنبرة ارتياح غريبة في صوته: «نعم، سيد فروبيشر، سنضطر إلى تجنيدك في المباحث الجنائية قريبًا جدًّا. هذا واضح. تفضل بالدخول!»

وأخذ جيم من ذراعه وتقدَّم به إلى داخل الغرفة.

وتابع حديثه مع آن فقال: «أما بالنسبة لأمر هذه الساعة، واشتعال الضوء وانطفائه، فسيكون من المدهش للغاية إن أنتِ استطعتِ رؤية كل التفاصيل بدقة مطلقة أثناء تلك اللحظة الخاطفة. كلا، لا جدوى من هذا الأمر!» ثم ألقى بنفسه على كرسي وجلس صامتًا للحظة، في وضع يوحي بالإحباط العميق.

ثم قال مخاطبًا جيم: «لقد قلت لي هذا الصباح أيها السيد إنني ليس لديَّ شيء أستند إليه، وإنني أقذف بالظنون هنا وهناك، وأثير فتنًا قديمة كان من الأفضل تركها نائمة، وفي النهاية لا أحقق أي اكتشاف. لعمري إنك محق! تأمل تجربتي الصغيرة! أرأيت فشلًا أحطَّ من هذا؟»

ثم انتصب في جلسته متأهبًا.

وسأل: «ما الخطْب؟»

خطرت لجيم فروبيشر فكرة ألمعية فجأةً؛ فقد أنارت تعابير الإحباط الشديد على وجه هانو ذهنه. صحيح أن التجربة التي أجراها لم تنجح. لكنها كانت تستهدف فرانسين رولار. لقد استدعى فرانسين رولار فجأة، وأمرها على الفور بأداء مشهد، كلا، بل بلعب الدور الرئيسي فيه، على أمل أن يُحكم قبضته عليها فتنهار، مما يدفعها للاعتراف بشيء ما. وكانت شكوكه تحوم حول آن. إذَن، لا بد أن آن كان لديها شريك متواطئ. إذَن، كان الهدف الحقيقي من التجربة هو كشف هذا الشريك. لكن التجربة باءت بفشل مدوٍّ، وهذا ما اعترف به هانو. ولا شك في أن فرانسين نكصت فزعًا من هذه البليَّة، لكن سبب نكوصها كان جليًّا؛ وهو الخوف من الشرطة، وارتيابها من أن فخًّا يُنصب لها، وكذلك قصور يدها لجهلها. لم تسلِّم فرانسين نفسها لحبائل هانو. لكن جيم لم يفصح عن هذا التحليل لهانو. أما عن سؤاله عما به من خطْب، فقد أجاب ببساطة: «لا شيء.»

ضرب هانو براحتي يديه على ذراعي كرسيه بقوة.

وقال: «لا شيء، ها؟ لا شيء! هذه هي الإجابة الوحيدة التي نحصل عليها في هذه القضية! لكل سؤال نطرحه! لكل بحث نجريه! لا شيء، ثم المزيد والمزيد من اللاشيء» وبينما كان يختتم جملته وصوته يخفت، انطلقت صرخة مفاجئة من داخل غرفة النوم.

فهتفت آن: «بيتي!»

طرح هانو عنه إحباطه كما لو كان معطفًا يرتديه. وهُيِّئ لجيم للحظة أن هانو نهض من كرسيه واجتاز غرفة الملابس قبل أن تتلاشى الصرخة. ولا شك أن بيتي لم تكُن قد تحركت عندما جاءوها. كانت واقفة أمام منضدة الزينة، تنظر في صندوق مجوهرات كبير من الجلد المغربي ذي لون أزرق داكن، وكانت ترفع غطاءه وتعيد إغلاقه مرارًا بإنكار تام.

قال هانو: «آه، الصندوق غير مقفل! لدينا شيء ما، سيد فروبيشر! ها هو صندوق مجوهرات غير مقفل، وصناديق المجوهرات لا تفتح نفسها بنفسها. أكان هنا؟»

ثم ألقى نظرة نحو الخزانة الجدارية المفتوحة.

قالت بيتي: «نعم، فتحتُ الباب، وحملتُ الصندوق من مقبضيه الجانبيين، وعندما لمسته، انفتح الغطاء.»

«هلا فحصتِه من فضلك، تأكدي إن كان هناك شيء مفقود.»

في حين شرعت بيتي تراجع محتويات الصندوق، توجه هانو نحو فرانسين، التي كانت واقفة جانبًا. فأمسك بذراعها وقادها إلى الباب.

وقال لها: «أنا آسف إن كنتُ قد أخفتكِ يا فرانسين. لكننا — نحن الشرطة — لسنا مخيفين إلى هذا الحد في نهاية المطاف، حسنٌ؟ كلا لسنا كذلك، فطالما أن الخادمات المهذبات يحفظن ألسنتهن، يمكننا أن نكون أصدقاء طيبين. لكن، يا صغيرتي فرانسين، إن كثر الحديث وتفشَّت الشائعات، وجاء الغد بذلك الفتى الوسيم مساعد الخبَّاز، ناشرًا في أرجاء ديجون حكاية تجربة هانو الصغيرة، فسيدرك هانو أين يجد الثرثارات.»

فصاحت فرانسين: «لن أنبس ببنت شفة أيها السيد.»

فردَّ عليها هانو بنبرة ناعمة ورقيقة على نحو رهيب: «وكم سيكون هذا تصرُّفًا حكيمًا منكِ يا صغيرتي فرانسين! ذلك لأن العم هانو يمكن أن يكون أشرس الرجال على الإطلاق عندما يتعلَّق الأمر بالثرثارات الصغيرات. آه، آه، نعم! إذ يمسك بهن بإحكام — هكذا — وستمرُّ فترة طويلة جدًّا قبل أن يقول لهن «هذا سيفي بالغرض!».»

ثم أنهى تهديداته بضحكة ودودة ودفع فرانسين بلطف خارج الغرفة. ثم عاد إلى بيتي، التي كانت قد رفعت الغطاء العلوي للصندوق، وشرعت في فتح بعض العلب الصغيرة المرصوصة في قاعه. كانت الأضواء تتلألأ على العقود والأساور والخواتم، لكن بيتي ظلت تبحث.

فسألها هانو: «هل ثمة شيء مفقود، يا آنسة؟»

«نعم.»

فتابع هانو يقول: «كان ذلك أمرًا مؤكدًا. إذا ارتُكبت جريمة قتل، فلا بد أن هناك سببًا. بل سأتجرَّأ حتى على افتراض أن القطعة المفقودة ذات قيمة كبيرة.»

أقرَّت بيتي قائلة: «هي كذلك فعلًا. لكنني أظن أنها ربما تكون قد وُضعت في غير مكانها وحسب. لا شك أننا سنجدها في مكان ما، ربما في أحد الأدراج.» كانت تتحدث بهمَّة كبيرة وقد حمل صوتها نبرة رجاء أن يتوقف الأمر عند هذا الحد. ثم أضافت: «على أي حال، ما ضاع هو ملكي، أليس كذلك؟ ولن أتصرف مثل السيد بوريس، لن أقدم أي شكوى.»

هزَّ هانو رأسه.

وقال: «أنتِ في غاية الطيبة واللطف يا آنسة. لكن للأسف! لا يمكننا هنا أن نقول «هذا سيفي بالغرض».» وقد أثار دهشة جيم مدى إلحاحه في تكرار تلك الكلمات التي

هُمس بها ليلة وفاة السيدة هارلو. «فنحن لا نتعامل مع قضية سرقة، بل مع قضية قتل. يجب أن نستمر بالإجراءات. ما هي القطعة المفقودة؟»

قالت بيتي على مضض: «عقد من اللؤلؤ.»

«أهو عقد كبير؟»

كان من اللافت للنظر أنه مع زيادة تردُّد بيتي، كان يزيد إصرار هانو وحدته.

«ليس كبيرًا جدًّا.»

«صِفيه لي يا آنسة!»

ترددت بيتي قليلًا. وقفت تنظر نحو الحديقة بملامح مضطربة. ثم أذعنت بعد أن هزَّت كتفيها تسليمًا.

فقالت: «كان مكونًا من ٣٥ حبة لؤلؤ ... لم تكُن كبيرة جدًّا، لكنها متطابقة تمامًا، وذات لون وردي رائع. لقد استغرق عمي سنوات وتكبَّد عناءً كبيرًا لجمعها. وقد أخبرتني السيدة بنفسها أن العقد كلفه قرابة ١٠٠ ألف جنيه. سيكون ثمنه الآن أكثر من ذلك بكثير.»

قال هانو بحماس: «إنه يمثِّل ثروة، إذن.»

لم يكن هناك أحد ممن في الغرفة يعتقد أن العقد قد وُضع في غير مكانه عن طريق الصدفة. كان الجميع متأكدين من أنه قد سُرق. وبهذا، بدأ هانو في بناء قضيته بثبات. ربما فشلت بعض تجاربه. لكن ما أهمية ذلك الآن؟ لقد ظهر دافع للقتل. وقد شعر جيم بإحساس داخلي يخبره أن لا شيء الآن سيمنع الوصول إلى الحقيقة؛ وسينير ضوء الحقيقة تلك البقعة المظلمة في النهاية، كشعاعٍ يجوب الملايين من السنين؛ حيث سيقف شخص ما عاجزًا ومذهولًا أمامه؛ ذلك الشخص هو الجاني.

وسألها هانو: «مَن غيرِك كان يعرف بأمر هذا العقد يا آنسة؟»

«كل من في المنزل يا سيدي. فقد كانت سيدتي هارلو ترتديه بشكل دائم تقريبًا.»

فسألها: «أكانت ترتديه إذَن يوم وفاتها؟»

شرعت بيتي تقول: «أجل، أنا ...» ثم التفتت نحو آن طلبًا لتأكيدها، ثم أشاحت عنها مرة أخرى بسرعة. وقالت: «أعتقد ذلك.»

قالت آن بصوت ثابت «أنا متأكدة من ذلك»، الرغم من أن محياها قد شحب، وبدت عيناها حائرتين.

فسأل هانو بيتي: «منذ متى تعمل فرانسين رولار لديكِ؟»

أجابت بيتي بضحكة خفيفة: «منذ ثلاث سنوات. كلا، بل أكثر من ذلك بقليل. إنها الخادمة الوحيدة التي حظيت بها على الإطلاق.»

قال هانو بتدبُّر: «فهمت»؛ وقد بدا لجيم فروبيشر أن ما فهمه هانو قد فهمه أيضًا كل من كان بالغرفة. ذلك أن أحدًا لم ينظر إلى آن أبكوت. فالخدم القدامى لا يسرقون عقود اللؤلؤ الثمينة؛ وكان الوحيدون الذين انضموا حديثًا إلى منزل كرينيل هم آن أبكوت وجين بودان، الممرضة صاحبة الشخصية الحسنة والسلوك الطيب. كان هذا هو مجرى الجدل، حتى لو لم ينطق أحد بذلك.

ثم اقترب هانو من القفل الموجود على الخزانة وهز رأسه بعد فحصه. ثم تقدم نحو منضدة الزينة وصندوق المجوهرات المصنوع من الجلد المغربي.

وقال باهتمام مفعم بالحيوية: «آها! هذه مسألة مختلفة تمامًا»، ثم انحنى أكثر ليدقق النظر.

كان الصندوق لا يحتوي على قفل بمفتاح. بل كان مزودًا بثلاثة مقابض صغيرة مذهبة في واجهته، وكانت آلية الإغلاق تعتمد على عدد اللفات التي يُلفُّ بها كل مقبض. كان من الممكن بالطبع تغيير هذا النمط من الإغلاق في أي وقت، لكن يجب معرفة التوليفة الصحيحة لفتح الصندوق. إذَن كان للصندوق نظام حماية يعتمد على رمز سري.

قال هانو وهو ينهض: «لم يُستخدم العنف في فتحه.»

قالت بيتي: «من المحتمل بالطبع أن عمتي قد نسيت إغلاق الصندوق.»

وافقها هانو: «بالطبع، هذا احتمال وارد.»

وأضافت: «هذه الغرفة كانت متاحة أيضًا للجميع منذ جنازة عمتي وحتى صباح الأحد، عندما تم إغلاق الأبواب بالشمع.»

قال هانو: «طوال أسبوع تقريبًا ... مع وجود بوريس وابرسكي في المنزل.»

قالت بيتي: «نعم ... نعم. لكنني ... أرجِّح بشدة أن العقد ضائعٌ في مكان ما، وسنتمكن من العثور عليه. انظر، كان السيد بوريس يتوقع الحصول على بعض المال من محاميَّ في لندن. لا شك أنه كان يخطط للتفاوض معي. لا يبدو الأمر كما لو أنه هو السارق. فلو كان قد أخذه، لما كان في حاجة إلى المطالبة بمبلغ ١٠٠٠ جنيه.»

كان جيم قد نسي أمر بوريس تمامًا في تكهناته. لكن عندما ذكره هانو، قفز الأمل في نفسه للحظة أن يُكشَف أمره فيكون هو السارق بالفعل. لكن سرعان ما تلاشى هذا الأمل أمام منطق بيتي البارد والمعارض إلى حد بعيد. ومع ذلك، إذا كان بوريس وآن متواطئين

في الجريمة — لأن بوريس أراد ميراثه — فقد يكون العقد من نصيب آن. كانت كل الأدلة تشير نحو آن أبكوت بشكل جاد، بغض النظر عن الطريقة التي ينظر بها المرء إلى الأمر.

وقال هانو: «لا بأس، سنرى إن كان العقد قد وُضع في غير مكانه. لكن في هذه الأثناء يا آنسة، سيكون من الأفضل لكِ إغلاق الصندوق، وأخذ المجوهرات إلى المصرف في وقت ما بعد ظهر اليوم.»

أغلقت بيتي غطاء الصندوق وأدارت المقابض الثلاثة واحدًا تلو الآخر. فدوَّت في أرجاء الغرفة ثلاث نقرات سريعة ومتتابعة.

سألها هانو بحدة: «أرجو أنكِ لم تستخدمي التوليفة التي كانت تستخدمها السيدة هارلو.»

فقالت بيتي: «لم أعرف أبدًا التوليفة التي استخدمتها السيدة هارلو.» ثم رفعت الصندوق ووضعته داخل الخزانة الجدارية مرة أخرى؛ وبدأ البحث في الأدراج والخزائن الأخرى. لكنه كان بحثًا عقيمًا، تمامًا كما كان البحث في غرفة الكنوز عن السهم.

حتى قال هانو: «لا يمكننا فعل شيء آخر.»

«بل هناك شيء آخر.»

أتى التصحيح هادئًا من آن أبكوت. كانت واقفة بمفردها، وكانت شاحبة اللون ومتحدية. أدركت الآن أنها أصبحت موضع الشك. التجاهل المتعمد من جميع من في الغرفة لها لم يترك أمامها أي مجال للشك.

فنظر هانو في أرجاء الغرفة.

وسألها: «ما الذي يمكننا فعله بعد؟»

«يمكنك تفتيش غرفتي.»

صرخت بيتي بحدة: «كلا! لن أسمح بذلك!»

قالت آن: «من فضلك، إنه الشيء العادل الوحيد بالنسبة لي.»

أومأ سيد بيكس برأسه بقوة.

وقال: «هذا طلب صائب تمامًا من جانب الآنسة.»

ثم التفتت آن إلى هانو.

وقالت: «لن أذهب معكم. لا يوجد شيء مُغلَق في غرفتي باستثناء حقيبة جلدية صغيرة. ستجدون مفتاحها في الدرج الأيسر من منضدة الزينة الخاصة بي. سأنتظركم في المكتبة.»

انحنى هانو احترامًا لها، وقبل أن يتحرَّك من مكانه، قامت بيتي بفعل شيء جعل جيم يرغب في أن يعانقها فورًا أمام الجميع.إذ اقتربت من آن وأحاطت خصرها بذراعها. وقالت: «سأنتظر معكِ يا آن. هذا الأمر كله سخيف»، ثم قادت آن خارج الغرفة.

الفصل الخامس عشر

العثور على السهم

كانت غرفة آن تقع في الطابق الثاني، ونوافذها تطل على الحديقة، وتتكون من غرفة نوم وغرفة جلوس متصلتين مباشرة ببعضهما. كان السقف منخفضًا لكنه فسيح، وبينما تأمل هانو أرجاء غرفة النوم، قال بنبرة ملأها الشك:

«نعم ... في نهاية المطاف، إن شعر المرء هنا فجأة بالخوف وفقد صوابه، فربما يتعثر في هذه الغرفة في الظلام ويضل طريقه إلى مفتاح الإضاءة. لا يوجد مفتاح فوق الفراش.» ثم هزَّ كتفيه. واستطرد: «لكن بالتأكيد، سيكون المرء حريصًا على أن يكون بالإمكان التحقق من تفاصيله. لذا ...» واختفت نبرة الشك من صوته.

كانت كلمات هانو غامضة تمامًا بالنسبة لمفوض الشرطة وسكرتيره والسيد بيكس. بل إن موريس ثيفينيه نظر إليه بحدة، وكأنه على وشك أن يطرح أحد تلك الأسئلة التي دُعي لطرحها. بيدَ أن جيراردو، المفوض الذي كان يلهث بشدة إثر صعوده طابقين من السلالم، هو من بادر بالحديث.

فقال: «لن نجد هنا شيئًا يثير اهتمامنا. لم تكن تلك الفتاة الجميلة لتدعونا للبحث بين متعلقاتها الأنيقة لو كان هناك شيء يمكن اكتشافه.»

أجاب هانو: «من يدري! دعنا نرى!»

ابتعد عنهم جيم فدخل إلى غرفة الجلوس. إذ لم يجد رغبة في تتبع هانو والمفوض خطوة بخطوة أثناء بحثهما؛ وقد استبان له على الطاولة، في منتصف الغرفة، نشَّافة حبر وبعض أدوات الكتابة وأوراقها كان يرغب في تنظيم كل التخمينات والحقائق والأكاذيب التي عاشها خلال اليومين الماضيين وفرزها وترتيبها في ذهنه؛ ولم يكن يعرف طريقة

أفضل لفعل ذلك إلا بتسجيلها باختصار على طريقة «الإيجابيات والسلبيات» التي اتبعها روبنسون كروزو في جزيرته المهجورة. سيكون لديه ساعة من الهدوء أو نحو ذلك بينما يواصل هانو بحثه بلا كلل. فأخذ ورقة، واختار قلمًا عشوائيًّا من علبة الأقلام وبدأ الكتابة. إلا أن ذلك كلَّف آن أبكوت العديد من أوراق الكتابة، وقد سقطت ريشة الكتابة من حاملها أكثر من مرة وأعادها إلى مكانها قبل أن ينتهي. لكنه في النهاية استطاع اختصار المشكلة إلى النقاط التالية:

الحجج المؤيدة	الحجج المعارضة
(١) على الرغم من أن الشك في وقوع جريمة قتل نشأ في البداية فقط بسبب عودة كتاب «رسالة عن اسبورانثوس هسبيدوس» إلى رفِّه في المكتبة، فإن التطورات اللاحقة، مثل اختفاء السهم المسموم، وظهور جان كلاديل سيئ السمعة في المسألة، وقصة آن أبكوت عن زيارتها لغرفة الكنوز، والآن لغز سرقة عقد اللؤلؤ الخاص بالسيدة هارلو، تشكل جميعها دعوى ظاهرة الوجاهة للتحقيق.	(١) لكن في غياب أي أثر للسم في جثة المرأة الميتة، يصعب رؤية كيف يمكن تقديم المجرم إلى العدالة، إلا من خلال: (أ) اعتراف. (ب) ارتكاب جريمة أخرى مشابهة. نظرية هانو: من يستخدم السم مرة، يعود لاستخدامه دائمًا.
(٢) إذا تم ارتكاب جريمة قتل، فمن المحتمل أنها وقعت في الساعة العاشرة والنصف مساءً عندما سمعت آن أبكوت في غرفة الكنوز صوت شجار وهمسًا يقول: «هذا سيفي بالغرض.»	قد تكون قصة آن أبكوت كاذبة جزئيًّا أو كليًّا. فقد كانت تعلم أن غرفة نوم السيدة هارلو ستفتح وتفحص. فإذا كانت تعلم أيضًا أن عقد اللؤلؤ قد اختفى، فلا بد أنها أدركت أن من الحكمة أن تروي قصة قبل اكتشاف اختفائه، لإبعاد الشك عنها.
(٣) بغض النظر عن هوية مرتكب الجريمة — إذا كانت جريمة قتل قد وقعت — يتضح أن بيتي هارلو لا علاقة لها بها. فقد كانت تحصل على مصروف كبير. وكانت في حفل السيد بوياك ليلتها. علاوة على ذلك، بمجرد وفاة السيدة هارلو، أصبح العقد ملكًا لبيتي هارلو. لو كانت هي من ارتكبت الجريمة، لما اختفى العقد.	من الممكن أن يكون اختفاء العقد غير مرتبط بجريمة القتل، إذا كانت هناك جريمة قتل.

الحجج المؤيدة	الحجج المعارضة
(٤) إذن، من هم المشتبه بهم المحتملون؟	
(أ) الخدم.	(أ) يُحسب لجميع الخدم أنهم يعملون لسنوات طويلة في الخدمة في المنزل. ومن غير المحتمل أن أيًّا منهم كان يفهم ما يكفي عن كتاب «رسالة عن اسبورانثوس هسبيدوس» لاستخدامه.
(ب) جين بودان الممرضة. ربما نوليها المزيد من الاهتمام. فقد قبلنا بسهولة كبيرة أنها ليس لها علاقة بالأمر.	لا أحد يشك في جين بودين. فسجلها جيد ونظيف.
(ج) فرانسين رولار. لا شك أنها كانت خائفة ظهيرة اليوم. قد يكون العقد مصدر غواية بالنسبة لها. أكانت هي من انحنت فوق آن أبكوت في الظلام؟	كانت فرانسين خائفة من الشرطة كفئة، وليس بالضرورة من اتهامها بجريمة. وقد أدت دورها في المشهد التمثيلي من دون أن تنهار. ولو كانت قلقة، فإن السبب الوحيد لذلك هو السبب الذي ذكرته بالأعلى، وهو أنها مساعدة.
(د) آن أبكوت. تقديمها لأهل منزل كرينيل جرى من خلال وابرسكي وفي ظل ظروف مريبة. وهي فقيرة، وتعمل مرافقة بأجر، كما أن العقد يساوي ثروة كبيرة.	قد يكون تقديم آن أبكوت لأهل المنزل قابل للتفسير بشكل إيجابي. من المستحيل أن نصدر حكمًا بشأنها حتى نعرف المزيد عن تاريخها.
وكانت في المنزل ليلة وفاة السيدة هارلو. وقد أخبرت جاستون أن بإمكانه إطفاء الأنوار وأن يذهب لفراشه مبكرًا ذلك المساء. كان بمقدورها أن تُدخل وابرسكي بسهولة إلى المنزل وتأخذ العقد ثمنًا لتواطئها.	وربما تكون روايتها عما حدث ليلة السابع والعشرين من أبريل صحيحة من بدايتها إلى آخرها.

الحجج المؤيدة	الحجج المعارضة
وربما تكون القصة التي أخبرتنا بها في الحديقة هي القصة الحقيقية لما حدث بعد تعديلها. وربما كانت هي من همست «هذا سيفي بالغرض». ربما همست بها إلى وابرسكي.	في تلك الحال، تصبح نظرية وقوع جريمة قتل نظرية قوية للغاية. لكن من الذي همس «هذا سيفي بالغرض»؟ ومَن كان ينحني فوق آن أبكوت حين استيقظت؟
صلتها بوابرسكي كانت وثيقة لأن تجعله يعوِّل عليها في دعم اتهامه لبيتي.	
(هـ) وابرسكي. الوغد والمبتز المحتمل.	
كان في ضائقة مالية ويحتاج المال، وكان يتوقع إرثًا كبيرًا من السيدة هارلو. وربما كان قد أحضر آن أبكوت إلى المنزل وهو ينوي تنفيذ جريمة قتل. ولَمَّا أخفق في التربح والاستفادة من جريمته، اتهم بيتي بالجريمة ذاتها كتمهيد للابتزاز.	
بمجرد أن عرف أن جثة السيدة هارلو استُخرِجت وجرى عليها تشريح لتحديد سبب الوفاة، انهار. وكان يعرف أنه لن يوجد أثر للسم في جثتها إن كان قد استخدم السهم المسموم بنفسه. كان يعرف بأمر جان كلاديل، ووفق روايته، كان يمُرُّ بالقرب من متجر كلاديل في شارع جامبيتا. من المحتمل أنه كان في زيارة لكلاديل بنفسه ليدفع ثمن محلول سم اسبورانثوس.	لكن وابرسكي كان لينهار بنفس الشكل لو أنه اعتقد أن جريمة قتل لم تحدث من الأساس.

إذا كانت جريمة قتل قد ارتكبت، فإن أبرز المشتبه بهم هم آن أبكوت ووابرسكي، اللذين يعملان بالتنسيق فيما بينهما.

وصل جيم فروبيشر إلى هذا الاستنتاج على مضض، لكن حتى أثناء كتابته، كانت هناك أسئلة تدور في ذهنه ولم يجد لها إجابة. كان يدرك جيدًا أنه مبتدئ تمامًا في مثل هذه الأمور المتعلقة بالتحقيق في الجرائم؛ وكان يعرف أنه لو كانت إجابات هذه الأسئلة معروفة له، لربما اتخذت أفكاره اتجاهًا آخر.

لذلك كتب تلك الأسئلة المزعجة تحت ملاحظته كالتالي:
لكن

(١) لماذا لا يهتم هانو بعودة كتاب «رسالة عن اسبورانثوس هسبيدوس» إلى مكانه في المكتبة؟
(٢) ما الذي أثار دهشته على قمة برج تيراس؟
(٣) ما الذي كان ينوي قوله لي في المقهى في ساحة دارم ولم يقُلْه في النهاية؟
(٤) لماذا فتش هانو كل زاوية في غرفة الكنوز عن السهم السام المفقود، باستثناء داخل المحفَّة؟

أفاق جيم من تأملاته على صوت باب يُغلَق بهدوء. فنظر عبر الغرفة. كان هانو قد دخل الغرفة للتو من غرفة النوم، مغلقًا الباب الفاصل خلفه. وقد وقف ممسكًا بمقبض الباب وهو يحدِّق إلى فروبيشر بنظرة تجمع بين الفضول والذهول. ثم تحرك بسرعة إلى طرف الطاولة حيث كان جيم جالسًا.

قال بصوت منخفض وهو يبتسم: «كم تساعدني! كم تعاونني بحق!»

ورغم أن أذني جيم قد انتبهتا لنبرة السخرية، فإنه لم يلاحظ منه أي تلميح أو إشارة عليها. كان هانو يتحدث بأقصى درجات الصدق، وعيناه متقدتان ووجهه الضخم قد تغير تمامًا بفضل ذلك التعبير الحاد الغريب الذي ارتبط في ذهن جيم باكتشاف جديد في مجريات القضية.

قال هانو: «هل يمكنني رؤية ما كتبته؟»

أجاب جيم بتواضع: «قد لا يكون ذا قيمة بالنسبة لك»، لكن هانو لم يقبل بذلك.

إذ قال: «من المفيد دائمًا معرفة ما يفكر فيه الآخرون، والأهم ما يراه الآخرون. ماذا قلت لك في باريس؟ آخر شيء يراه المرء هو الشيء الموجود أمامه مباشرة»؛ ثم بدأ يُطلق ضحكات خفيفة ولكنها مستمرة وبكثير من الاستمتاع، وهو ما لم يفهمه جيم. ومع ذلك، رضخ وسلم هانو المذكرة، مدفوعًا بالخجل من أنها تبدو كشيء طفولي، لكنه كان يأمل في الحصول على إجابات عن بعض هذه الأسئلة المكتوبة.

جلس هانو عند طرف الطاولة بالقرب من جيم وقرأ العناصر والأسئلة بتأنٍّ شديد، مع همهمات عرضية وتعبيرات عن الموافقة والاستحسان بين الحين والآخر، لكن بتعبيرات وجه ثابتة إلى حدٍّ كبير. كان جيم في حيرة من أمره، بين أن ينتزع الورقة من يد هانو

ويمزقها، أو أن يتمعَّن بفخر كبير في عباراتها التي استحضرها. لكن شيئًا واحدًا كان واضحًا: وهو أن هانو أخذ الأمر بجدية.

جلس هانو يتأمل الورقة برهة.

ثم قال: «نعم، هذه أسئلة ومعضلات.» ثم نظر إلى فروبيشر بنظرات ودية. وأضاف: «سأقدم لك تشبيهًا. لدي صديق يصارع الثيران في إسبانيا. أخبرني صديقي هذا عن الثيران وكيف أن أولئك الذين يعتقدون أن الثور ليس ذكيًّا هم حمقى. نعم، لكن لا تقفز وتنظر إليَّ باستنكار وتخبرني كم أنا مبتذل وكم ذوقي سيئ. فأنا أعرف كل ذلك جيدًا. لكن استمع إلى صديقي مصارع الثيران! يقول إن كل ما يريده الثور، ليقتل جميع مصارعي الثيران في إسبانيا دون أن يخفق، هو القليل من الخبرة. وهو يتعلم بسرعة كبيرة. انظر! بين دخول الثور إلى الحلبة وموته، هناك ٢٠ دقيقة. ولا يجب أن يكون أكثر من ذلك، إذا كان المصارع حكيمًا. فالثور يتعلم قتال الحلبة بسرعة. وفي واقع الحال، أنا ثور عجوز خاض معارك في الحلبة مرات عديدة. وهذه هي أول مصارعة لك. لكن لم يمُرَّ من العشرين دقيقة إلا ١٠ دقائق فقط. وقد تعلمتَ الكثير بالفعل. نعم، فهذه بعض الأسئلة الذكية التي لم أتوقع منك أن تطرحها. وعندما تنقضي الدقائق العشرون، ستجيب عنها جميعًا بنفسك. في هذه الأثناء ...» هنا أخذ هانو قلمًا آخر وأضاف إضافة صغيرة إلى العنصر الأول «سأنتقل بهذه خطوة إلى ما هو أبعد. انظر!»

ثم أعاد وضع المذكرة أمام عيني جيم. فقرأ جيم:

«... التطورات اللاحقة، مثل اختفاء السهم المسموم، وظهور جان كلاديل سيئ السمعة في المسألة، وقصة آن أبكوت عن زيارتها لغرفة الكنوز، والآن لغز عقد اللؤلؤ الخاص بالسيدة هارلو، و«العثور على السهم»، تشكل جميعها دعوى ظاهرة الوجاهة للتحقيق.»

فقفز جيم من مكانه بحماس.

وصاح: «أعثرت على السهم إذن؟» وهو يلقي نظرة نحو باب غرفة نوم آن أبكوت.

أجاب هانو بابتسامة: «لم أكن أنا من وجده يا صديقي.»

«هو المفوض إذن؟»

«كلا، ليس المفوض.»

«هو سكرتيره إذن؟»

ثم عاود جيم الجلوس في كرسيه.

وقال: «أنا آسف. إنه يرتدي خواتم رخيصة. ولا يروق لي.»

فانفجر هانو ضاحكًا في ابتهاج وسرور.

وقال: «هوِّن عليك! أنا أيضًا لا أحب ذلك الشاب الذي يفخرون به جميعًا. لم يعثر موريس ثيفينيه على شيء.»

فنظر جيم إلى هانو في حيرة.

وقال: «هذا لغز.»

فرك هانو يديه ببعضهما.

وقال: «أثبت لي أنك قضيت ١٠ دقائق في حلبة الثيران.»

فأجاب جيم بابتسامة: «أعتقد أنني قضيت خمس دقائق فقط. دعني أفكر! لم يُعثر على السهم عندما دخلنا هذه الغرفة لأول مرة؟»

«كلا.»

«وعُثِر عليه الآن؟»

«نعم.»

«ولم تعثر عليه أنت؟»

«كلا.»

«ولا المفوض؟»

«كلا.»

«ولا موريس ثيفينيه؟»

«كلا.»

فحدَّق به جيم وهز رأسه.

ثم قال: «لم أقضِ ولو دقيقة واحدة حتى في حلبة الثيران. أنا لا أفهم شيئًا.»

كان وجه هانو مشرقًا بالاستمتاع.

فقال: «إذَن سآخذ مذكرتك وسأكتب مرة أخرى.»

ثم وارى الورقة عن ناظري جيم فروبيشر بكفه اليسرى، بينما كان يخط بيمينه. ثم بإيماءة تعبِّر عن الانتصار، وضعها مرة أخرى أمام جيم. كان هانو قد أجاب عن السؤال الأخير بخطه الصغير المنمَّق.

وقرأ جيم:

(٤) لماذا فتش هانو كل زاوية في غرفة الكنوز عن السهم المسموم المفقود، باستثناء داخل المحفَّة؟

وتحت السؤال، كتب هانو كما لو كان جيم فروبيشر نفسه هو من يجيب:

«كان خطأ هانو أن نسي فحص المحفَّة، لكن لحسن الحظ لم ينتج عن هذا الإغفال المؤسف أي ضرر. فالحياة، ككاتب مسرحي يعصى على التقييم، قد دبَّرت أن يكون نصلُ السهم هو القلم الذي سُطرت به هذه المذكرة.»

نظر جيم إلى حامل القلم ثم أسقطه بصيحة فزع وذهول.

ها هو السهم، بعموده النحيف الشبيه بالقلم والذي يتضخَّم قليلًا حيثما تمسك به الأصابع، وسن الكتابة المثبت في الشق الصغير لساق السهم الحديدي! تذكر جيم أن سن الكتابة انفصل مرة أو نحو ذلك ونثر الحبر على الصفحة، حتى أعاد هو تثبيته بعنف.

ثم واتته فكرة مروعة. فانفغر فاه؛ وحدق في هانو بذهول.

وتمتم قائلًا: «يُهيَّأ لي أنني وضعت طرفه في فمي بينما كنت أفكر في الجُمل التي سأكتبها.»

فصاح هانو: «يا إلهي!»، ثم انتزع حامل القلم وفركه في منديله بقوة. ثم نشر المنديل على الطاولة، وأحضر عدسة مكبرة صغيرة من جيبه، وراح يفحص المنديل بعناية شديدة. ثم رفع نظره بارتياح.

وقال: «لا يوجد أدنى أثر لذلك الطين البني المحمر الذي صنع عجينة السم. لقد جرى تنظيف السهم تمامًا قبل وضعه في علبة الأقلام. أنا مسرور. إذ لا يمكنني الآن أن أتحمَّل خسارة زميلي المبتدئ.»

تنفَّس فروبيشر نفَسًا عميقًا وأشعل سيجارة، وأعطى دليلًا آخر على أنه مبتدئ تمامًا في حلبة الثيران.

فقال: «يا له من جنون أن يوضع نصل السهم في علبة أقلام مفتوحة دون أي محاولة لإخفائه، وهو الذي يسهل على أي طفل التعرف عليه بمجرد نظرة إلى رسوم الكتاب!»

بدا الأمر كما لو أن آن أبكوت كانت تدفع عنقها عمدًا نحو حلقة المقصلة.

هز هانو رأسه.

وقال: «ليس الأمر بهذا الجنون يا صديقي! القواعد القديمة هي الأفضل. إذا أخفيت شيئًا في زاوية منعزلة، فسيُعثر عليه بالتأكيد. أما إذا وضعته عشوائيًّا أمام أنظار الجميع، فلن يراه أحد. كلا، كلا! كان هذا تصرفًا ذكيًّا. أنى لأحد أن يخطر بباله أنك ستجلس وتدوِّن مذكرتك الثمينة على ورق الآنسة آن، عوضًا عن متابعتنا في بحثنا؟ ولم تدرك القلم حتى تلك اللحظة. فما الذي قد يحملك على ملاحظته؟»

لكن جيم لم يكُن مقتنعًا.

فهتف: «لقد مرَّ أسبوعان منذ مقتل السيدة هارلو، إذا كانت قد قُتلت. ما لا أفهمه هو لماذا لم يتسنَّ التخلص من السهم بالكلية!»

ردَّ هانو: «لكن حتى هذا الصباح، لم يكُن هناك أي حديث أو أي شيء بشأن السهم. كان مجرد تحفة وقطعة أثرية في مجموعة ... فلماذا قد يتحمَّل المرء عناء تدميره؟ لكن في هذا الصباح، أصبح امتلاك السهم أمرًا خطيرًا. لذا وجب إخفاؤه على عجل. إذ لم تكُن ثم فسحة من الوقت. كانت مجرد ساعة كنا أنا وأنت خلالها نعجب بجبل مون بلان من أعلى برج تيراس.»

وأضاف جيم بسرعة: «وبينما كانت بيتي خارج المنزل.»

قال هانو: «نعم ... هذا صحيح. لم أفكر في ذلك. يمكنك إضافة هذه النقطة يا سيد فروبيشر إلى الأسباب التي تستبعد الآنسة هارلو من قائمة المشتبه بهم. نعم.»

جلس هانو يفكر لبعض الوقت، ويتحدث بين الحين والآخر بعبارات تبدو موجهة لنفسه أكثر منها لصاحبه: «أن تصعد إلى هنا ... وتفكِّك السهم ... وتصقل طرفه بأفضل ما يمكن لأحدهم أن يفعل وهو في عجلة من أمره ... ثم تصبغه بشيء من الورنيش ... ثم تخلطه مع الأقلام الأخرى في العلبة. ليس سيئًا!» وأومأ برأسه تقديرًا للحيلة. «لكن مع ذلك، بدأت الأمور تبدو قاتمة ومنذرة بالشر لآن، تلك الفتاة الرائعة صاحبة البشرة المتورِّدة والأسلوب الظريف.»

وجذب انتباهه صوت تحريك الأثاث في غرفة النوم المجاورة. فأزال سن الكتابة من رأس السهم.

وقال بسرعة: «سنحتفظ بهذا الأمر الصغير لأنفسنا في الوقت الراهن»، ثم لف حامل القلم المرتَجَل في ورقة من أوراق الكتابة. «أنا وأنت فقط من سنعرف عنه. ولا أحد غيرنا. هذه قضيتي أنا، وليست قضية جيراردو. لن نسبب الكثير من الألم والمتاعب إلى أن نصبح واثقين.»

ثم أجاب جيم بحماس: «أوافقك الرأي. هذا صائب، أنا متأكد.»

وضع هانو رأس السهم بعناية في جيبه.

ثم قال: «وهذه أيضًا»، وأخذ مذكرة جيم فروبيشر. «ليس من الجيد الاحتفاظ بها معك، فقد تفقدها. سأحفظها في مقر الشرطة مع الأشياء الصغيرة الأخرى التي جمعتها.»

ووضع المذكرة في حافظة رسائله ونهض من كرسيه.

وقال: «ستكون بقية قصبة السهم في مكان ما في هذه الغرفة، بلا شك، وسيكون من السهل رؤيتها. لكننا لن نجد الوقت للبحث عنها، كما أن الجزء المهم منه بحوزتنا في نهاية المطاف.»

والتفت نحو رف المدفأة، إذ كانت بعض بطاقات الدعوة مثبتة في إطار المرآة، وذلك تمامًا حين فُتح الباب وخرج المفوض مع سكرتيره من غرفة النوم.

وقال السيد جيراردو بصوت حاسم: «العقد ليس في تلك الغرفة.»

وأجاب هانو بتأكيد قاطع: «ولا هنا أيضًا. هلم بنا إلى الطابق السفلي.»

كان جيم في حالة ذهول تام. لم يجرِ تفتيش هذه الغرفة على الإطلاق بحثًا عن العقد. أولًا يتجاهل المحفَّة، ثم يتجاهل غرفة الجلوس هذه. وقد تقدَّمهم هانو في طريقهم نحو الدرج حتى دون أن يلقي نظرة خلفه. لا عجب أنه وصف نفسه وإخوانه في باريس بأنهم «خدم الصدفة.»

الفصل السادس عشر

هانو يضحك

في أسفل الدرج، شكر هانو مفوض الشرطة على مساعدته.

فقال: «أما بالنسبة إلى العقد، فسنفتش بالطبع أمتعة كل من في المنزل. لكننا لن نجد شيئًا. يمكننا أن نكون واثقين من ذلك. لأنه إذا كان العقد قد سُرق، فقد مر وقت طويل منذ سرقته بحيث لا يمكننا أن نأمل في العثور عليه هنا.»

وأومأ باحترام كبير لجيراردو فيما يرحل من المنزل، فيما تنحى بالسيد بيكس جيم فروبيشر جانبًا قليلًا.

وقال: «كنت أفكر في أن الآنسة آن ينبغي أن تحصل على بعض المساعدة القانونية. فأنا وأنت الآن مرتبطان بمسألة الآنسة هارلو. من الصعب قول الآتي بشكل لطيف؛ لكن مصالح هاتين الشابتين قد تكون مختلفة. لذلك وعلى أي حال، لن يكون من الصائب على الإطلاق أن أقدم لها خدماتي. لكنني أستطيع أن أوصي بمحامٍ جيد جدًّا في ديجون، وهو صديق لي. فقد يكون الأمر مهمًّا كما ترى.»

وافقه فروبيشر.

قائلًا: «قد يكون الأمر كذلك بالفعل. هلا أعطيتني عنوان صديقك؟»

وبينما كان يدوِّن العنوان، أدهشه هانو بضحكة عالية مفاجئة. الغريب في الأمر أنه لم يكن هناك أي شيء يبرر ذلك. كان هانو يقف منفردًا بينهم وبين الباب الأمامي. وفي الفناء الخارجي، لم يكن أحدٌ مرئيًّا. وبداخل القاعة، كان جيم والسيد بيكس يتحدثان بجدية وبصوت منخفض. فكان هانو يضحك دون سبب، وضحكته كانت تعبر عن شعور قوي بالراحة.

وهتف بنوع من الدهشة: «أعيش كل هذه السنوات ولم ألاحظ ذلك من قبل» كأن هناك شيئًا ينبغي أن يلاحظه ولم يفعل.

سأل جيم: «ما الأمر؟»

لكن هانو لم يجب على الإطلاق. بل اندفع عائدًا عبر القاعة متجاوزًا فروبيشر ورفيقه، واختفى داخل غرفة الكنوز، وأغلق الباب خلفه وأوصده بالقفل.

رفع السيد بيكس ذقنه عاليًا.

وقال: «إن ذلك الرجل لغريب الأطوار. لن يناسب ديجون.»

وأراد جيم الدفاع عن هانو.

فأجاب بيكس: «هذا ضروري في سياق عمله. هذا صحيح. إنه يرى أمامه صفًّا من الأضواء المسرحية في أي شيء يفعله وبأي درجة من الحماس.»

وافقه السيد بيكس قائلًا: «هناك رجال مثل هؤلاء.» ومثل كل الفرنسيين، يكون الرجل هادئ البال إذا استطاع أن يصنف الشخص ضمن فئة معينة.

لكن جيم استمر في المبالغة قليلًا بشيء من الفخر: «لكنه يفعل شيئًا مهمًّا جدًّا.» شعر جيم وكأنه قضى ١٥ دقيقة في حلبة مصارعة الثيران. وأردف: «إنه يبحث عن شيء ما في مكان ما. أخبرته أنا عنه. وكان هو قد أغفله تمامًا. وبخته هذا الصباح على تردده في قبول الاقتراحات من أشخاص متحمسين لمساعدته. لكنني بالتأكيد ظلمته. إنه مستجيب تمامًا.»

كان السيد بيكس منبهرًا وغيورًا قليلًا.

فقال: «يجب أن أفكر في بعض الاقتراحات لأقدمها لهانو. نعم، نعم! ألم تعرف إنجلترا مرة عقد لؤلؤ وُضِع في علبة ثقاب وأُسقط في قنوات الصرف عندما حميت المطاردة؟ ا يساورني شكٌّ في أنني قد مررتُ على ذلك. أرى لزامًا عليَّ أن أُخطر هانو بأنه سيُضطر لقضاء يومٍ أو نحو يومٍ في التنقيب عن علب الثقاب داخل قنوات الصرف. فقد يحالفه الحظ كثيرًا في العثور على عقد السيدة هارلو. نعم، بالتأكيد.»

وكان السيد بيكس مبتهجًا جدًّا بالفكرة الرائعة التي خطرت له. فقد شعر أنه عاد إلى مستوى زميله الإنجليزي. تخيل بيكس هانو وهو يتجول في شوارع ديجون ويشرح لكل من يسأله: «هذه فكرة السيد بيكس، الكاتب العدل. كما تعلمون، السيد بيكس من ساحة إتيان دوليه.» حتى يقترب من ... لكن السيد بيكس لم يحدد بالضبط قنوات الصرف التي سيكتشف فيها هانو علبة الثقاب التي تحتوي على حبات الخرز الثمينة، وذلك عندما انفتح باب المكتبة وخرجت بيتي إلى القاعة.

نظرت بيتي إلى الرجلين بدهشة.

وقالت: «وأين السيد هانو؟ لم أرَه يغادر.»

أجاب جيم: «إنه في غرفة الكنوز الخاصة بك.»

هتفت بيتي بصوت يعبر عن اهتمامها: «عاد إلى هناك!»

ثم مشت بسرعة إلى الباب وحاولت فتحه.

وصاحت بدهشة: «مقفل!» ثم قالت دون أن تلتفت: «لقد أغلق الباب على نفسه! لماذا؟»

أجاب السيد بيكس: «بسبب الأضواء المسرحية» فالتفتت إليه بيتي وراحت تنظر إليه. وأردف هو: «نعم، توصلنا إلى هذا الاستنتاج، أنا والسيد فروبيشر. ينبغي بكل ما يفعله أن يسدل الستار.» وفي تلك اللحظة، دار المفتاح في القفل مرة أخرى.

عاودت بيتي الالتفات عند سماع الصوت فوقفت في مواجهة هانو. نظر هانو من فوق كتفها إلى فروبيشر وهز رأسه بحزن.

سأل جيم: «إذن لم تجده؟»

أجاب هانو: «كلا.»

ثم حوَّل هانو نظره بعيدًا عن جيم إلى بيتي هارلو.

وقال: «وضع السيد فروبيشر فكرة في رأسي يا آنسة. لم أكن قد بحثت في تلك المحفَّة الرائعة. ربما كان العقد مخبَّأً خلف الوسائد. لكنه ليس هناك.»

فقالت بيتي ببرودة: «وقد أغلقت الباب يا سيدي. باب غرفتي، كما أريد أن أنوِّه.»

وقف هانو بكل وقار.

وأجاب: «نعم، آنسة. ثم ماذا؟»

تمهَّلت بيتي وكانت على وشك أن ترد برد حاد. لكنها لم تنطق به. بل هزت كتفيها وقالت ببرود وهي تبتعد عنه:

«لديك الحق في ذلك بلا شك يا سيدي.»

ابتسم هانو بود. لقد أساء إليها مرة أخرى. كانت تُظهِر له مرة أخرى الطفلة العنيدة التي رآها صباح اليوم السابق. لكن الابتسامة بقيت على وجهه. وفي مدخل المكتبة، كانت آن أبكوت واقفة، وجهها لا يزال شاحبًا، والنيران تستعر في عينيها.

قالت بنبرة تحدٍّ: «آمل أن تكون قد فتَّشت غرفتي يا سيدي.»

أجاب هانو: «بكل دقة يا آنسة.»

فقالت: «ولم تجد العقد؟»

أجاب: «كلا!» ثم اجتاز القاعة مشيًا نحوها وقد بدا صارمًا فجأةً.

وقال: «آنستي، أود أن تجيبي عن سؤال. لكنك لست مضطرة لذلك. أريدك أن تفهمي ذلك. لديك الحق في الاحتفاظ بإجاباتك حتى تقفي في مكتب قاضي التحقيق ثم تقدميها فقط بحضور وموافقة مستشارك القانوني. السيد بيكس سيؤكد لك ذلك.»

فضعفت روح التحدي والجموح لدى الفتاة.

وسألته: «ماذا تريد أن تسألني؟»

قال: «كيف أتيت بالضبط إلى منزل كرينيل؟»

خبت النار في عينيها؛ إذ ارتعش جفناها وهي تغلقهما. وبسطت يدها على عِضادة الباب لتسند نفسها. وفكَّر جيم ما إذا كانت قد خمنت أن رأس سهم سايمون هارلو مخبأ الآن في جيب هانو.

قالت: «كنت في مونت كارلو» ثم توقفت.

فواصل هانو بلا هوادة: «كنتِ وحدك تمامًا؟»

«نعم.»

«وبدون مال؟»

فصححت له آن: «بل كان معي القليل.»

رد هانو: «وقد خسرته.»

«نعم.»

«وتعرفت على بوريس وابرسكي في مونت كارلو؟»

«نعم.»

«وهكذا أتيت إلى منزل كرينيل؟»

«نعم.»

قال هانو بجدية: «الأمر برمته مدعاة للاستغراب يا آنسة» وتمنى جيم فروبيشر من كل قلبه: «لو أن الأمر كان مدعاة للاستغراب فقط!» لأن آن أبكوت ارتعدت أمام نظرة المحقق. بدا له أنها بعد سؤال آخر منه، سترتبك وسيتساقط من شفتيها اعتراف حقيقي. اعتراف بالتورط مع بوريس وابرسكي! ثم بعد ذلك؟ رأى جيم لمحة مرعبة عن المستقبل الذي ينتظرها. المقصلة؟ ربما مصير أسوأ من هذا بكثير. لأنه مع المقصلة سينتهي كل شيء سريعًا وستستريح. ستقضي بضعة أسابيع حادة ومؤلمة، ثم ستعاني الانتظار، تارة ستكون في نشوة من الأمل، وتارة في درك الجحيم؛ ثم تمُرُّ ببضع دقائق مرعبة عند بزوغ

فجر أحد الأيام ... ثم تحل النهاية! سيكون ذلك أفضل في نهاية المطاف من قضاء سنوات طويلة جدًّا بين المجرمين المدانين بالسجون في فرنسا في العمل المرهق وتناول طعام رديء وارتداء ملابس خشنة.

أشاح جيم بعينيه عنها وهو يرتجف من عدم الارتياح وأصابته صدمة صغيرة لَمَّا رأى أن بيتي كانت تراقبه باهتمام غريب؛ وكأن ما أهمَّها لم يكن النازلة التي نزلت بآن بقدر ما كانت مشاعره هو حيال ذلك.

في هذه الأثناء، كانت آن قد اتخذت قرارها.

فقالت: «سأخبرك على الفور بالقليل الذي لديَّ لأقوله.» كانت الكلمات شجاعة بما يكفي، لكن الشجاعة انتهت مع انتهاء كلماتها. كانت آن قد بدأت الاستجواب بتحدٍّ واضح. وأنهته بهمس بالكاد مسموع. ومع ذلك، استطاعت أن تحكي قصتها وهي تستند على عِضادة الباب. والواقع أن صوتها أصبح أقوى مع مواصلتها الحكي، وقد ظهرت على شفتَيها وفي عينَيها لمحة ابتسامة من استمتاع حقيقي أبرزت الغمازات في خديها.

قبل ١٨ شهرًا، كانت آن تعيش مع والدتها الأرملة في دورستشير، على بعد بضعة أميال من ويماوث. كانتا تعيشان حياة صعبة. والسبب في ذلك أن السيدة أبكوت وجدت نفسها في الوضع اليائس الذي توفره إنجلترا للسيدات النبيلات. كانت مالكة لقطعة صغيرة من الأرض، تدفع عليها الكثير من الضرائب، ثم يجري تقييم ملكيتها بأكثر من ثمنها بكثير مما يُفضي إلى المزيد من الضرائب. أما آن، فقد كانت تعتبر في الحي صاحبة موهبة فنية. عند وفاة والدتها، باعت العقار لصانع بثمن بخس، وانطلقت آن بالقليل من المال والكثير من الطموح إلى لندن.

«استغرق الأمر مني عامًا كاملًا لأفهم أنني كنت وسأبقى هاوية. أحصيت نقودي. وكان لديَّ ٣٠٠ جنيه متبقية. ماذا سأفعل بها؟ لم تكن كافية لإقامة متجر خاص بي. من ناحية أخرى، كنت أكره فكرة الاعتماد على الآخرين. لذا قررت أن أقضي ١٠ أيام مليئة بالمرح والمغامرة في مونت كارلو، فإما أن أحقق ثروة، أو أخسر كل شيء.»

وهنا تراقصت عيناها بابتسامة.

وهتفت في غير ندم: «لو عاد بي الوقت، لفعلت الشيء نفسه مرة أخرى! لم أكُن قد غادرت إنجلترا في حياتي، لكنني كنت أعرف القليل من الفرنسية التي تتعلمها الفتيات في المدرسة. فاشتريت بعض الفساتين والقبعات وانطلقت. قضيت أجمل الأوقات. كنت في التاسعة عشرة من عمري. كان كل شيء يسحرني، من عربات النوم في القطار إلى

مديري طاولات القمار. أقمت في أحد الفنادق الصغيرة على التل. وقد قابلت أشخاصًا كنت أعرفهم، وقدموني إلى نادي سبورتينج. أوه، كان هناك الكثير والكثير ممَّن أرادوا أن يكونوا رءوفين بحالي!»

قال هانو بجفاف: «هذا مفهوم تمامًا.»

ردَّت آن: «أوه، لكنهم كانوا لطفاء أيضًا.» وكان وجهها متوهجًا من ذكريات تلك الفترة القصيرة المبهجة: لقد نسيت تمامًا للحظة المأزق الذي كانت فيه، أو ربما كانت تتصرف بمكر لم يسبق لهانو أن رأى ما يتفوق عليه في كل خبرته مع المجرمين.

قالت: «على سبيل المثال، كان هناك موزع أوراق على طاولة الأحمر والأسود في القاعة الكبيرة لنادي سبورتينج. كنت دائمًا أحاول الجلوس بجانبه. ذلك لأنه كان يحرص على ألا يسرق أحد أموالي، كما كان يحرص، عندما أفوز، على تأميني لرهاني وعلى احتفاظي بالقليل من المكاسب من وقت لآخر. مكثت هناك خمسة أسابيع، وربحت ٤٠٠ جنيه … ثم مررت بلياليٍ ثلاث مروعات خسرت فيها كل شيء غير ٣٠ جنيهًا كنت قد خبأتها في خزانة الفندق.» ثم أومأت إلى جيم عند الجانب الآخر من القاعة. «يمكن للسيد فروبيشر أن يحكي لك عن الليلة الأخيرة. ذلك لأنه جلس بجانبي وحاول أن يهديني ١٠٠٠ فرنك بطريقة لطيفة.»

لكن هانو لم ينشغل بذلك.

إذ قال: «سيخبرني لاحقًا» ثم استأنف أسئلته. «هل قابلتِ وابرسكي قبل تلك الليلة؟»

«نعم، كنت قد قابلته قبل أسبوعين. لكنني لا أتذكر من قدمني له.»

«والآنسة هارلو؟»

«قدمني السيد بوريس إلى بيتي بعد يوم أو نحو ذلك في وقت الشاي في صالة فندق باريس.»

قال هانو: «آها!» ثم نظر إلى جيم وقد هزَّ كتفه هزَّة لم تكد تُلاحَظ. لقد أصبح واضحًا أكثر فأكثر أن وابرسكي كان قد أدخل آن أبكوت إلى هذا المنزل عن عمد، كجزء من خطة مدروسة بعناية وسيجري تنفيذها في الوقت المناسب.

فسألها هانو: «متى اقترح وابرسكي عليكِ الانضمام إلى الآنسة هارلو لأول مرة؟»

أجابت آن: «في تلك الليلة الأخيرة. كان يقف مقابلًا لي على الجانب الآخر من طاولة الأحمر والأسود. وقد رأى أنني أخسر.»

فقال هانو وهو يومئ برأسه: «نعم. لقد اعتقد أن اللحظة المناسبة قد حانت.»

مدَّ هانو ذراعَيه وترك يديه تسقطان على فخذيه. كان يشبه طبيبًا يواجه حالة ميئوسًا منها. ثم التفت قليلًا إلى الجانب عن آن، وكتفاه منحنيان، وعيناه المضطربتان مثبتتان على مربعات الرخام على الأرض. ولم يسع جيم إلا أن ظن أن هانو كان في هذه اللحظة يفكر فيما إذا كان يجب عليه أن يأخذ الفتاة إلى الحجز. لكن بيتي تدخلت.

فقالت بسرعة: «تمهَّل يا سيد هانو. لا شك في أن السيد بوريس ذكر الموضوع لآن لأول مرة في تلك الليلة. لكنني كنت قد أخبرت عمتي والسيد بوريس بالفعل أنني أود أن أعيش مع صديقة في عمري، وكنت قد ذكرت آن.»

نظر هانو إليها بتشكك.

وقال: «بعد معرفة قصيرة جدًّا بهذا الشكل يا آنسة؟»

لكن بيتي تمسكت بموقفها.

«نعم. لقد راقت لي كثيرًا منذ البداية. كانت وحيدة. وكان واضحًا أنها تنتمي إلى عالمنا. كانت هناك كل الأسباب القوية التي تجعلني أرغب في رفقتها. والأشهر الأربعة التي قضتها معي أثبتت لي أنني كنت على حق.»

ثم اجتازت الغرفة نحو آن بإيماءة صغيرة من التحدي تجاه هانو، الذي رد بابتسامة ودية وتحول إلى الحديث بالإنجليزية.

فقال: «يمكنني إذن التغاضي عن هذا، كما يقول صديقي العزيز ريكاردو. أهذا ما ترمين إليه؟ حسنًا، العالم كله يقف عاجزًا أمام الموالاة والإخلاص.» ثم انحنى لها انحناءة ودية. لم يكُن بإمكانه أن يخبر بيتي بعبارة أوضح أن تدخلها قد منع اعتقال آن؛ أو أن يخبر آن نفسها أنه يعتقد أنها مذنبة.

كل مَن كان في القاعة قد فهمه في هذا الصدد. وقد وقفوا بسفاهة يقلبون أنظارهم هنا وهناك ولا يعرفون أين ينظرون؛ وفي خضم انزعاجهم، وقع شيء طفيف وغير لائق أضاف إلى الموقف لمسة من الغرابة. صعدت فتاة ما الدرجتين إلى الباب المفتوح وهي تحمل صندوقًا كبيرًا مستطيلًا من الورق المقوى خاص ببائعة القبعات. كان إصبعها على الجرس عندما تقدم هانو.

قال: «لا حاجة للجرس. ماذا لديكِ هنا؟»

دخلت الفتاة إلى القاعة ونظرت إلى آن.

وقالت: «هذا فستان الآنسة للحفل الراقص ليلة الغد. كان من المفترض أن تعرج الآنسة لتجربته تجربة أخيرة لكنها لم تأتِ. لكن سيدتي جرولين تعتقد أنه سيكون على ما يرام.» ثم وضعت الصندوق على صندوق جانبي في الغرفة وخرجت مرة أخرى.

قالت آن: «كنت قد نسيت أمره تمامًا. لقد طلبناه قبل وفاة سيدتي ولم نجربه سوى مرة واحدة.»

أومأ هانو.

وقال: «هذا من أجل حفل السيدة لو فاي التنكرية، بلا شك. لاحظت بطاقة الدعوة على رف المدفأة في غرفة جلوس الآنسة. وبأي شخصية كانت الآنسة تنوي الذهاب؟»

فاجأت آن الجميع. إذ رفعت رأسها بينما اندفعت الدماء إلى وجنتيها وعيناها تلمعان.

وقالت: «ليس بشخصية السيدة دي برانفيلييه على أي حال يا سيدي.»

حتى هانو أُخِذ بردها.

ثم قال ببرود: «لم أقترح ذلك. لكن دعيني ألقي نظرة!» وفي لحظة، وبينما كان وجهه محمرًّا من الغضب، كانت يداه تعملان بسرعة على فك أربطة الصندوق المعبَّأ فيه الفستان.

فتقدمت بيتي.

وقالت: «ناقشنا هذا الفستان الصغير معًا يا سيدي منذ أكثر من شهر. من المفترض أن يمثل زنابق الماء.»

فقال هانو: «كم سيكون ساحرًا!» لكن أصابعه لم تتوقف عن العمل.

تساءل جيم فروبيشر: «هل يمكن أن يفضح الشك نفسه بوحشية أكبر؟» ماذا كان يتوقع أن يجد في ذلك الصندوق؟ هل كان يتخيل أن السيدة جرولين، بائعة القبعات تلك، متواطئة مع وابرسكي أيضًا؟ كان الحادث هزليًّا وتشوبه الفظاعة. رفع هانو الغطاء وقلب ورق التغليف. فظهر من تحته ثوب قصير من قماش الكريب دو شين بلون أخضر ناعم وحزام ذهبي ووردة ذهبية كبيرة على جانبه. وكانت التنورة مبطنة لتبرز عند منطقة الوركين، ومحاطة بصف من الورود البيضاء من الساتان وبها قلوب ذهبية. ولاستكمال الفستان، كان هناك زوج من الجوارب الحريرية البيضاء مزخرف بزخارف ذهبية رقيقة، وأحذية بيضاء من الساتان بأشرطة فردية تمر عبر مشط القدم وأهداب صغيرة متألِّقة تتدلى من حيث تزرر الأشرطة، وأربعة خطوط ذهبية في الخلف حول الكعبين.

تحسس هانو الجزء تحت الفستان وحوله من جوانبه، ثم أعاد الغطاء وانتصب مرة أخرى. لم ينظر إلى آن أبكوت أبدًا. لكنه توجه مباشرة إلى بيتي هارلو.

وقال بمشاعر عميقة: «أنا آسف جدًّا يا آنستي لأنني تسببت في إزعاجك كثيرًا وشغلت الكثير من ساعات يومك.» ثم انحنى لها انحناءة مهذبة، واعتمر قبعته وأخذ عصاه من

على الطاولة التي كان قد وضعها عليها، وتوجه مباشرة إلى باب الغرفة. بدا أن عمله في منزل كرينيل قد انتهى.

لكن السيد بيكس لم يكُن راضيًا. كان يحتفظ باقتراحه منذ ما يقرب من نصف ساعة. وكان هذا الاقتراح يقتضي التعبير عنه، وكأنه قصيدة.

فنادى: «سيد هانو! سيد هانو! يجب أن أخبرك عن علبة ثقاب.»

أجاب هانو وقد وقف مستنفرًا: «آها! علبة ثقاب! سأصحبك مشيًا إلى مكتبك، وستخبرني بينما نسير.»

أسرع السيد بيكس في اعتمار قبعته وعصاه. لكن كان لديه وقت لإلقاء نظرة فخر إلى زميله الإنجليزي. وقال: «اقتراحك عن غرفة الكنوز لم يكُن ذا قيمة، يا صديقي. دعنا نرى ماذا يمكنني أن أصنع!» وكانت نظرة الفخر وحركة اليد في الهواء تعبِّر عما لم تعبر عنه الكلمات. وفي لحظة كان السيد بيكس بجانب هانو، وأخذ يتحدث بطلاقة بينما كانا يخرجان من البوابة إلى شارع تشارلز روبرت.

التفتت بيتي إلى جيم فروبيشر.

وقالت: «والآن بعد أن سُمح لي باستخدام سيارتي، سآخذك غدًا في جولة وأريك شيئًا من منطقتنا. أما ظهيرة اليوم، فعليَّ أن أكون مع آن ... أنا أعلم أنك ستتفهم هذا.»

أخذت بيتي آن أبكوت من ذراعها وخرجت الفتاتان إلى الحديقة. بقي جيم وحده في الغرفة ... كما أراد في تلك اللحظة. كان المكان الآن في غاية الهدوء والصمت. وكان تغريد الطيور وطنين النحل خارج الأبواب المفتوحة من معيَّة الصمت لا قاطعين له. وقف جيم حيث كان هانو يقف في تلك اللحظة التي ضحك فيها بشكل غريب؛ في منتصف المسافة بين أسفل الدرج حيث كان هو والسيد بيكس يقفان، والباب الأمامي مفتوحًا. لكن جيم لم يستطِع اكتشاف أي شيء يستدعي الضحك. لقد هتف هانو: «عشت كل هذه السنوات ولم ألاحظ ذلك من قبل!» لم يلاحظ ماذا؟ لم يكن هناك شيء ليلاحظه. طاولة، كرسي أو اثنان، بارومتر معلق على الحائط على أحد الجوانب ومرآة على الحائط على الجانب الآخر؛ كلا، لم يكُن هناك شيء. فكر جيم بالطبع أن هانو ربما كان يجرب خدعة. ربما كان كل ذلك المشهد الصغير من تدبيره وكيده، فقط لإزعاجه وإثارة قلقه هو والسيد بيكس. كان هانو قادرًا جدًّا على الإتيان بخدعة كهذه! كانت هذه حيلة بالفعل! هو يتسم بالاحتيال. ربما كان هانو محتالًا. بل ربما هو محتال خبيث!

هتف جيم: «أوه، تبًّا لهذا الرجل! ماذا لاحظ بحق السماء؟ ماذا لاحظ من أعلى البرج؟ ماذا لاحظ في هذه الغرفة؟ لماذا دائمًا ما يلاحظ شيئًا؟» ثم اعتمر قبعته ضاغطًا عليها بغضب، وخرج من المنزل.

الفصل السابع عشر

العشَّاب جان كلاديل

في الساعة التاسعة من تلك الليلة، مشى جيم فروبيشر متجاوزًا مكتب أمانة الصندوق ودخل إلى قاعة فندق جراند تافيرن. كانت آلة العرض السينمائي تدور وتطقطق فوق رأسه على مستوى عالٍ، بينما قطع الظلام شعاع عريض من الضوء الفضي. وعند الطرف المقابل للقاعة، كانت الشاشة المربعة مغمورة بالضوء، وقد ذابت عليها الصور واحدة تلو الأخرى.

لبعض الوقت، لم يستطِع جيم رؤية أي شيء سوى تلك الشاشة. ثم بدأت القاعة تتكشَّف تدريجيًّا إلى عينيه. رأى رءوس الناس كالرصاصات الكبيرة، وممرًّا مركزيًّا أكثر وسعًا تتحرك فيه النادلات مرتديات مآزر بيضاء. مشى جيم في الممر وانعطف إلى اليسار بين الطاولات. عندما وصل إلى الحائط، تقدم مرة أخرى نحو أعلى القاعة. على يساره، كانت القاعة منحسرة، وفي تلك الزاوية كانت هناك مقصورتان كبيرتان تحتويان على طاولات بلياردو. وكان ثَم شاب يتكئ على جدار أولى هذه المقصورات، وعيناه مثبتتان على الشاشة. ظن جيم أنه يرى موريس ثيفينيه، فأومأ له وهو يمُرُّ. وغير بعيد عنه، كان ثَم رجل ضخم يرتدي قبعة ناعمة من الصوف وجالسًا بمفرده، مع شراب من جعة بوك أمامه؛ كان الرجل هو هانو. فاندس جيم في مقعد إلى جانبه.

هتف هانو باندهاش: «أنت؟»

أجاب جيم: «ولمَ لا؟ لقد أخبرتني أنك ستكون هنا في هذا الوقت.» وكانت هناك نبرة إحباط في صوته لفتت انتباه هانو.

فقال هانو: «لم أكُن أظن أن هاتين الشابتين ستتركانك تذهب.»

أجاب جيم بضحكة قصيرة: «على العكس، لم يكونوا يريدونني على الإطلاق.»

وأراد قول شيء آخر، لكنه أعاد التفكير في الأمر، ثم نادى على النادلة.

وقال: «كأسان من جعة بوك، من فضلك.» ثم قدم لهانو سيجارة.

وعندما أتى الشراب، قال هانو له:

«سيكون من الجيد أن ندفع الآن، حتى نتمكن من المغادرة بسرعة عندما نريد.»

سأل جيم: «وهل لدينا شيء نفعله الليلة؟»

«نعم.»

ولم يقل أكثر من ذلك إلى أن دفع جيم لقاء الشراب وقلبت النادلة الصحنين الصغيرين اللذين أحضرت عليهما الشراب رأسًا على عقب وذهبت. ثم انحنى نحو جيم وأخفض صوته.

فقال: «أنا سعيد أنك أتيت هنا. هذا لأن لديَّ أمل أننا سنعرف الحقيقة الليلة، ويجب أن تكون حاضرًا عندما نعرفها.»

أشعل جيم سيجارته.

وسأله: «من الذي تتطلع إلى أن تعرف الحقيقة منه؟»

أجاب هانو هامسًا: «جان كلاديل. لاحقًا، عندما تهدأ المدينة، سنُعرِّج على شارع جامبيتا.»

فقال جيم: «هل تعتقد أنه سيتحدث؟»

أومأ هانو برأسه.

وقال: «لا توجد تهمة ضد كلاديل في هذه القضية. صنع السم من تلك العجينة ليس بجريمة. وثمة الكثير مما يمكن أن يضره، لذا سيرغب في أن يكون في جانبنا إذا استطاع. نعم، لا شك أنه سيتحدث.»

إذَن، ستنتهي المسألة الليلة. شعر جيم فروبيشر بفرح لا يوصف. ستكون بيتي حرة في تنظيم حياتها كما تريد، وتوجيهها أينما تريد، كما ستعطي لشبابها المجال والمدى الذي يستحقه، سيتسنى لها نسيان رعب الأسابيع الأخيرة وما كان بها من فزع، كما ينسى المرء الأشياء القديمة خلف الأبواب الموصدة.

فقال بجدية لهانو: «أتمنى، وأعتقد، أنك ستكون مخطئًا، وأنه إذا كانت هناك جريمة قتل، فإن آن أبكوت ليس لها علاقة بها. نعم، أنا أومن بذلك.» ثم كرر جملته المؤكَّدة ليقنع نفسه بقدر ما كان يحاول إقناع هانو.

لمس هانو مرفقه.

وقال: «لا ترفع صوتك كثيرًا، يا صديقي. أعتقد أن هناك شخصًا عند الحائط يمنحنا اهتمامه.»

فهزَّ جيم رأسه.

وقال: «إنه موريس ثيفينيه، ليس إلَّا.»

أجاب هانو بنبرة ارتياح: «أوهو؟ هل هذا كل شيء؟ اعتراني القلق للحظة. بدا وكأن هناك حارسًا يقف على رقابنا.» ثم أضاف هامسًا: «أنا أيضًا أتمنى من كل قلبي أن أكون مخطئًا. ولكن ماذا عن رأس السهم في صينية الأقلام؟ ها؟ لا تنسَ ذلك!» ثم غرق في تفكير عميق.

وعاد يقول: «ماذا حدث في تلك الليلة في منزل كرينيل؟ لماذا كان الباب الواصل مفتوحًا؟ من الذي كانت تلك المرأة القاسية تقذعه وتهينه؟ من همس «هذا سيفي بالغرض»؟ هل آن أبكوت تقول الحقيقة، وهل كان هناك مشهد مروع يحدث قبل أن تدخل غرفة الكنوز بهذا الشكل المفاجئ ... مشهد مروِّع انتهى بهذه الهمسة المرعبة؟ أم أنَّ آن أبكوت تكذب في كل شيء من البداية إلى النهاية؟ آهٍ يا صديقي، لقد كتبت بعض الأسئلة في مذكرتك هذا المساء. ولكن هذه هي الأسئلة التي أريد الإجابة عليها، وأنَّى لي أن أجد الإجابات؟»

لم يرَ جيم هانو بهذه الحالة من قبل. كانت يداه مقبوضتين، وعروقه بارزة على جبهته، ورغم أنه كان يهمس، فإن صوته كان يرتجف.

قال جيم: «قد نجد العون في جان كلاديل.»

أجاب هانو: «نعم، نعم، قد يخبرنا بشيء.»

ثم جلسا يشاهدان جزءًا من الفيلم، ورأيا الأضواء تضاء وتنطفئ مرة أخرى، ثم نظر هانو بلهفة إلى ساعته وأعادها إلى جيبه بإيماءة من الضيق.

وسأل جيم: «هل ما زال الوقت مبكرًا؟»

«نعم. كلاديل ليس لديه خادم ويتناول طعامه خارج المنزل. لم يعد بعد إلى المنزل.»

قبل العاشرة بقليل، دخل رجل وجلس عند طاولة خلف هانو، وكشط عود ثقاب مرتين على علبة ثقاب دون أن يشعله. فقال هانو لفروبيشر بهدوء ودون أن يتحرك:

«لقد عاد إلى المنزل الآن. سأغادر في غضون دقيقة. تمهَّل خمس دقائق ثم اتبعني.»

فأومأ جيم برأسه.

وسأل: «أين سنلتقي؟»

«امشِ مباشرة على طول شارع ليبتري، وسأتكفَّل أنا بالباقي.»

ثم أخرج هانو علبة سجائره من جيبه، فوضع واحدة بين شفتَيه، وتأنى في إشعالها. ثم نهض، لكنه استاء عندما تعرَّف عليه موريس ثيفينيه وتقدم نحوه.

قال ثيفينيه: «عندما سلم عليَّ السيد فروبيشر وانضم إليك، ظننت أنك أنت هو يا سيد هانو. لكنني لم أكن أجرؤ على أن أذكرك بنفسي.»

قال هانو بأدب: «جرأة! نحن نؤدي الخدمة نفسها يا سيدي، لكنك لديك ميزة الشباب.» ثم استدار.

فسأل ثيفينيه في عسر: «لكن، هل أنت مغادر يا سيد هانو؟ أنا متأسِّف. لقد قاطعت المحادثة على نحو أخرق.»

فأجاب هانو: «على الإطلاق.» كان صبر هانو واضحًا لفروبيشر كما وضحت له صفاقة موريس ثيفينيه. «كنا نتسكَّع بمشاهدة فيلم أعتقد أنه مُمِلٌّ نوعًا ما.»

قال ثيفينيه: «إذَن، بما أنك لست مشغولًا، أرجو أن تتحملني. اقضِ معي قليلًا من الوقت وحسب، هذا كل شيء. أودُّ كثيرًا لو أستطيع أن أقول لأصدقائي: «لقد جلست في السينما مع السيد هانو ... نعم، أنا فعلت؛ وطلبت نصيحته».»

فجلس هانو مرة أخرى على كرسيه.

وسأل ضاحكًا: «وعن أي موضوع تريد نصيحتي؛ أنت يا مَن يتحدث عنه السيد جيراردو بإعجاب؟»

كان طموح القرويين الأزلي يعذِّب هذا الشاب المتحمس. الذهاب إلى باريس، هذا كل ما هنالك! هناك الثروة، والسمعة، والحياة المليئة بالألوان. كلمة من السيد هانو ستفتح له الطريق. وسيعمل هو ليل نهار ليفوز بتلك الكلمة.

قال هانو بحرارة: «سيدي، كل ما أستطيع أن أعدك به هو أنني سأتذكرك عندما يحين الوقت. أعدك بذلك الآن من كل قلبي.» ثم انحنى له وابتعد.

راح موريس ثيفينيه يرقبه وهو يغادر.

ثم قال بحماس: «يا له من رجل! لن أحاول أن أخفي أي أسرار عنه. لن أفعل أبدًا!» وكان جيم قد سمع مثل هذه العاطفة من قبل على شفاه أخرى وبشعور أكبر. «لم أفهم تمامًا ما كان يدور في ذهنه عندما دبَّر ذلك المشهد الصغير مع فرانسين رولار. لكن ثَم شيئًا ما يا سيد. أوه، يمكنك أن تكون متأكدًا من هذا. ثم شيء حكيم. وهذا التفتيش في غرفة الكنوز! كم كان سريعًا وشاملًا! لا شك أنه فتَّش غرفة جلوسها أثناء تفتيشنا لغرفة نوم الآنسة أبكوت بالسرعة والدقة نفسيهما. لكنه لم يجد شيئًا. لا شيء.»

انتظر ثيفينيه أن يؤيده جيم، لكن جيم قال فقط: «أوهو!»

لكن حماسة ثيفينيه لم تكن لتنطفئ.

فقال: «سأخبرك بما أثار إعجابي يا سيدي. إنه لم يكن يتبع أي شكوك؛ أليس كذلك؟ كان منفصلًا. كان يجمع كل تفصيلة صغيرة، على أمل أن تتلاءم كل واحدة مع أخرى وفي النهاية تتشكل صورة كاملة. إنه لفنان! كانت هناك رسالة، على سبيل المثال، سلمتها له الآنسة هارلو، واحدة من تلك الرسائل المؤسفة التي أثارت فضيحة هنا؛ أتذكر تلك الرسالة يا سيدي؟»

قال فروبيشر: «آها!» بأسلوب هانو تمامًا. «لكنني أرى أن الفيلم يقترب من نهايته السعيدة. لذا سأتمنى لك مساءً سعيدًا.»

انحنى فروبيشر وترك موريس ثيفينيه يحلم بالنجاح في باريس. مشى بين مجموعات المشاهدين إلى المدخل ومنه إلى الشارع. ثم سار حتى قوس بوابة غيوم وانعطف إلى شارع ليبرتي. تخلُد البلدات الصغيرة إلى النوم مبكرًا، والشارع الذي كان مزدحمًا طوال النهار أصبح كشارع في مدينة مهجورة. بعد بضع مئات من الأمتار، فوجئ بوجود هانو يمشي بجانبه وقد ظهر من العدم.

قال هانو: «شغلك المساعد إذَن يا صديقي الشاب، بعد أن غادرت؟»

قال جيم: «قد يكون موريس ثيفينيه شابًّا ذا ذكاء مُدهِش كما يقول المفوض، ولكن في الحقيقة، أجد أنه شخص متطفل جدًّا. أولًا، أراد أن يعرف إذا كنت قد اكتشفت أي شيء في غرفة جلوس آن أبكوت، ثم أراد معرفة موضوع رسالة الآنسة هارلو المجهولة.»

نظر هانو إلى جيم باهتمام.

وقال: «نعم، هذا الشاب متحمس للتعلم، جيراردو محق. سيحقق الكثير. وكيف أجبتَه؟»

قال جيم: «قلت أولًا «أوهو!» ثم قلت «آها!» تمامًا مثل صديق مزعج لي عندما أسأله سؤالًا بسيطًا لا ينوي الإجابة عنه.»

فضحك هانو كثيرًا وبحرارة.

وقال: «حسنًا فعلت. تعالَ، لننعطف إلى هذا الشارع الصغير على اليمين. سيأخذنا إلى وجهتنا.»

همس جيم بحماس: «مهلًا! لا تعبر الطريق. استمع للحظة!»

أطاعه هانو على الفور، ووقف الرجلان يستمعان في الشارع الفارغ.

وقال هانو: «لا صوت.»

همس جيم لافتًا انتباهه: «كلا! وهذا ما يقلقني! منذ دقيقة كان هناك صوت خطوات خلفنا. الآن وقد توقفنا، توقفت الخطوات أيضًا. دعنا نمضي مباشرة للحظة أو نحو ذلك.»

قال هانو: «بالتأكيد، يا صديقي.»

وأضاف جيم: «ودعنا لا نتحدث أيضًا.»

قال هانو: «ولا كلمة واحدة.»

راح الرجلان يتقدَّمان، وعاد صوت الخطوات من خلفهما على الرصيف.

فسأل جيم وهو يمسك بذراع هانو: «بماذا أخبرتك؟»

أجاب هانو: «بأننا كلانا لن نتحدث. وها أنت قد تحدثت!»

قال جيم بغضب: «ولماذا؟ لماذا تحدثت؟ كن جادًّا، سيدي. هناك من يتتبعنا.»

توقف هانو تمامًا ونظر بإعجاب إلى زميله الغِر.

وهمس: «أوه! هل اكتشفت ذلك؟ نعم، هذا صحيح. أحد رجالي يتتبعنا ليحرص على ألا يتتبعنا أحد.»

هز جيم ذراع هانو بغضب. ثم وقف متسمِّرًا. وحينها رأى فم هانو ينتفض، وفهم أنه كان يبدو «جديًّا».

فقال جيم ضاحكًا: «دعنا نذهب ونبحث عن جان كلاديل» ثم عبر الطريق. مرَّ الرجلان خلال شبكة من الشوارع الصغيرة والفقيرة. وكانت كلها خالية. كما كانت الظلمة تكتنف المنازل. فكان الصوت الوحيد الذي سمعوه هو صوت خطواتهم على الرصيف، والصوت الخافت للرجل الذي يتتبعهم. انعطف هانو إلى اليسار إلى ممر قصير وتوقف أمام منزل صغير بواجهة متجر مغلقة.

وقال بصوت منخفض: «هذا هو المكان» ثم ضغط على زر الجرس في عمود الباب. رن الجرس بأزيز حاد مدوٍّ خلف ألواح الباب.

وأضاف: «قد نضطر للانتظار قليلًا إذا كان قد خلد إلى الفراش، لأنه ليس لديه خادم في المنزل.»

مرت دقيقة أو دقيقتان. دقت الساعات معلنة مرور نصف الساعة. مال هانو بأذنه نحو ألواح الباب. لم يسمع أي صوت داخل المنزل. دق الجرس مرة أخرى؛ وبعد بضع ثوانٍ، فُتِح مصراعي نافذة في الطابق العلوي. ومن خلف النافذة، همس أحدهم يقول: «مَن بالباب؟»

أجاب هانو: «الشرطة» ولم يسمع من عند النافذة إلا صمتًا.

فأضاف هانو رافعًا صوته بنبرة تنم عن نفاد الصبر: «لن يؤذيك أحد. نريد منك بعض المعلومات. هذا كل شيء.»

جاء الهمس من المكان نفسه: «حسنًا.» لكن الرجل الذي كان يقف في ظلمة الغرفة لم يكُن قد تحرك. «انتظر! سأرتدي بعض الملابس وأنزل.»

أُغلقت النافذة مرة أخرى. ثم تسربت بعض أشعة الضوء عبر الشقوق، فهمهم هانو علامة على رضاه.

ثم قال: «أخيرًا ستستيقظ تلك البهيمة. لا بد أن لديه عملاء غريبين بين أهل ديجون الطيبين إذا كان حريصًا على الرد عليهم بهذا الصوت الهامس.»

ثم التفت هانو وسار بضع خطوات على الرصيف، ثم عاودهم مرة أخرى، كأنه ربَّان نفد صبره. لم يرَه جيم فروبيشر بهذا القلق والاضطراب خلال اليومين الماضيين.

وقال هانو بصوت منخفض لجيم: «لا أستطيع تمالك نفسي. أفكِّر في أننا سنصل إلى حقيقة هذه القضية خلال خمس دقائق. سنعرف من أحضر السهم إليه من منزل كرينيل.»

فأضاف جيم فروبيشر: «إذا كان هناك من أحضر السهم إليه أصلًا.»

لكن هانو لم يكن في مزاج يسمح بالتفكير في الاحتمالات.

فقال وهو يهزُّ كتفيه مستهجنًا: «أوه، هذا!» ثم نقر على جبهته. وأضاف: «أنا مثل وابرسكي. يخالجني هنا شعور بأن شخصًا ما أحضر السهم إلى جان كلاديل.»

ثم شرع يذرع الرصيف ذهابًا وإيابًا مرة أخرى. لكنه هذه المرة كان يهرول ولم يكُن يمشي. وشعر جيم ببعض الانزعاج من تجاهل هانو لاقتراحه. كان لا يزال مقتنعًا بأن هانو قد اتخذ نقطة بداية خاطئة في تحقيقه. فقال بحدة:

«حسنًا، إنْ كان أحدهم قد أحضر إليه السهم، فسيكون هو الشخص نفسه الذي أعاد كتاب «اسبورانثوس» إلى رف الكتب.»

توقف هانو أمام جيم فروبيشر. ثم أطلق ضحكة خفيضة.

وقال: «أراهنك على كل المال في العالم أن هذا غير صحيح، وأضيف إليه عقد اللؤلؤ الخاص بالسيدة هارلو. والسبب في نهاية المطاف أنه لم أكُن أنا من أحضر السهم إلى جان كلاديل، في حين أنه لا شك في أنني كنت من أعاد الكتاب إلى الرف.»

تراجع جيم خطوة إلى الوراء. وأخذ يحدِّق إلى هانو فاغرًا فاهه من الدهشة.

وهتف متعجبًا: «أنت؟»

أجاب هانو وقد شبَّ على أطراف أصابعه: «أنا. فعلت ذلك بمفردي.»

ثم اختفى أسلوبه الهزلي. ونظر إلى النوافذ المغلقة في قلق مفاجئ.

وتمتم: «هذا الحيوان يأخذ وقتًا أطول مما يحتاج. في نهاية المطاف، نحن لا ندعوه إلى حفل راقص عند دوق بورجوندي.»

فدقَّ الجرس مرة أخرى بمزيد من الإلحاح. وكانت رنة الجرس حادة وكأنها تسخر منه.

قال هانو: «لا يروق لي ما يحدث.»

ثم أمسك بمقبض الباب وضغط بكتفه على الباب وحاول دفعه بثقله. لكن الباب كان قويًّا ولم يتحرك. وضع هانو أصابعه على فمه وأطلق صفيرًا خفيفًا. فسمعوا صوت رجل يركض بسرعة وبخفة من الاتجاه الذي أتوا منه. رأوه يمر تحت ضوء مصباح الشارع الوحيد عند الزاوية ويختفي مرة أخرى؛ ثم ظهر واقفًا بجانبهم. تعرف جيم على نيكولا مورو، العميل المتخفي الذي أرسله هانو هذا الصباح للتأكد من وجود جان كلاديل.

قال هانو: «نيكولا، أريدك أن تنتظر هنا. إذا فُتح الباب، صفِّر لنا وأبقِ عليه مفتوحًا.»

«حسنًا يا سيدي.»

ثم قال هانو لفروبيشر بصوت منخفض ومضطرب: «ثَم شيء هنا يقلقني.» ثُم غاص في زقاق ضيق بجانب المتجر.

فهمس جيم وهو يسرع ليلحق برفيقه: «لا شك أن وابرسكي قصد أن يجعلنا نصدق أنه اختبأ في هذا الزقاق صباح يوم ٧ مايو.»

أجاب هانو: «بلا شك.»

أفضى الزقاق إلى ممر صغير موازٍ لشارع جامبيتا. فانعطف هانو إليه. كان ثم جدار يحيط بالساحات الخلفية للمنازل بارتفاع خمس أقدام، تتخلله من مكان لآخر أبواب خشبية متداعية. توقف هانو أمام أول فتحة في الجدار. وشبَّ على أطراف أصابعه لينظر فوقه، فنظر أولًا إلى الأسفل نحو الساحة، ثم إلى الأعلى نحو الجزء الخلفي من المنزل. لم يكُن ثمة مصباح في الممر، ولا ضوء يظهر من أي نافذة. ورغم أن الليل كان صافيًا من الغيم، فإنه كان مظلمًا كالكهف في هذا الممر الضيق خلف المنازل. ورغم أن عيني جيم فروبيشر اعتادتا على الظلام، فقد كان يعلم أنه لن يستطيع رؤية رجل حتى لو كان يتحرك على بعد ١٠ ياردات فقط. ومع ذلك، ظل هانو واقفًا يحدِّق إلى الجزء الخلفي من المنزل متعلقًا بأطراف أصابعه على قمة الجدار. وأخيرًا لمس ذراع جيم.

وهمس له: «أعتقد أن النافذة الخلفية في الطابق الأول مفتوحة» وكان صوته أكثر اضطرابًا من أي وقت مضى. «سنذهب ونرى.»

ثم لمس الباب الخشبي فانفتح إلى الداخل وأصدرت مفصلاته صوت أنين.

فقال هانو: «إنه مفتوح. لا تصدر أي صوت.»

اجتاز الرجلان الساحة بصمت. كان الطابق الأرضي من المنزل منخفضًا. وعندما نظر جيم إلى الأعلى رأى أن النافذة التي فوق رأسيهما مفتوحة على مصراعيها.

فهمس في أذن هانو قائلًا: «أنت محق» وبلمسة طلب هانو الصمت.

كانت الغرفة خلف النافذة حالكة السواد. فوقف الرجلان أسفلها وتنصتا. لم يصدر منها أي شيء. فجذب هانو جيم إلى جدار المنزل. في نهاية الجدار، كان ثَم باب يفضي إلى داخل المنزل. حاول هانو فتح الباب، فحاول تحريك المقبض أولًا، ثم ضغط برفق بكتفه على لوح الباب.

وهمس قائلًا: «إنه مقفل، لكن ليس بالمزلاج مثل الباب الأمامي. يمكنني تدبُّر أمره.»

سمع جيم فروبيشر أصواتًا خفيفة جدًّا لمجموعة من المفاتيح فيما كان هانو يسحبها من جيبه، ثم لم يسمع أي صوت بينما كان هانو منحنيًا فوق القفل. ومع ذلك، وفي أقل من نصف دقيقة، فتح الباب ببطء. انفتح الباب على ممر قاتم بشدة كالغرفة التي بالأعلى. دخل هانو إلى الممر دون أي صوت. وتبعه جيم فروبيشر بقلب يخفق بقوة من الإثارة. ما الذي حدث في تلك الغرفة المضاءة في الطابق العلوي وفي الغرفة المظلمة خلفها؟ لماذا لم ينزل جان كلاديل ليفتح الباب على شارع جامبيتا؟ لماذا لم يسمعا صفير نيكولا مورو الخفيف أو صوت همسه؟ عاد هانو إلى الوراء متجاوزًا جيم فروبيشر وأغلق الباب خلفهم وأقفله مرة أخرى.

ثم همس يقول: «طبعًا ليس معك مصباح كهربائي؟»

أجاب جيم: «كلا.»

«ولا أنا. ولا أريد أن أشعل عود ثقاب. ثَم شيء في الطابق العلوي يقلقني.»

بالكاد تمكن جيم من سماع الكلمات. كان هانو ينطق بها كما لو أن مجرد اهتزاز الهواء أمام فمه سيبعث بإنذار إلى الغرف في الأعلى.

وقال هانو: «سنتحرَّك بحذر شديد. أبقِ يدك على معطفي» ثم تقدم. وبعد أن سار بضع خطوات، توقف.

وهمس قائلًا من فوق كتفه: «هذا سلم هنا على يميني. وانعطافه حاد. احذر من أن تصطدم قدمك بالدرجة الأولى» وبعد لحظة، مد يده وأمسك بذراع جيم الأيمن ووضع يده على حاجز السلم. فرفع جيم قدمه، وبحث عن الدرجة الأولى وارتقى خلف هانو. ثم توقفا عند درجة صغيرة فوق الباب الذي دخلا منه إلى المنزل.

بدأت الظلمة تخف أمامهم، فصارت الرؤية غبشاء عوضًا عن أن تكون كعصابة سوداء على أعينهم لا سبيل للرؤية من خلالها. وعرف جيم أن أمامه باب مفتوح وأن الضوء الخافت يأتي من تلك النافذة المفتوحة على يسارهم خلف الباب.

دلف هانو إلى الغرفة من الباب. تبعه جيم وكان عند عتبته حين تعثر هانو وأطلق صرخة. لا شك أن صرخته كانت منخفضة، ولكن بما أنها جاءت فجأة بعد صمتهم الطويل، فقد أفزعت فروبيشر كأنها طلقة مسدس. بدا أنها ستتردد في أرجاء ديجون كدقات الساعة.

لكن لم يتبعها شيء. لم يتحرك أحد، ولم يصرخ أحد بسؤال. عاد الصمت يلف المنزل مرة أخرى، صمت مطبق، كغطاء من الظلمة على الحواس. كان جيم يرغب في أن ينادي ويهتف بصوت عالٍ، سينادي بأي شيء مهما كان طفوليًّا، حتى يسمع صوتًا ينطق بكلمات، حتى ولو كان صوته هو. وأخيرًا جاءت الكلمات، كانت من هانو ومصدرها الجزء الداخلي للغرفة، ولكنها بنبرة لم يتعرف عليها جيم.

قال هانو: «لا تتحرك! ... ثَم شيء ... لقد أخبرتك أنني أخشى شيئًا ... أوه!» واختفى صوته في تنهيدة.

سمعه جيم يتحرك بحذر شديد. ثم كاد يطلق صرخة عالية. ذلك لأن مصراعي النافذة أُغلقا ببطء وعادت الغرفة إلى الظلام الدامس.

همس جيم بعنف: «مَن هناك؟» وأجابه هانو:

«إنه أنا وحسب — هانو. لا أريد للأضواء أن تظهر هنا بعد، مع فتح تلك النافذة. الله وحده يعلم ما الشيء الرهيب الذي حدث هنا. تعالَ إلى داخل الغرفة وأغلق الباب خلفك.»

أطاعه جيم، وبعد أن غير موقعه، استطاع أن يرى في الطرف الآخر من الغرفة على الأرض خطًّا أصفر من الضوء، مستقيمًا ودقيقًا كأنه مرسوم بقلم. كان ثَم باب هناك، باب يؤدي إلى الغرفة الأمامية حيث رأيا الضوء يصدر من شارع جامبيتا.

بالكاد أدرك جيم فروبيشر ذلك قبل أن يرتطم أحدهم بالباب ويفتحه. وقد ظهرت هيئة هانو الضخمة في مدخل الباب يحدِّدها الضوء من خلفه.

قال هانو: «لا يوجد شيء هنا» وكان واقفًا يسد المدخل ويداه في جيبيه. «الغرفة فارغة تمامًا.»

نعم، تلك الغرفة، الغرفة الأمامية! ولكن بين ساقي هانو، تسرب الضوء إلى الغرفة المظلمة خلفه، وهنا، رأى جيم وهو يرتجف يدًا مقبوضة وساعدًا في كم قميص مجعد على الأرض، وقد أضاءهما خط ضوء صغير.

فهتف جيم لهانو: «التفت! انظر!»

التفت هانو.

وقال بهدوء: «نعم. هذا ما تعثرت فيه.»

ووجد مفتاحًا في الحائط بجانب الباب فضغط عليه. غمر الضوء الغرفة المظلمة، وفي وسط فوضى عارمة — طاولة مبعثرة هنا، وكرسي مقلوب هناك — كانت هناك جثة رجل على الأرض. لم يكُن يرتدي معطفًا. كان يرتدي صدريته وأكمام قميصه، وكان مكومًا كالكرة، مما يشير إلى أنه قاسى ألمًا كبيرًا، وركبتاه نحو ذقنه، ورأسه منحنية نحو ركبتيه. كانت إحدى ذراعيه مقبوضة إلى جسمه بقوة، فيما كانت الأخرى التي رآها جيم ممدودة، ويده مقبوضة في تشنج من الألم الذي لا يُحتمل. وحول الجثة كانت ثمة بركة من الدماء التي ظن جيم فروبيشر أن جسدًا لا يمكن أن يحتويها.

تراجع جيم مذهولًا ويداه على عينَيه. وقد شعر بألم في جسده.

وصرخ بتأوه: «إذَن، لقد قتل نفسه لدى اقترابنا.»

أجاب هانو بثبات: «من؟»

قال جيم: «جان كلاديل. الرجل الذي همس لنا من خلف النافذة.»

أذهله هانو بسؤاله.

قال: «بماذا؟»

رفع جيم يديه ببطء من أمام وجهه وأجبر عينيه على النظر. لم تكُن ثمة لمعة سكين أو مسدس في أي مكان على خلفية السجادة الداكنة.

قال هانو: «ربما تعتقد أنه ياباني أقدم على فعل «هارا-كيري». ولكن لو فعل ذلك، لكانت السكين بجانبه. ولا يوجد سكين.»

مال هانو فوق الجثة وتحسسها، ثم سحب يده.

وقال: «ما زال دافئًا» ثم أطلق شهقة. وأشار وهو يقول «انظر!». كان الرجل مستلقيًا على جنبه في هذه الوضعية المروعة التي تعبر عن مكابدته تقلصات شديدة وألم لا يُحتمل. كان كم القميص يحمل علامة حمراء عريضة.

قال هانو: «هنا مُسح السكين.»

ثم انحنى جيم للأمام.

وصرخ: «بحق الله، هذا صحيح» ثم بعد قليل، هتف بصوت مليء بالرهبة: «إنها جريمة قتل.»

أومأ هانو.

وقال: «لا شك في ذلك.»

ثم انتصب جيم فروبيشر. وأشار بإصبعه المرتجف إلى صورة الألم المروع والموت دون كرامة المكوَّمة على الأرض، التي هي حجة على أن تكوين الجنس البشري به شيء فظيع؛ لأن حدوث هذه الأشياء أمر ممكن.

ثم سأل: «أهو جان كلاديل؟»

أجاب هانو: «سيتعيَّن أن نتأكد.» ثم نزل هانو الدرج إلى الباب الأمامي، وبعد أن فتح مزلاجه، نادى مورو إلى داخل المنزل. ومن أعلى الدرج، سمع جيم هانو يسأله:

«أتستطيع التعرف على جان كلاديل؟»

أجاب مورو: «نعم.»

«إذَن فلتتبعني.»

وتقدَّمه هانو إلى الغرفة الخلفية. توقَّف مورو للحظة عند عتبة الباب بوجه خاوٍ من التعبير.

وسأل هانو: «أهذا هو الرجل؟»

تقدم مورو.

وقال: «نعم.»

فقال هانو: «لقد قُتل. هل يمكنك أن تجلب مفوض الحي، وطبيبًا؟ سننتظرك هنا.»

استدار مورو على عقبيه ونزل الدرج. وجلس هانو على كرسي وحدق في الجثة بوجه عابس.

وقال بنبرة محبطة: «قتل جان كلاديل. تمامًا عندما كان يمكن أن يكون ذا نفع ولو قليل في العالم! عندما كان يمكن أن يساعدنا في الوصول إلى الحقيقة! هذا خطئي أيضًا. لم يكُن عليَّ أن أنتظر حتى الليلة. كان يجب أن أتوقَّع أن هذا قد يحدث.»

فهتف جيم فروبيشر: «مَن يمكن أن يكون قد قتله؟»

نفض هانو عنه مشاعر الندم.

وأجاب: «الرجل الذي همس لنا من خلف النافذة.»

شعر جيم فروبيشر بأن عقله يدور.

وهتف: «هذا مستحيل!»

سأل هانو: «لماذا؟ لا بد أنه هو القاتل. فكر في الأمر!» ثم بدأ يروي القصة كما فهمها، وكان بحكايته للقصة يحاول أن يتحرَّاها.

«في الساعة العاشرة وخمس دقائق، جاءنا أحد رجالي إلى جراند تافيرن على عجل وكان لا يزال يلهث قليلًا، وأخبرنا أن جان كلاديل قد وصل إلى المنزل للتو. إذَن، فقد وصل إلى المنزل في الساعة العاشرة إلا خمس دقائق.»

قال جيم موافقًا: «نعم.»

«وقد عطلنا موريس ثيفينيه بضع دقائق. نعم.» ثم بلل شفتَيه بطرف لسانه وقال بهدوء: «سيتعيَّن علينا أن ننظر بعناية إلى ذلك الشاب المتواضع والواعد. لقد احتجزنا. وسمعنا الساعة تدق معلنة العاشرة والنصف بينما كنا ننتظر في الشارع.»

«نعم.»

«وكان كل شيء قد انتهى حينها. والسبب في ذلك أن المنزل كان صامتًا كالقبر؛ كما هو حاله بالفعل. وكانت الجريمة قد وقعت للتو، لأن الجسد كان ما يزال دافئًا. إذا كان هذا المستلقي هنا هو جان كلاديل، فلا بد أن شخصًا آخَر كان ينتظر عودته إلى المنزل الليلة، ينتظر في الممر الخلفي، لأن رجلي لم يرَه. وكان هذا شخصًا يعرفه، صديق له؛ لأن جان كلاديل سمح له بالدخول وأغلق الباب خلفه.»

فقاطعه جيم.

وقال: «وربما كان هنا بالفعل، ينتظره بسكينه العاري في هذه الغرفة المظلمة.»

نظر هانو في أرجاء الغرفة. كانت مفروشة بفرش رخيص ومتكدس، فكانت تجمع بين وظيفتين، المكتب وغرفة المعيشة. كان ثمة مكتب للكتابة، يتعامد على الحائط بجانب النافذة. وخزانة مغلقة تحتل الجزء الأكبر من أحد جانبي الغرفة.

قال: «أنا مندهش. هذا ممكن، بلا شك؛ ولكن إذا كان الأمر كذلك، لماذا مكث القاتل طويلًا؟ إذ لم يكُن يبحث عن شيء، فالأدراج غير مبعثرة.» ثم حاول فتح باب الخزانة. «هي ما تزال مقفلة. كلا، لا أعتقد أنه كان ينتظر. أعتقد أنه جرى استقباله كصديق أو عميل؛ أظن أن جان كلاديل كان لديه عدد غير قليل من العملاء الذين يفضلون زيارته من المدخل الخلفي تحت جنح الليل. أعتقد أن زائره جاء بقصد القتل، وانتظر ما انتظر وارتكب جريمته، وكان قد أجهز عليه لتوِّه قبل أن نقرع جرس الباب.» ثم تنفس هانو بعمق. «تخيل ذلك يا صديقي! كان القاتل يقف هنا فوق جثة قتيله، وفجأة يتردَّد صوت الجرس الحاد والواضح في جميع جنبات المنزل؛ وكأن الله قال له: «لقد رأيتك!» تخيل ذلك! فأطفأ القاتل الضوء ووقف يحبس أنفاسه في الظلام. يدق الجرس مرة أخرى. عليه أن يجيب وإلا ساءت الأمور. فيذهب إلى الغرفة الأمامية ويفتح النافذة، ويعرف أن الشرطة هي التي تقف على الباب.» ثم أومأ هانو برأسه بإعجاب شابَهُ التردُّد. وأضاف: «بيد أن

الرجل يتمتع بأعصاب من حديد! فلم يفقد رباطة جأشه. فأغلق مصراع النافذة، وأضاء الضوء، حتى نظن أنه يستيقظ، ثم يركض عائدًا إلى هذه الغرفة. لن يضيع الوقت بالتعثر على الدرج والعبث بقفل الباب الخلفي. كلا، بل فتح هذه المصارع وقفز إلى الأرض. حدث ذلك في لمح البصر. وفي غضون ثانية واحدة، كان في الممر؛ وبحلول الأخرى، كان في مأمن، وقد أنجز مهمته الرهيبة. لن يتحدث كلاديل. لن يخبرنا بالأشياء التي نريد معرفتها.»

توجَّه هانو إلى الخزانة، وباستخدام مفاتيحه الهيكلية، فتح أبوابها مرة أخرى. على الأرفف كانت توجد جرة زجاجية أو اثنتان، وأنبوب تقطير، وأدوات مختبر بسيطة وبعض الزجاجات، واحدة منها أكبر من البقية وكانت نصف ممتلئة بسائل عديم اللون.

قال هانو مشيرًا إلى الملصق: «كحول.»

تحرك جيم فروبيشر بحذر حول أطراف الغرفة، متجنبًا تغيير الفوضى في الأثاث. ثم فحص الزجاجات. لم يكُن أيٌّ منها يحتوي على قطرة واحدة من ذلك المحلول الليموني الفاتح الذي وصفه البروفيسور في أطروحته. أغلق هانو أبواب الخزانة مرة أخرى وأقفلها، ثم تحرك بحذر نحو المكتب. كان مفتوحًا، وكانت هناك بعض الأوراق المبعثرة عليه. فجلس هانو إلى المكتب وبدأ في البحث بعناية. وجلس جيم على كرسي. بطريقة ما، تسربت المعلومة أنه منذ هذا الصباح، كان هانو يعلم بأمر جان كلاديل. لذلك، كان لا بد من إيقاف جان كلاديل عن أي كشف؛ وقد أمكن إيقافه. لم يعُد فروبيشر يشك في أن جريمة قتل قد وقعت في ليلة ٢٧ أبريل في منزل كرينيل. كانت التطورات تتبع بعضها بشكل منطقي. والوقائع تتراكم؛ ومع هذه الجريمة الجديدة، أضيفت قصة أخرى إلى المسألة. نعم، قطعًا كانت الوقائع تتراكم بشكل سليم منطقيًّا ضد شخص ما.

الفصل الثامن عشر

الحبة البيضاء

في غضون دقائق، كانت القضية على وشك أن تتعزَّز بشكل هائل. إذ انطلقت صيحة تعجب من هانو. هبَّ هانو على قدميه وأشعل ضوء مصباح قراءة ذي ظل أخضر كان على حافة المكتب. كان يمسك الآن تحت الضوء درجًا صغيرًا أخرجه من مقدمة المكتب. وبحذر شديد، رفع شيئًا صغيرًا منه، شيئًا يشبه الشارة التي يرتديها الرجال في عُرى ثيابهم. ثم وضعه على ورق التجفيف؛ وضحك بغلظة في تلك الغرفة المليئة بالموت.

ثم أومأ إلى جيم.

«تعالَ وانظر!»

رأى جيم سهمًا صغيرًا رفيعًا من الحديد ذا نصل مسنن وساق حديدية. لم يكُن بحاجة ليسأل عن طبيعته، فقد رأى مثيله ذلك الصباح في أطروحة البروفيسور بإدنبرة. هذا كان رأس سهم سايمون هارلو المسموم.

قال جيم بصوت مرتجف: «لقد وجدته!»

«نعم.»

دفعه هانو قليلًا وقال وهو يتأمله:

«في مكان بعيد بآلاف الأميال، يجلس زنجي خارج كوخه في منطقة كومبي ويسحق بذور السموم ويخلطها بالطين الأحمر، ثم يدهن سهمه الجديد بطبقة سميكة، وينتظر عدوه. لكن عدوه لا يأتي. فيقايضه أو يعطيه لصديقه الأبيض التاجر على نهر شاير. يحضره التاجر إلى بلده ويعطيه لسايمون هارلو صاحب منزل كرينيل. ويعيره سايمون هارلو لأستاذ في إدنبرة، والذي بدوره يكتب عنه أطروحة ويطبعها ويعيده مرة أخرى. وفي النهاية، بعد كل هذه الرحلات، يصل إلى مسكن جان كلاديل في حي فقير في ديجون، ويُهيَّأ بطريقة جديدة ليؤدي عمله القاتل.»

لا أحد يعرف كم من الوقت كان هانو سيستمر في التفلسف بهذا الشكل المؤسف عن السهم. لكن لحسن الحظ، جاء صوت إغلاق باب في الطابق السفلي وسُمعت أصوات في الممر، فنجا جيم فروبيشر من الاستماع إليه.

قال هانو: «إنه المفوض!» ثم نزل مسرعًا على الدرج.

سمعه جيم يتحدث بصوت منخفض لفترة طويلة، ولا شك أنه كان يشرح له الموقف والأمور. ذلك أنه عندما أحضر المفوض والطبيب إلى الغرفة، قدم جيم كشخص يعرفونه مسبقًا.

فقال: «هذا هو السيد فروبيشر.»

بتحية سريعة لجيم، انحنى المفوض، الذي كان أصغر سنًّا وأكثر حيوية من جيراردو، ووجَّه نظره نحو جثة جان كلاديل الملتوية.

حتى هو لم يستطع كبح لمحة من الاشمئزاز. فطقطق بلسانه في سقف فمه.

وقال: «هذا ليس يسيرًا، ما مر به هذا الشخص! ليس يسيرًا على الإطلاق.»

اجتاز هانو الغرفة مرة أخرى نحو المكتب ولف السهم بورق بعناية.

وقال بإجلال موجهًا حديثه إلى المفوَّض: «بإذنك، سيدي المفوض، سآخذ هذا معي. وسأتحمل مسئوليته.» ثم وضعه في جيبه ونظر إلى الطبيب، الذي كان يميل بجانب جان كلاديل. وأضاف: «لا أودُّ التدخل، بيد أنني سأكون شاكرًا لو أُتيحت لي نسخةٌ من التقرير الطبيِّ. أعتقد أنه قد يساعدني. إذ أرى أنه سيكشف أن أسلوب ارتكاب هذه الجريمة خاص بشخص واحد فقط.»

أجاب المفوض الشاب بنبرة رسمية ومهذبة: «بالتأكيد ستحصل على نسخة من التقرير، سيد هانو.»

وضع هانو يده على ذراع جيم.

وقال: «نحن نسلك السبيل يا صديقي. أوه، نعم، على الرغم من الاحتجاجات الودية من جانب السيد المفوض. هذا ليس شأننا. لنذهب!» وباشر بجيم إلى الباب ثم استدار. وأضاف: «لا أريد أن أتدخل، لكن من المحتمل أن المصاريع وعتبة النافذة تحمل جميعها آثار أصابع القاتل. لا أعتقد ذلك مرجحًا، لأن ذاك المتوحش اتخذ احتياطاته. لكنه أمر مُمكِن، لأنه غادر في عجالة كبيرة.»

كان المفوض ممتنًّا للغاية.

إذ قال: «تأكد بأننا سنولي اهتمامًا للمصاريع وعتبة النافذة.»

فاقترح هانو يقول: «ونسخة من بصمات الأصابع، إذا وُجدت أي منها؟»

وافق المفوض قائلًا: «ستكون تحت تصرف السيد هانو في أقرب وقت ممكن.»

شعر جيم بأسف لأن السيد بيكس لم يكُن حاضرًا في هذه المحادثة الصغيرة المليئة بالمجاملات المتبادلة. كان المفوض وهانو مصممين على عدم التعدي على حقوق بعضهما البعض وحريصين بكل تهذيب على ألا يحدث تعدٍّ على حقوقهم. لا شك أن السيد بيكس كان سيستمتع بانضباط سلوكهما.

نزل هانو وفروبيشر إلى الشارع. لم يكُن الجيران قد انتبهوا بعد. وكان ثَم رجلا شرطة يقفان أمام الباب. كان شارع جامبيتا لا يزال نائمًا وفي غفلة عن الجريمة التي حدثت في أحد بيوته الأقل شأنًا.

قال هانو: «سأذهب إلى المقر الرئيسي للشرطة. لقد أعطوني هناك مكتبًا صغيرًا مع أريكة. أريد أن أترك رأس السهم في مكان آمن قبل أن أذهب إلى الفندق.»

قال جيم: «سأذهب معك. سيكون من المريح أن أمشي قليلًا في الهواء الطلق بعد تواجدي في تلك الغرفة.»

كان المقر الرئيسي للشرطة يبعد نحو ميل عبر المدينة. فانطلق هانو في مسيره بسرعة كبيرة، وعندما وصل إلى المبنى، أدخل جيم إلى مكتب به خزانة مثبتة على الحائط.

وقال: «هلا جلست قليلًا؟ يمكنك التدخين إن أردت.»

كان في حالة من الكآبة العميقة؛ لقد تغير تمامًا عن شخصيته المرحة؛ لدرجة أن جيم فروبيشر لم يفهم سوى الآن كم كان هانو يعلق آمالًا كبيرة على مقابلته مع جان كلاديل. فتح هانو الخزانة وأحضر إلى الطاولة بضعة مظاريف بأحجام مختلفة، ونسخة من أطروحة البروفيسور وملفه الأخضر. ثم جلس أمام جيم وبدأ بفتح مظاريفه وترتيب محتوياتها في صف، وعندما فُتح الباب، دخل عليه شرطي فحيَّاه وتقدم نحوه. وكان يحمل ورقة في يده.

قال الشرطي: «لقد وصل رد من باريس عبر الهاتف في الساعة التاسعة الليلة يا سيد هانو. يقولون إن هذا قد يكون اسم الشركة التي تريدها. تأسست في شارع دي باتينول، لكنها لم تعُد قائمة منذ قبل سبع سنوات.»

أجاب هانو بتجهم: «نعم، هذا ما حدث» وهو يأخذ الورقة. ثم قرأ ما كُتب عليها. وأضاف: «نعم، نعم. هذه هي. لا شك.»

ثم أخذ مظروفًا من رف على الطاولة ووضع الورقة بداخله وأغلق غطاءه. وعلى وجهه، رآه جيم يكتب كلمة توضيحية. «عنوان».

ثم نظر إلى جيم بعيون متقدة.

وهتف: «هذا الأمر يسير إلى شيء محتوم. نحن نزداد يقينًا بوقوع الجريمة وكيفية ارتكابها. وتتكشف أمامنا لمحات عن أسبابها المحتملة. لكننا لا نقترب أبدًا ولو بخطوة واحدة من الأدلة؛ الأدلة الحقيقية المقنعة عن هوية مرتكبها. حتمية؟ كم أنا أحمق لاستخدام هذه الكلمة. إنما هي الفطنة الثاقبة والجرأة وبرودة الأعصاب، هذا هو ما يوقفنا في نهاية كل طريق ويجعلني أبدو أحمق!»

ثم وبشراسة أشعل عود ثقاب وأشعل سيجارة. وحاول فروبيشر أن يعزيه.

فقال: «نعم، لكنها الفطنة الثاقبة والجرأة وبرودة الأعصاب لأكثر من شخص واحد.»

نظر هانو إلى فروبيشر بحدة.

وقال: «بيِّن لي يا صديقي.»

«كنت أفكر في الأمر منذ أن غادرنا شارع جامبيتا. لم أعُد أشك في أن السيدة هارلو قُتلت في منزل كرينيل. من المستحيل الشك في ذلك. لكن قتلها كان جزءًا من نشاط عصابي. وإلا كيف تفسر مقتل جان كلاديل الليلة؟»

فارتسمت على وجه هانو ابتسامة سريعة بددت الكآبة عن وجهه قليلًا.

وقال: «نعم. لقد أمضيتَ في حلبة الثيران مدة ١٥ دقيقة.»

«توافقني الرأي إذن؟»

«نعم!» بيد أن كآبته عادت إلى وجهه. وأردف: «لكننا لا نستطيع الإمساك بالعصابة. نحن نخسر الوقت، وأخشى ألا يكون لدينا وقت لنخسره.» وارتجف هانو كرجل يشعر بالبرد فجأة. ثم أضاف: «أنا قلق جدًّا الآن. أنا ... خائف جدًّا.»

وتسلل خوفه منه ولازم فروبيشر. لم يكُن فروبيشر يفهم ذلك، ولم يكن لديه أدنى فكرة عما كان هانو يخافه، لكن بينما هو جالس في ذلك المكتب ساطع الإضاءة في المبنى الصامت، شعر بحضور أرواح شريرة تحيط بهما وتتهافت عليهما، أرواح غريبة وشريرة كالتي قد ينحتها حرفي قديم في ديجون على أعمدة الكاتدرائية. فأصابته الرجفة هو أيضًا.

قال هانو: «لنرَ الآن!»

وأخذ طرف ساق السهم من أحد المظاريف، والرأس الحاد من جيبه، ووضعهما معًا. كان الرأس الحاد فضفاضًا الآن لأن الفتحة التي تستقبله في أعلى ساق السهم كانت قد توسعت لتستوعب رأسًا مدببًا. لكن الساق كانت بالطول المناسب تقريبًا. فوضع هانو السهم على الطاولة وفتح ملفه الأخضر. ولفت انتباه جيم مظروف صغير مربع، مثل ذلك الذي يستخدمه الصيادلة. فأخذه. بدا المظروف فارغًا، لكن عندما هزه، تدحرجت على

الطاولة حبة مصنوعة من مادة بيضاء صلبة. كانت متسخة بالغبار، وكان عليها لطخة خضراء؛ وعندما قلبها، لاحظ شقًّا أو قطعًا على سطحها، كما لو أنها ضربت بشيء حاد.

فقال: «ما صلة هذا الشيء بالقضية من الأساس؟»

فرفع هانو نظره من الملف الذي كان بيده. ثم مد يده بسرعة ليأخذ الحبة من جيم، ثم سحب يده مرة أخرى.

وقال بجدية: «ربما الكثير. وربما لا شيء. لكنها حبة مثيرة للاهتمام. سأعرف المزيد عنها غدًا.»

لم يستطِع جيم أن يتذكر أي مناسبة جعلت هذه الحبة تلفت الانتباه. بالتأكيد لم تُكتشف في منزل جان كلاديل، لأنها كانت موجودة مسبقًا في الخزانة في المكتب. لقد لاحظ جيم المظروف المربع الصغير عندما أخرجه هانو من الخزانة. بدت الحبة كما لو أنها التُقطت من قارعة الطريق مثل علبة الكبريت الشهيرة التي قال عنها السيد بيكس. أو ... نعم، كانت هناك لطخة خضراء عليها؛ ربما من العشب. جلس جيم مستقيمًا في كرسيه. كانوا جميعًا معًا في الحديقة هذا الصباح. هانو، وهو بنفسه، وبيتي، وآن أبكوت. لكن عند هذه النقطة توقفت تخمينات فروبيشر. لم تستطِع ذاكرته أو قدرته على الاستنتاج ربط هذه الحبة بالنصف ساعة التي قضوها جميعًا تحت ظلال أشجار الجميز. الشيء الوحيد الذي كان متأكدًا منه تمامًا هو الأهمية الكبيرة التي يعلقها هانو عليها. فطوال الوقت الذي كان يتعامل معها فيه ويفحصها، لم تفارق عينا هانو جيم أبدًا، ولو للحظة واحدة. كانت عيناه تتبعان كل حركة صغيرة لأطراف أصابعه بتركيز شديد، وعندما أمال جيم كفه أخيرًا معيدًا الحبة إلى مظروفها الصغير، بالتأكيد أطلق هانو نفسًا طويلًا من الارتياح.

ضحك جيم فروبيشر ببشاشة وانشراح. كان قد بدأ يفهم الرجل الذي أمامه. لم يستجلب أي علامات اندهاش من هانو بأسئلة عديمة الجدوى. بل انحنى فوق الطاولة وأخذ المذكرة الخاصة به التي كان هانو قد وضعها جانبًا من ملفه. وفتحها على الطاولة أمامه وأضاف سؤالين جديدين إلى الأسئلة التي كان قد كتبها مسبقًا. وهكذا أصبحت الأسئلة كالآتي:

(٥) ما هي بالتحديد الرسالة التي أُرسلت عبر الهاتف من باريس إلى المقر الرئيسي للشرطة وتم إخفاؤها في مظروف وضع عليه هانو كلمة «عنوان»؟
(٦) متى وأين ولماذا التُقطت الحبة البيضاء، وما معناها ومغزاها؟

بضحكة أخرى، أعاد فروبيشر المذكرة إلى هانو. بيد أن هانو قرأها ببطء وتأنٍّ. وقال بعزيمة واهنة: «كنت آمل أن أجيب عن جميع أسئلتك الليلة. لكنك ترى! نحن نفشل عند كل منعطف، ويجب على الأسئلة أن تنتظر.»

وكان يعيد ترتيب المذكرة في الملف بشكل منهجي عندما بدَت على وجه فروبيشر أمارات دهشة شديدة. فأشار بإصبعه إلى الملف.

وقال: «هذه البرقية!»

كانت هناك برقية مثبتة على الرسائل الثلاث المجهولة التي كان هانو يحتفظ بها في الملف — الرسالتان اللتان أراهما هانو لفروبيشر في باريس والثالثة التي أعطتها بيتي هارلو له ظهيرة اليوم. وكانت البرقية ملتصقة ببعضها بشريطين من الورق اللاصق على شكل صليب.

قال جيم: «هذه برقيتنا. البرقية التي أرسلتها الآنسة هارلو إلى شركتنا يوم الاثنين؛ نعم، بحق الله، يوم الاثنين الماضي.»

أذهلت البرقية جيم كثيرًا، فقد كانت أيامه مليئة بالمخاوف والتفريج، والإثارة والشكوك، والاكتشافات وخيبات الأمل، ليدرك أن اليوم ما يزال مساء الجمعة؛ وأنه في يوم الأربعاء الماضي لم يكُن قد رأى بيتي هارلو أو تحدث معها بعد. وأردف: «البرقية التي علمنا منها في لندن أنك تتولى القضية.»

فأومأ له هانو.

وقال: «نعم. لقد أعطيتني إياها.»

قال جيم: «وأنت مزقتها.»

فشرح له هانو. «فعلت. لكنني التقطتها من سلة المهملات بعد ذلك وأعدت لصقها.» وذلك دون أن يبدو مرتبكًا من حدة ذهن جيم فروبيشر. «كنت أنوي أن أثير بعض المشكلات هنا مع الشرطة لإفشائهم السر. أنا سعيد الآن لأنني التقطتها. ينبغي أن تكون أنت نفسك قد أدركت أهميتها في صباح اليوم التالي قبل حتى أن أصل إلى منزل كرينيل، عندما أخبرتَ الآنسة أنك أريتني إياها.»

أعاد جيم ذاكرته إلى الوراء. كان لديه شغف بالدقة والصرامة، وهو أمر مناسب جدًّا لشخص في مهنته.

وقال: «لم أعرف أن الآنسة هارلو تلقت الخبر برسالة مجهولة إلا عندما أتيت أنت.»

فقاطعه هانو بسرعة بعض الشيء: «حسنًا، هذا لا يهم. ما يهم بالنسبة لي هي أنه عندما تنتهي القضية ويكون عندي متسع من الوقت لهذه الرسائل، قد تكون البرقية ذات قيمة.»

قال جيم: «نعم، فهمت.» ثم كرر قوله: «فهمت» وأخذ يتململ في كرسيه؛ ثم فتح فمه إذ كاد يقول شيئًا، ثم أغلقه مرة أخرى؛ وبقي معلقًا بين الكلام والصمت، بينما قرأ هانو الملف وتأمل الأدلة التي أمامه ولم يجد فيها أي أمل.

فصاح بعنف: «إنها لا تقودني إلى أي مكان!» فاتخذ جيم فروبيشر قراره.

وقال: «سيد هانو، أنت لا تشاركني أفكارك، لكنني سأتعامل معك بطريقة أفضل؛ بغض النظر عن الجريمة التي وقعت في منزل كرينيل، أمامك لغز هذه الرسائل المجهولة الذي يجب أن تحله. يمكنني مساعدتك في هذا النطاق. فقد استُلمت رسالة أخرى.»

«متى؟»

«الليلة، بينما كنا نتناول العشاء.»

«مَن استقبلها؟»

«آن أبكوت.»

«ماذا!»

وقد قفز هانو من كرسيه وهو يهتف، فانتصب واقفًا ووجهه أبيض كجدران الغرفة، وعيناه مستعرتان بنظرة ثاقبة نحو فروبيشر. لم تكُن الأخبار أبدًا بهذا القدر من المباغتة والإدهاش.

فسأله هانو: «هل أنت متأكد؟»

أجاب جيم: «تمامًا. وصلت مع البريد المسائي؛ مع رسائل أخرى. أحضرها جاستون إلى غرفة الطعام. كانت هناك رسالة لي من شركتي في لندن، ورسالتان لبيتي، وهذه الرسالة لآن أبكوت. وقد فتحتها آن بتجهم، كما لو أنها لا تعرف من أرسلها. رأيتها وهي تفتحها. كانت رسالة مكتوبة على الورق العادي نفسه — ومكتوبة بالطريقة نفسها — دون عنوان في أعلاها. وقد شهقت عندما نظرت إليها، ثم عاودت قراءتها مرة أخرى. ثم طوتها بابتسامة ووضعتها من يدها.»

فسأل هانو يتأكد: «بابتسامة؟»

«نعم. كانت سعيدة. فقد عاد الدم إلى وجهها. واختفى القلق.»

«ولم تُرها لك؟»

«كلا.»

«ولا للآنسة هارلو؟»

«كلا.»

«لكنها كانت سعيدة، أليس كذلك؟» بدا أن هذا كان أكثر ما أثار دهشته في الأمر كله. «هل قالت أي شيء؟»

أجاب جيم: «نعم، قالت: «لقد كان دائمًا على حق، صحيح؟»»

«قالت ذلك! «لقد كان دائمًا على حق، صحيح؟»» وعاود هانو الجلوس بروية، فكأنه تحول إلى تمثال من الحجر. وبعد قليل، رفع عينه.

ثم سأل: «وماذا حدث بعد ذلك؟»

«لا شيء، حتى انتهينا من العشاء. ثم أخذت رسالتها وأومأت برأسها إلى الآنسة بيتي، التي قالت لي: «سيتعيَّن علينا أن ننصرف ونتركك تشرب قهوتك بمفردك.» ثم اجتازتا القاعة إلى غرفة بيتي. غرفة الكنز. وقد انزعجت لهذا قليلًا. فمنذ أن وصلت إلى ديجون والأشخاص الذين ألتقيهم يحاصرونني واحدًا تلو الآخر بأوامر مفادها أن أبقى هادئًا ولا أتدخل. لذا جئت أبحث عنك هنا في جراند تافيرن.»

في وقت آخر، كان هياج جيم بسبب شعوره بالإهانة ليستفز هانو إلى واحد من عروضه المؤسفة، لكنه الآن لم يلاحظ ذلك على الإطلاق.

وقال هانو: «ذهبتا لمناقشة تلك الرسالة معًا. كانت تلك الشابة سعيدة، وهي التي كانت في حالة ضيق شديد ظهيرة اليوم. إذن هناك مخرج!» كان هانو يناقش مشكلته مع نفسه، وعيناه مثبتتان على الطاولة. وتابع: «أكانت البائقة مفيدة؟ عجبًا! يا للعجب!» ثم نهض من كرسيه واجتاز الغرفة مشيًا مرة أو نحو ذلك. وقال: «أنا هانو، أنا الثور العجوز الذي خاض ١٠٠ جولة مصارعة، ها أنا في حيرة من أمري!»

لم يكُن هانو يتظاهر الآن. كان في الواقع وببساطة مندهشًا من أنه يمكن أن يكون في حيرة تامة. ثم عاد إلى الطاولة وقد تغيرت حالته المزاجية تغييرًا سريعًا.

وقال متوسلًا بصدق شديد وحتى بتواضع كبير: «في هذه الأثناء يا سيد فروبيشر، وإلى أن أتمكن من تفسير هذه الحادثة الجديدة الغريبة لنفسي، أتوسل إليك أن تعيرني مساعدتك.» وكان الخوف قد عاد إلى عينيه وبدا في صوته. كان مضطربًا إلى درجة لا يمكن لجيم فهمها. وأضاف: «لا يوجد شيء أكثر أهمية من مساعدتك. أريدك أن ... كيف يمكنني أن أصيغ ذلك حتى يتسنى لي إقناعك؟ أريدك أن تبقى قدر الإمكان في منزل كرينيل ... أن ... أن تراقب الآنسة آن أبكوت الجميلة، إلى ...»

ولم يتمكَّن من قول المزيد. إذ قاطعه جيم فروبيشر بغضب شديد.

فقال: «كلا، لن أفعل ذلك. أنت تجتاز الكثير من الحدود يا سيدي. لن أكون جاسوسًا لك. أنا لست هنا من أجل هذا. أنا هنا من أجل موكلتي. أما بالنسبة لآن أبكوت، فهي مواطنتي. لن أساعدك فيما يخالف مصلحتها. بحق الله، لن أفعل!»

نظر هانو عبر الطاولة إلى وجه «زميله الغِرِّ» المحمر بالغضب، الذي استقال الآن من مهمته وقبِل بالهزيمة دون مداولة.

ثم قال بهدوء: «لا ألومك. في الحقيقة، لم أكن أتوقع أي رد آخر. يجب أن أكون سريعًا، هذا كل شيء. يجب أن أكون سريعًا جدًّا!»

هنا سقط غضب فروبيشر عنه مثل عباءة يُلقيها المرء. فقد رأى هانو يجلس أمامه بوجه أبيض مليء بالقلق والاضطراب وعيون سطع فيها بوضوح بصيص من الرعب.

وصاح بغيظ: «أخبرني! كُن صريحًا معي لمرة واحدة! هل آن أبكوت مذنبة؟ بالطبع هي ليست وحدها، على أي حال. الأمر ينطوي على عصابة. نحن متفقون على ذلك. وابرسكي فرد منهم، بالطبع؟ هل آن أبكوت عضوة أخرى؟ هل تعتقد ذلك؟»

جمع هانو أدلته ببطء. كان هناك صراع يدور داخله. لقد أثرت ضغوط الليلة عليهما كلاهما، وكان يجد إغراءً شديدًا لا يُطاق في أن يبوح بأسراره لمرة واحدة. من ناحية أخرى، قرأ جيم فروبيشر في هانو كل تقاليد خدمته؛ التأني بشأن الحقائق، والتكتم بشأن الشكوك؛ والإنصاف. ولم يستسلم هانو للإغراء إلا بعد أن أعاد كل شيء في الخزانة مرة أخرى. وحتى حينها، لم يستطِع أن يكون مباشرًا في حديثه.

إذ قال بتردُّد، وكأن الكلمات تُنتَزع منه: «تريد أن تعرف ما أعتقد بشأن آن أبكوت؟ اذهب غدًا إلى كنيسة نوتردام وانظر إلى الواجهة. هناك سترى، بما أنك لست أعمى.»

كان واضحًا أنه لن يقول المزيد. فقد وقف بوجه عابس أمام فروبيشر، نادمًا بالفعل على أنه قال ما قال. فالتقط فروبيشر قبعته وعصاه.

وقال: «شكرًا. تصبح على خير.»

تركه هانو حتى ذهب إلى الباب. ثم قال:

«أنت غير مشغول بارتباطات يوم غد. ولن أذهب إلى منزل كرينيل. هل لديك أي خطط؟»

أجاب جيم: «نعم. سآخذ جولة بالسيارة حول المنطقة.»

فقال هانو بفتور: «نعم. الأمر يستحق. لكن تذكر أن تتصل بي قبل أن تذهب. سأكون هنا. سأخبرك بأي أخبار تطرأ. تصبح على خير.»

تركه جيم فروبيشر واقفًا في منتصف الغرفة. وقبل أن يغلق الباب، كان هانو قد نسي وجوده. والسبب في ذلك أنه كان يكرر على نفسه، بصوت يشوبه اليأس: «يجب أن أكون سريعًا! يجب أن أكون سريعًا جدًّا!»

مشى فروبيشر بسرعة ونشاط نحو ساحة إرنست رينان وشارع دي لا ليبرتي، وهو يتأمل في توجيه هانو له باستقصاء واجهة كنيسة نوتردام. كان عليه أن يتذكر ذلك وينفذه في الصباح. لكن تلك الليلة لم تكُن قد انتهت بعد بالنسبة إليه.

فعندما وصل إلى مدخل شارع تشارلز روبرت الصغير، سمع خطوات خفيفة وسريعة خلفه؛ خطوات بدت مألوفة. لذا، عندما انعطف إلى الشارع، تمهل والتفت. فرأى رجلًا طويل القامة يعبر مدخل الشارع بسرعة ويختفي بين المنازل على الجانب الآخر. توقف الرجل للحظة تحت ضوء مصباح من مصابيح الشارع عند زاوية الشارع، وكان جيم متأكدًا تمامًا من أنه هانو، حتى إنه كاد يقسم على ذلك. لم تكن هناك فنادق أو أماكن إقامة في هذا الجزء من المدينة. كان حيًّا يتألَّف من المنازل الخاصة. فما الذي يبحث هانو عنه هنا؟

وبينما هو يتأمل هذا السؤال الجديد، نسي مسألة واجهة كنيسة نوتردام؛ وعندما وصل إلى منزل كرينيل، وقعت حادثة صغيرة جعلت من المستبعد أن يتذكَّرها عما قريب. دخل جيم المنزل باستخدام مفتاح أُعطي له، وأشعل الضوء في القاعة الرئيسية باستخدام مفتاح كهربائي بجانب الباب. ثم اجتاز القاعة إلى أسفل الدرج، وكان على وشك أن يطفئ الضوء باستخدام المفتاح هناك والذي أشارت إليه آن أبكوت، وذلك عندما فُتِح باب غرفة الكنز. وظهرت بيتي في مدخله.

فقال بصوت منخفض: «ما زلتِ مستيقظة؟» وقد سرَّه أنه وجدها ما زالت مستيقظة، كما أحزنه أنها لا تحصل على القسط الكافي من النوم.

فأجابته: «نعم» وببطء لانت ملامحها وابتسمت. «كنت بانتظار نزيلي.»

ثم أبقت على الباب مفتوحًا، فتبعها ودخل إلى الغرفة.

فقالت له بيتي: «دعني أنظر إليك» وبعد أن طالعت وجهه، أضافت: «جيم، لقد حدث شيء الليلة.»

أومأ جيم برأسه.

فسألته: «وما هو ذاك؟»

فقال جيم: «لننتظر حتى يوم غد يا بيتي!»

اختفت الابتسامة عن وجه بيتي. وخبا إشراق عينيها الداكنتين الساحرتين. إذ واراهما الإرهاق والضيق.

فقالت هامسة: «إنه شيء مروع إذن؟»

«نعم» ثم مدَّت يدها إلى ظهر الكرسي لتثبت نفسها.

وقالت: «أرجوك، أخبرني الآن يا جيم! سيجافيني النوم الليلة إلا إذا أخبرتني؛ وكم أنا متعبة جدًّا!»

كان هناك تلهُّف عميق في صوتها، وإرهاق شديد في وضعية جسدها اليافع، فلم يكُن من جيم إلا أن استسلم.

وقال بلطف: «سأخبرك يا بيتي. ذهبت أنا وهانو الليلة للعثور على جان كلاديل. وجدناه ميتًا. لقد قُتل بوحشية.»

أطلقت بيتي أنينًا وأخذت تتمايل على قدميها. كانت لتسقط لولا أن أمسك بها جيم بين ذراعيه.

وهتف: «بيتي!»

دفنت بيتي وجهها في كتفه. وشعر بأنفاسها على صدره.

قالت وهي تئن: «هذا مروع! جان كلاديل! ... لم يسمع به أحد حتى هذا الصباح ... والآن وقع ضحية ما يحدث من أمور مرعبة؛ مثلنا جميعًا! أوه، أين سينتهي كل هذا؟»

وضعها جيم في كرسي وركع على ركبتيه بجانبها.

كانت بيتي تنتحب وقد حاول أن يرفع وجهها نحو وجهه.

فهمس يقول: «عزيزتي!»

لكنها رفضت أن ترفع رأسها.

وقالت بصوت مكتوم: «لا»، وضغطت وجهها أكثر في تجويف كتفه وتشبثت به بيدين يائستين.

فكرر: «بيتي! أنا آسف جدًّا ... لكن كل شيء سيكون على ما يرام. أنا واثق من ذلك. أوه، بيتي!» وبينما كان يتحدَّث، كان يلعن نفسه بسبب تفاهة كلماته. لماذا لم يستطِع أن يجد بعض الأفكار الجميلة حقًّا ليعزيها بها؟ شيء أفضل من هذه العبارات المبتذلة مثل «أنا آسف» و«سيستقيم كل شيء»؟ لكنه لم يستطِع، وبدا أنه لم تكن هناك حاجة إلى ذلك. والسبب في ذلك أن ذراعيها التفا حول عنقه واحتضناه بقوة.

الفصل التاسع عشر

إحباط الخطة

التفَّ الطريق كشريطٍ حول سفح التلِّ، ثم انحدر إلى وادٍ غير عميق. وعلى اليسار، تحت مستوى الطريق بقليل، جرى جدولٌ سريعٌ وسط مرجٍ ضيقٍ تكسوه أعشابٌ خضراء ناعمة. وخلف المرج انتصبت جدران الوادي وعرة، تعلوها بروزات صخرية، وقد اكتسبت نباتاته اللون البني بفعل حرارة الشمس. أما على اليمين، فكانت جدران الوادي الشمالية تنتصب وقد اقتربت من حافة الطريق كثيرًا. وكان الوادي طويلًا، ومنحنياته كبيرة، وفي منتصفه تقريبًا نحو النقطة التي يختفي عندها، كان هناك طريق فرعي يتفرع نحو اليسار، وهو من الطرق التي تُشير إليها كتيبات السائقين بخط متقطع، كان الطريق يجتاز الجدول بجسر حجري، ثم يختفي داخل شق في الجدار الجنوبي للوادي. وخلف هذا التفرُّع، علا الشجر واشتد كثافةً، فغاب الجدول تحت أفيائه، كأنما توارى في جوف كهف غائر؛ كانت منحدرات الوادي على الجانبين مغطاة بأشجار كثيفة جدًّا، لدرجة أن هذا الطرف من الوادي بدا أجرد في ضوء الشمس القوي، لكنها أشجار قصيرة، كأنها اختارت أن تنسجم مع بيئتها. والحق أن الوادي كله بدا وكأنه نسخة مُصغَّرة من وادٍ حقيقي؛ فقد كان ضحلًا وضيِّقًا وقصيرًا. فكأنه أراد أن يكون واديًا ولم يفلح إلا في أن يكون غَورًا.

وحين اندفعت السيارة الصغيرة ذات المقعدين حول جانب التل وبدأت تهبطه، كان الطريق الأبيض المتعرج يمتد أمامها خاليًا إلا من نقطة صغيرة في أقصاه، ينبعث خلفها شريط من الغبار ينتشر كالدخان الخارج من مدخنة قاطرة.

قال جيم: «سَيَغمرُنا هذا الغبار ويخنقنا عندما نمرُّ به.»

ردت بيتي: «ونحن سنفعل به أكثر من ذلك» ولما نظرت خلفها من عجلة القيادة أضافت: «كلا، بل أسوأ!» وكان الغبار خلف السيارة كحجاب. ثم أضافت ضاحكة، وفي

صوتها نغمة مرح سمعها جيم لأول مرة بقلب ممتن: «لكن لا يهمني، أيهمك أنت يا جيم؟ أليس رائعًا أن نغادر تلك المدينة ولو لساعة واحدة! آه!» وفتحت بيتي رئتيها للشمس والهواء. وأضافت: «هذه أول ساعة من الحرية لي منذ أسبوع!»

كان فروبيشر سعيدًا أيضًا بأنه خرج إلى منحدرات كوت دور. فمدينة ديجون كانت تضج في ذلك الصباح بجريمة قتل جان كلاديل؛ لقد كان اسمه يتردد على كل لسان، في كل شارعٍ تمر به، مقرونًا بمسحةٍ من سخريةٍ تُلقى على جهاز الشرطة. وكان يتمنى أن ينسى تلك الزيارة المروعة إلى شارع جامبيتا، والجسد المشوه المرمي على أرضية الغرفة الخلفية.

قال متعمدًا: «قريبًا، ستغادرينها نهائيًّا يا بيتي.»

فكشَّرت بيتي تكشيرة صغيرة، ووضعت يدها على كمِّه.

وقالت، وقد علا الاحمرار وجهها وانحرفت السيارة قليلًا عن الطريق: «جيم! ليس لك أن تنبس بذاك القول لفتاة تقود السيارة!» وضحكت وهي تعيد السيارة إلى مسارها، «وإلا فسأدهس سائق الدراجة النارية وتلك الفتاة في العربة الجانبية.»

فقال جيم: «الفتاة في العربة الجانبية ليست إلا حقيبة سفر!»

وكان سائق الدراجة النارية يبطئ من سرعته وهو يقترب من الطريق المتفرع، كأنه سائح لا يعرف المنطقة، وعندما وصل إلى التفرُّع توقف تمامًا وترجل عن دراجته. وأوقفت بيتي سيارتها بجانبه، ونظرت إلى الساعة ومقياس السرعة أمامها.

وسألته: «هل يمكنني مساعدتك؟»

كان الواقف بجوار الدراجة النارية شابًّا نحيفًا، أسمر اللون، ذا وجه ودود. خلع الشاب خوذته وانحنى بأدب.

وقال بصوت خشن بدا لفروبيشر مألوفًا بطريقة ما: «سيدتي، أنا أبحث عن ديجون.»

ردت بيتي: «أيها السيد، يمكنك أن ترى طرفها من خلال تلك الفجوة عبر الوادي.» وفي وسط الفجوة كانت قمة برج الكاتدرائية ترتفع كسنان رمح رقيق. «لكنني أنبهك إلى أن هذا الطريق غير مُعبد، رغم أنه أقصر.»

ومن خلال غيمة الغبار التي أخذت تتلاشى خلف السيارة سمعوا صوت دراجة نارية أخرى يقترب.

تابعت بيتي قائلة: «الطريق الذي جئنا منه أفضل بكثير.»

سأل الشاب: «لكن كم يبعد؟»

فراجعت بيتي مقياس السرعة مرة أخرى.

وقالت: «٤٠ كيلومترًا، وقد قطعناها في ٤٠ دقيقة، مما يعني أن الطريق جيد. كنا قد انطلقنا في الساعة الحادية عشرة تمامًا، والساعة الآن الثانية عشرة إلا ٢٠ دقيقة.»

تدخل جيم قائلًا: «لكن ألم نغادر قبل الحادية عشرة؟»

فقالت: «نعم، بيد أننا توقفنا لدقيقة أو اثنتين لإحكام شد رباط صندوق الأدوات على مشارف المدينة. ومن هناك انطلقنا في تمام الحادية عشرة.»

نظر سائق الدراجة إلى ساعته.

وقال: «نعم، الآن الساعة الثانية عشرة إلا ٢٠ دقيقة. لكن ٤٠ كيلومترًا! أشك إنْ كان عندي ما يكفي من الوقود. أعتقد أنني سأجرب الطريق الأقصر.»

وخرجت الدراجة الثانية من الغبار كما يخرج القارب من ضباب البحر، ثم أبطأت بجانبهم بدورها. قفز السائق من مقعده، ثم رفع نظاراته الواقية إلى جبينه، وانخرط في الحديث.

وقال: «ذلك الطريق الصغير أيها السيد، ليس من الطرق الرئيسية الرسمية. يتضح هذا من أول نظرة تلقيها عليه. لكنه ليس سيئًا. من عند الجسر الحجري يمكنك أن تصل إلى مبنى بلدية ديجون في غضون ٢٥ دقيقة.»

فقال الشاب: «أشكرك. اعذراني. لقد مكثت هنا سبع دقائق، وكان من المفترض أن أكون قد وصلت.»

ثم اعتمر خوذته وامتطى دراجته وانطلق متجهًا إلى قاع الوادي وسط ضجة وفرقعة خفيفة.

وأعاد السائق الثاني نظاراته الواقية على عينيه.

وقال مقترحًا: «هلا ذهبتِ أولًا يا سيدتي؟ وإلا أغرقتكِ بغباري.»

فقالت بيتي بابتسامة: «شكرًا لك!» وضغطت على دواسة التعشيق وانطلقت.

وبعد أن اجتازا الغابة الصغيرة وانحناءة الطريق، ارتفعت الأرض واتسع الوادي. وكان هناك طريق يقطع طريقهم بالعرض، وقد وُضعت عليه أحجار تدل على الكيلومترات، وكان يمتد من الشمال إلى الجنوب.

قالت بيتي: «الطريق إلى باريس» وهي توقف السيارة أمام نُزُل صغير ذي حديقة كثيفة عند الزاوية. ثم مدَّت عينها باتجاه باريس على طول الطريق. وأضافت «ما أجمل الهواء!» وقد تنهَّدت تنهيدة تنم عن شوقها، في حين اتقدت عيناها وتحرك فمها وكأنها تعض بأسنانها البيضاء القوية على فاكهة شهية.

قال جيم: «قريبًا يا بيتي. قريبًا جدًّا!»

وقادت بيتي السيارة إلى ساحة صغيرة على جانب النهر.

قالت: «سنتناول غداءنا هنا، في الحديقة، بين الأزهار والحشرات.»

وكان الغداء مكونًا من عجة البيض، وقطعة لحم أضلاع مطهية بإتقان وساخنة، وسلطة، وزجاجة من نبيذ «كلو دو برنس» من إنتاج عام ١٩٠٤، وقد جعل كل ذلك مدينة باريس الساحرة أقرب إليهم كثيرًا. فجلسا في الهواء الطلق تحت ظل سياج مرتفع؛ وكانت الحديقة المهملة لهما وحدهما؛ فضحكا وابتهجا بحيوية الطبيعة وجو شهر مايو الصحو، وبدأت تتفتح أمام عيني جيم فروبيشر وتتراءى له رؤى من الدهشة والعجب.

لكن بيتي أزاحت تلك الرؤى بعد أن أشعل هو سيجارته، وأشعلت هي سيجارتها، وكان بخار القهوة يتصاعد من الفناجين الصغيرة أمامهما.

إذ قالت: «لكن عمليين يا جيم. أريد أن أتحدث إليك.»

وكان بريق المرح قد فارق وجهها.

فسألها: «بشأن ماذا؟»

فقالت، وعيناها تجولان حتى استقرتا على وجهه: «بشأن آن. يجب أن ترحل.»

هتف جيم مندهشًا: «تهرب؟»

«نعم، فورًا وبسرية تامة.»

تأمل جيم الاقتراح بينما كانت بيتي تنتظر بقلق.

وقال معترضًا: «لن يكون ذلك ممكنًا.»

«بل ممكن.»

«وحتى لو كان ممكنًا، هل ستوافق هي؟»

«إنها موافقة.»

فقال ببطء: «بالطبع هذا يعني الإقرار بالذنب.»

«كلا يا جيم. هي فقط تحتاج إلى بعض الوقت. ما يكفي من الوقت لتتبُّع العقد الخاص بي، وفضح قاتل جان كلاديل. هل تتذكر ما أخبرتك به عن هانو؟ لا بد أن يحصل على ضحيته. لم تصدقني، لكن كلامي حقيقي. عليه أن يعود إلى باريس ويقول: «أرأيتم؟ لقد استدعوني من ديجون، واستغرقت خمس دقائق فقط! هذا كل ما احتجت إليه! خمس دقائق قصيرة، وهذه هي القاتلة أمامكم، مقيدة ومأمونة الجانب!» لقد حاول إلصاقها بي أولًا.»

قال: «كلا.»

«بل فعل يا جيم. والآن وبعد أن أخفق، التفت إلى آن. سيتوجب عليها الرحيل. سيأخذ صديقتي بما أنه لم ينَل مني، نعم، وسيُلفق الأدلة أيضًا.»

احتج جيم: «بيتي! هانو لا يمكن أن يفعل ذلك!»

قالت: «لكنه فعل، يا جيم.»

«متى؟»

قالت: «عندما أعاد كتاب الرجل الأسكتلندي عن سم السهام إلى رفوف المكتبة.»

وكان وقع هذا الجواب على جيم كالصاعقة.

«هل كنتِ تعلمين أنه فعل ذلك؟»

فأجابت: «لم يكن بمقدوري إلا أن أعلم. فما إن أنزَل الكتاب حتى أصبح الأمر واضحًا لي. كان يعرفه عن ظهر قلب، كأنه كتاب أبجدية. كان يعرف أين يجد الرسوم، وتاريخ السهم الخاص بعمي، وتأثير السم، وطريقة تحضير محلوله في لحظة. وتظاهر بأنه تعلَّم كل ذلك في نصف الساعة التي انتظرَنا فيها. لم يكُن ذلك ممكنًا. لقد عثر على ذلك الكتاب في مكان ما ظهر اليوم السابق وأخذه معه سرًّا، وبقي ساهرًا طوال الليل يدرسه. هذا ما فعله.»

غرق جيم فروبيشر في حيرة وارتباك. لقد ظلَّ يتكهَّن أولًا بهذا الشخص ثم بذاك، وفي النهاية كان يتعين أن يخبره أحد بالحقيقة؛ في حين أن بيتي أبصرتها في لحظة. فشعر وكأنه لم يتجاوز في حلبة المصارعة دقيقة ونصف.

وأضافت بيتي بازدراء حاد:

«ثم بعد أن حفظ كل شيء عن ظهر قلب، أعاده خفية إلى الرف واتهمنا.»

قال جيم ببطء: «لكنه اعترف بأنه أعاده.»

فارتبكت بيتي.

«متى اعترف بذلك؟»

أجاب جيم: «الليلة الماضية. لي أنا»، فضحكت بيتي بمرارة. كانت ترفض سماع أي شيء حسن عن هانو.

«نعم، بعدما وجد ما هو أقوى كي يستند إليه.»

«أقوى؟»

«اختفاء عقدي. أوه يا جيم، يجب على آن أن تغادر. لو استطاعت الوصول إلى إنجلترا، فلن يستطيعوا إعادتها، أليس كذلك؟ ليس لديهم أدلة كافية. مجرد شكوك فوق

شبهات. لكن الأمر مختلف هنا في فرنسا، صحيح؟ يمكنهم احتجاز الناس بناءً على الشبهات، وإبقاؤهم في الحبس الانفرادي واستجوابهم مرارًا وتكرارًا. أما تذكر ظهيرة البارحة في الردهة يا جيم؟ ظننت أن هانو سيلقي القبض عليها في الحال.»

أومأ جيم فروبيشر برأسه.

«ظننت ذلك أنا أيضًا.»

لقد صدمه اقتراح بيتي قليلًا، لكن كلما اعتاد عليه أكثر، رآه معقولًا أكثر. كانت هناك حجة قاطعة تؤيد هذا الاقتراح، لم يخبر بها بيتي، لا هو ولا هانو. فقد عُثر على ساق السهم في غرفة آن أبكوت، وعلى رأس السهم في منزل جان كلاديل. تلك كانت حقائق قاطعة. وبالنتيجة، كان من الأفضل أن ترحل آن، ما دام هناك متسع من الوقت الآن؛ إن كان هانو يعتقد بالفعل أنها مذنبة.

هتفت بيتي: «لكن من الواضح أنه يعتقد ذلك!»

أجاب جيم ببطء:

«أظنه يعتقد ذلك. يمكننا أن نتأكد على أي حال. راودني شك ليلة البارحة. فسألته بصراحة.»

سألت بيتي بلهفة: «وأجابك؟»

«نعم ولا. أعطاني جوابًا غريبًا للغاية.»

«ماذا قال؟»

قال جيم: «أخبرني أن أزور كنيسة نوتردام. وإن فعلت، فسأقرأ على واجهتها إن كانت آن بريئة أم لا».

تلاشت الألوان من وجه بيتي ببطء. وظلت تحدِّق فيه بعينين مذعورتين. جلست كتمثال من ثلج؛ عدا عينيها اللتين كانتا تلمعان.

ثم قالت بصوت خفيض: «هذا مروِّع»، وكررتها. ثم وقفت فجأة وهي تهتف: «سترى! هلمَّ!» وهرعت نحو السيارة.

فسدت بهجة النهار المشمس بالنسبة إلى كلتيهما. قادت بيتي السيارة عائدة إلى المنزل، فكانت منحنية فوق عجلة القيادة، وعيناها مثبتتان إلى الأمام. لكن فروبيشر تساءل إن كانت ترى شيئًا على الإطلاق من ذلك الطريق الأبيض الذي كانت السيارة تنهبُه. ولم يكن منها إلا أن تحدثت مرة واحدة، وهما يهبطان من المرتفعات والغابات إلى السهول، إذ قالت:

«هل سنلتزم بما نراه؟»

«نعم.»

«إنْ كان هانو يظنها بريئة، فلتبقى. وإنْ ظنَّها مذنبة، فيجب أن ترحل.»

قال فروبيشر: «نعم.»

قادَت بيتي السيارة خلال شوارع المدينة حتى وصلت إلى ساحة واسعة. وتوقفا أمام كنيسة ضخمة من طراز عصر النهضة، لها قبب مثمنة على برجَيها، وقبة صغيرة ثالثة يعلوها لوجي فوق شرفتها. أوقفت بيتي السيارة وتقدمت فروبيشر إلى داخل الرواق. فوق الباب كان هناك نقش بارز كبير ليوم القيامة، الله بين الغيوم، والملائكة ينفخون في الأبواق، والملعونين يقومون من قبورهم ليذوقو العذاب. فوقفا يحدقان إلى هذا المشهد صامتَين. بالنسبة إلى فروبيشر، كان ذلك العمل قاسيًا ووحشيًّا، ينسجم تمامًا مع كشف هانو عن معتقده الحقيقي.

فقال: «نعم، الرسالة واضحة للعيان»، ثم عادا في صمت كئيب إلى منزل كرينيل.

تقدم السائق جورج من الجراج ليتولى أمر السيارة. وركضت بيتي إلى داخل المنزل وانتظرت حتى لحق بها جيم فروبيشر.

وقالت بصوت متهدج: «أنا آسفة جدًّا. كنت أحتفظ ببعض الأمل في داخلي أننا كنا مخطئين ... أعني بشأن الخطر الذي يتهدد آن ... طبعًا لا أصدق للحظة أنها مذنبة. لكن عليها أن تغادر، هذا واضح.»

ثم صعدت السلالم ببطء، ولم يرَها جيم مرة أخرى إلا وقت العشاء الذي تأخر يومها كثيرًا عن موعده المعتاد. أما آن أبكوت فلم يرها طَوال ذلك اليوم، ولا حتى أثناء العشاء. وقد جاءته بيتي في المكتبة قبل التاسعة ببضع دقائق.

قالت بيتي مبتسمة: «يؤسفني أننا تأخرنا جدًّا على العشاء. نحن الاثنان فقط يا جيم من سنتناول العشاء»، وتقدمته إلى غرفة الطعام.

طوال العشاء، كانت شاردة الذهن وقلقة، تومئ برأسها موافقة على كل ما يقوله جيم، بينما عقلها في مكان آخر، وترد عليه بأجوبة عشوائية، أو لا ترد إطلاقًا. ظنَّ فروبيشر أنها كانت تنصت لصوت ما في الردهة، صوت كانت تتوقعه وقد تأخر. ذلك أن عينيها كانتا تتجهان إلى الساعة باستمرار، وكان الاضطراب والانفعال يتزايدان في سلوكها، وهما أمران غريبان على طبيعتها الهادئة. وأخيرًا، قبيل العاشرة، سمعا صوت بوق سيارة في الشارع الهادئ. توقفت السيارة، كما بدا لفروبيشر، أمام البوابة مباشرة، ثم تبع ذلك الصوت الذي كانت بيتي تنتظره بقلق بالغ؛ صوت إغلاق باب ثقيل من قبل

شخص يحاول إغلاقه بهدوء. رمقت بيتي فروبيشر بنظرة سريعة واحمرَّ وجهها حين التقت أعينهما. وبعد ثوانٍ تحركت السيارة من جديد، وتنهَّدَت بيتي تنهيدة طويلة. فمال جيم نحوها. وقال بصوتٍ منخفض، رغم أنهما كانا وحدهما في الغرفة:

«آن أبكوت رحلت إذَن؟»

«نعم.»

«بهذه السرعة؟ إذَن كنتما قد خططتما لكل شيء سلفًا؟»

«رتبنا كل شيء مساء البارحة. من المفترض أن تصل إلى باريس صباح الغد، وإلى إنجلترا مساءً. هذا إن سار كل شيء على ما يرام!»

ورغم قلقها، لاحظت بيتي نبرة ضيق خفيفة في أسئلة جيم فروبيشر. فقد استُبعد من خطط الفتاتين، واتُّخذت القرارات من دونه، وأُبلغ بها في اللحظة الأخيرة، كما لو كان ثرثارًا لا يُوثق به، أو غير كفء لا جدوى من استشارته. فبادرت بيتي إلى تقديم العذر.

فقالت: «كان من الأفضل بالطبع لو استعنا بك يا جيم. لكن آن رفضت ذلك. فقد أصرت على أنك جئت إلى هنا بسببي، ولا ينبغي أن تتورَّط في شيء كهروبها هذا. وقد اشترطت هي ذلك، فاضطررت إلى الموافقة. لكن يمكنك الآن أن تساعدني كثيرًا.»

هدأ جيم وشعر بالرضا. فبيتي، على الأقل، أرادت مساعدته، وكانت قلقة من أن يفشل مخططهما الذي وُضع من دونه.

«كيف أساعدك؟»

«يمكنك أن تذهب إلى السينما وتبقي السيد هانو منشغلًا. من المهم ألا يعلم شيئًا عن هروب آن حتى وقت متأخر من الغد.»

ضحك جيم من عبث محاولة هانو التخفِّي. كان واضحًا أن جميع مَن في المدينة يعرفون أنه يقضي أمسياته في «جراند تافيرن.»

فقال: «حسنًا، سأذهب. سأغادر الآن.»

لكن هانو لم يكن في مكانه المعتاد تلك الليلة، فجلس جيم هناك وحده حتى العاشرة والنصف. ثم خرج رجل من إحدى غرف البلياردو، ووقف خلف جيم وعيناه على الشاشة، وهمس يقول:

«لا تلتفت إليَّ يا سيدي! إنه مورو. سأخرج، هل تتفضل باللحاق بي؟»

ومضى مبتعدًا. فانتظر جيم دقيقتين. وكان قد تذكر نصيحة هانو فدفع ثمن شرابه حين أُحضِر إليه. ثم وضَع الصحن الصغير مقلوبًا ليُظهر أنه لا يدين بشيء. وبعد انقضاء

الدقيقتين، خرج يتمشى بهدوء دون أن يلتفت يمنة أو يسرة، وتوجه نحو شارع دو لا جار. وعندما وصل إلى ساحة دارسي، مر به نيكولا مورو دون أن تبدو عليه أي علامة على أنه يعرفه، ثم انحرف إلى اليمين عبر شارع ليبرتي. فتبعه فروبيشر بقلب يعتصره القلق. كان من الحماقة أن يظن أن من السهل خداع هانو بهذه الطريقة. حتمًا أوقفت تلك السيارة. وحتمًا صارت آن أبكوت خلف القضبان! فقد كانت آخر كلمات سمعها من هانو هي: «يجب أن أسرع!»

انعطف مورو إلى جادة سيفيني، ثم عاد أدراجه إلى ساحة المحطة، وانسل إلى داخل أحد الفنادق الصغيرة التي تتجمع في تلك الناحية. كان بهو الفندق خاليًا، وبه سلم ضيق وشديد الانحدار يصله بالطوابق العليا. صعد مورو الدرج وفي أعقابه فروبيشر، ثم فتح بابًا. تطلَّع فروبيشر إلى غرفة جلوس صغيرة وكئيبة في مؤخر المكان. كانت النوافذ مفتوحة، لكن المصاريع مغلقة. وكان ثم مصباح واحد يتدلى من منتصف السقف يضيء الغرفة، وتحت ذلك المصباح جلس هانو منحنيًا فوق خريطة.

كانت الخريطة موسومة بالحبر الأحمر بطريقة غريبة. دائرة تشبه إلى حد بعيد مضرب تنس بلا مقبض، وقد رُسم عليها، من قاعدتها إلى أعلاها، خط متعرِّج يقسمها تقريبًا إلى نصفين. ترك مورو جيم فروبيشر واقفًا، وبعد لحظات رفع هانو عينيه.

وقال بجديَّة كبيرة: «هل كنت تعلم يا صديقي أن آن أبكوت ذهبت الليلة إلى حفلة التنكر التي تقيمها السيدة لو فاي؟»

فوجئ فروبيشر تمامًا.

وتابع هانو: «كلا، أرى أنك لم تكُن تعلم.» ثم تناول قلمه، ووضع نقطة حمراء عند طرف الدائرة قرب قاعدتها.

استفاق جيم من دهشته. كانت حفلة السيدة لو فاي هي النقطة التي يفترض أن تبدأ منها الخطة. لم تكُن الخطة سيئة التصميم في نهاية المطاف، لو استطاعت آن الوصول إلى الحفلة دون أن يلاحظها أحد. فهي متنكرة وسط حشد من الناس بملابس تنكرية، في منزل بحديقة فُتحت بلا شك لأجل هذه الليلة الحارة وفي منزل يُضاء بفوانيس خافتة؛ كانت هذه أفضل فرصة لها كي تتمكن من الهرب. لكن الفرصة ضاعت بالفعل. إذ إن هانو وضع قلمه مجددًا وقال بنبرة تنذر بالشؤم:

«ذهبت بزي زهرة الزنبق، أليس كذلك؟ تلك الزنبقة الجميلة يا صديقي لن ترقص الليلة بفرح كبير.»

الفصل العشرون

الخريطة والعقد

أدار هانو خريطته ودفعها عبر الطاولة إلى جيم فروبيشر.

وقال: «ماذا تفهم من هذا؟» فجذب جيم كرسيًّا وجلس لينظر فيها.

في البداية صنع خريطة مُفصَّلة لمدينة ديجون ومحيطها، تقع المدينة نفسها في أسفل الدائرة الحمراء، مشكِّلة الجزء العلوي من مقبض مضرب التنس. أما الدائرة الحمراء، فبدت كأنها تمثل جولة قام بها شخص ما انطلاقًا من ديجون، مارًّا بجزء كبير من الريف المحيط ثم عائدًا إلى المدينة. لكن المسألة لم تقتصر على هذا فقط. فهناك مثلًا الخط المتعرج الفاصل، والذي يصل أعلى الدائرة عند المقبض، أي إلى ديجون؛ وعند الحافة اليسرى للدائرة، كما رآها فروبيشر منحنيًا فوق الخريطة، وعلى مشارف ديجون تمامًا، كانت هناك علامة حمراء، مربع صغير أحمر رسمه هانو للتو. وإلى جانبه كُتب توقيت محدد.

قرأ فروبيشر الوقت المكتوب: «الحادية عشرة صباحًا.»

تتبع فروبيشر المنحنى الأحمر بعينيه، وعند النقطة التي يلامس فيها الخط الفاصل حافة الدائرة، كان هناك توقيت آخر مكتوب. وقرأ هناك:

«الحادية عشرة وأربعون دقيقة.»

رفع فروبيشر نظره إلى هانو في دهشة.

فهتف: «يا إلهي!» ثم انحنى مجددًا فوق الخريطة. كانت النقطة التي يتفرَّع عندها الخط الفاصل تقع في وادٍ، كما أظهرت خطوط الارتفاع؛ نعم، لقد عرف اسم ذلك المكان الآن؛ فال تيرزون. قبل الساعة الحادية عشرة بقليل، أوقفت بيتي السيارة خارج ديجون، قبالة حديقة بها منزل كبير في الخلف، وطلبت منه أن يشدَّ حزام صندوق الأدوات. ثم انطلقا مجددًا في تمام الحادية عشرة. كانت بيتي قد لاحظت الوقت بدقة؛ وقد توقفا حيث

تتفرع الطريق الثانوية وتعود إلى ديجون، عند أعلى الدائرة، عند تقاطع حافة الدائرة والخط الفاصل، في تمام الحادية عشرة وأربعين دقيقة.

فهتف جيم: «هذا تتبع لمسار الرحلة التي قمنا بها اليوم. كنا مُراقَبَيْن إذَن؟»

وتذكَّر فجأة راكب الدراجة النارية الثاني الذي ظهر من خلفهم وسط الغبار وتوقف بجانب سيارتهم لينضم إلى حديثهم مع السائح.

فسأل: «أهو راكب الدراجة النارية؟» لكنه لم يتلقَّ أي إجابة.

لكن راكب الدراجة لم يتبعهم طوال الطريق. وفي رحلة العودة، توقفوا لتناول الغداء في الحديقة الكثيفة. ولم يكن هناك أي أثر للرجل. فطالع جيم الخريطة من جديد. وتتبع الخط الأحمر من نقطة التقاء الطريقين، عبر منحنى الوادي، إلى الزاوية التي تقطع فيها الطريق الوطنية الكبرى إلى باريس، حيث تناولوا الغداء. بعد الغداء واصلوا طريقهم عبر الطريق الوطني إلى ديجون، بينما عبر الخط الأحمر هذه الطريق وعاد عبر طريق أطول ويتضح أنه مطروق بشكل أقل.

فهتف بنبرة فيها شيء من الانفعال: «لا أفهم لماذا وضعتنا تحت المراقبة هذا الصباح، يا سيد هانو. لكن يمكنني أن أؤكد لك شيئًا واحدًا: الملاحقة لم تكن منظمة على نحو جيد. فنحن لم نعد من ذلك الطريق على الإطلاق.»

أجاب هانو بثبات وهدوء: «ليس لدي أي فكرة عن الطريق الذي عدتم منه. الخط في ذلك الجانب من الدائرة لا علاقة له بكما على الإطلاق، كما يمكنك أن ترى بنفسك بالنظر إلى الوقت المحدد عند نقطة بدايته.»

لم تكُن الدائرة الحمراء مكتملة عند أسفلها؛ كان هناك فراغ ينبغي أن يسع مقبض مضرب التنس، ذلك الفراغ تشغله مدينة ديجون، وعند النقطة على الجهة اليمنى حيث يبدأ الخط، قرأ فروبيشر أرقامًا صغيرة لكن واضحة:

«العاشرة وخمس وعشرون دقيقة صباحًا.»

فازدادت حيرة جيم.

وهتف: «لا أفهم شيئًا من هذا!»

مدَّ هانو قلمه ولمس النقطة بطرفه.

وقال: «هنا بدأ راكب الدراجة النارية، ذلك الذي التقاك عند مفترق الطريق في الحادية عشرة وأربعين دقيقة.»

سأل جيم: «السائح؟» قبل لحظة بدا له أن تشوشه قد بلغ مداه في عقله، لكنه ازداد تشوشًا.

فصحَّح له هانو قائلًا: «لنُشِر إليه بالرجل ذي الحقيبة على المقطورة. ترى أنه غادر نقطة انطلاقه من ديجون قبل أن تغادر أنت بخمس وثلاثين دقيقة. يبدو أن العملية كلها قد دُبرت بإتقان. والسبب في ذلك أنكم التقيتم تمامًا في المكان المحدد في الحادية عشرة وأربعين دقيقة. فلم تُضطر لا السيارة ولا الدراجة إلى الانتظار لحظة واحدة.»

صاح فروبيشر، وهو ينظر حوله كمَن فقَدَ صوابه: «عملية! مكان محدد! هل فقد الجميع عقولهم؟ لماذا بحق السماء قد ينطلق رجل بحقيبة على مقطورة من ديجون في العاشرة وخمس وعشرين دقيقة، ويجوب ثلاثين أو أربعين ميلًا في الريف عبر طريق ملتف ثم يعود عبر طريق رديء مستقيم؟ لا منطق في هذا!»

أقرَّ هانو: «لا شك أن الأمر مُربِك.» وأومأ إلى مورو الذي خرج من الغرفة عبر باب داخلي يؤدي إلى مقدمة المكان. ثم تابع يقول: «لكنني أستطيع مساعدتك. ألا يوجد، عند النقطة التي شَدَّ منها حزام صندوق الأدوات وانطلق، على تخوم المدينة، منزل ريفي فسيح وسط حديقة غنَّاء؟»

قال جيم: «نعم.»

«ذلك هو منزل السيدة لو فاي حيث تُقام حفلة التنكر الليلة.»

ردَّد فروبيشر: «قصر مدام لو فاي! حيث ...» لكنه تراجع. لكن هانو أكمل نيابة عنه.

«نعم، حيث توجد آن أبكوت الآن. لقد انطلقتما من هناك في تمام الساعة الحادية عشرة صباحًا.» ثم نظر إلى ساعته. «لم تحِن الساعة الحادية عشرة ليلًا بعد. إذَن، هي لا تزال هناك.»

ارتدَّ فروبيشر إلى الوراء في كرسيه. كانت كلمات هانو كأنها شعاع من الضوء الفضي يخترق ظلام قاعة السينما وينعكس في صورة مشعة على الشاشة. لقد انكشف له معنى الرسم الأحمر على خريطة هانو، والدافع الخفي وراء رحلة بيتي هذا الصباح.

فهتف: «كانت بروفة!»

وأومأ هانو برأسه.

«بروفة زمنية.»

فكَّر فروبيشر: «نعم، مثل ما يحدث في المسارح، بدون الممثلين الرئيسيين.» لكن بعد لحظة شعر بعدم الرضا عن هذا التفسير.

فقال: «انتظر لحظة! لا أظن أن هذا كافٍ.»

لقد أوقف راكب الدراجة النارية ذو المقطورة تسلسل أفكاره. كانت أوقاته موضحة على الخريطة، لذا فهي مهمة. ما علاقته بهروب آن أبكوت؟ لكنه تخيل راكب الدراجة النارية ومقطورته، وتبيَّنت له صلته بالأمر. مثَّلت الحقيبة الكبيرة مفتاح الحل. ستغادر آن أبكوت قصر السيدة لو فاي بملابس الحفلة، وكأنها عائدة إلى منزل كرينيل؛ دون أي أمتعة. ولا يمكنها أن تصل إلى باريس صباحًا بذلك الشكل دون أن تثير على أدنى تقدير الشكوك وربما الفضول. كان راكب الدراجة النارية سيلتقيها في فال تيرزون، وسينقل أمتعتها بسرعة إلى سيارتها، ثم يعود إلى ديجون عبر الطريق المباشر، بينما تنعطف آن في نهاية الوادي إلى باريس. وتذكَّر أنَّ سبع دقائق مضت بين لحظة لقاء الدراجة النارية بالسيارة وفراقهما. إذَن، خُصِّصت سبع دقائق لنقل الأمتعة. كما خطرت له ومضة أخرى: لم تخبره بيتي بشيء عن هذه الخطة. بل قُدِّمت له الرحلة وكأنها مجرد نزهة صيفية، في أولى ساعات حريتها، وهذا طبيعي. صمتها يتماشى تمامًا مع تصميم بيتي وآن أبكوت على استبعاده تمامًا من الخطة. أخذت كل تفصيلة مكانها مثل قطع الأحجية. نعم، لقد كانت بروفة زمنية. وكان هانو يعلم كل شيء عنها!

كانت تلك القناعة المزعجة هي أول ما اجتاح جيم فروبيشر حين تغلَّب على دهشته من الخطة. كان هانو يعلم! وكانت بيتي قد علَّقت آمالها كلها على فرار آن.

فقال متوسلًا بحرارة: «دعها تذهب! دع آن أبكوت تفر إلى باريس، ثم إلى إنجلترا!» فمال هانو إلى الخلف في كرسيه وقد انفلت منه زفير خافت. وانفرجت على وجهه أغرب ابتسامة.

وقال: «أفهم الآن.»

فاندفع فروبيشر يناشده بحماسة: «أعلم، أعلم. أنت من ضباط الشرطة الجنائية، وأنا رجل قانون ومحامٍ بهيئة المحكمة العليا في بلادي، ولا يحق لمثلي أن يرفع إليك طلبًا كهذا. بيد أنني أقدمه إليك دونما أدنى تردد. لن تفلحوا في إدانة آن أبكوت. لا فرصة لديكم. لكنكم تستطيعون أن تحيطوها بشبكة من الشبهات لن تستطيع الفكاك منها أبدًا. نعم يمكنكم تحطيمها، ولكن ذلك كل ما يمكنكم فعله.»

قاطعه هانو بهدوء: «أنت تتحدث بحماسة، يا صديقي.»

لم يكن بوسعه أن يشرح له أن قلق بيتي على إنقاذ صديقتها آن هو ما دفعه لهذا الرجاء. فالتفَّ على الموضوع مستعينًا بما قد يسببه الأمر من فضيحة.

فأردف يقول: «لقد كان هناك الكثير من التشهير بسبب بوريس وابرسكي. ألم يكفِ ذلك لإيلام الآنسة هارلو! لماذا تُجبر على الوقوف في منصة الشهود والإدلاء بشهادتها ضد

صديقتها في محاكمة لن تسفر عن شيء؟ هذا ما أريدك أن تدركه يا سيد هانو. إن لي شيء من الخبرة في المحاكمات الجنائية ...» — يا طيف السيد هاسلت! ليتك حاضر الآن بشخصك الحريص على الشكليات لتمحو بكلمة ناقمة منك هذه السُّبَّة التي لحقت باسم «فروبيشر وهاسلت»! — «وأؤكد لك أن هيئة المحلفين لن تصدر إدانة بناءً على أدلة كهذه. إن عقد اللؤلؤ لم يُعثر عليه حتى؛ ولن تجدوه أبدًا. خذها مني يا سيد هانو، لن تجدوه!»

هنا فتح هانو درج الطاولة وأخرج علبة من خشب الأرز، من تلك العلب الصغيرة التي تُصنَع لتحمل ١٠٠ سيجارة، والتي يستخدمها المصنعون من الطبقة الأرفع في إنجلترا في سلعهم. ودفع بها عبر الطاولة إلى جيم. فسمع فروبيشر شيئًا أثقل من السجائر يهتز بداخلها. فتناول العلبة بفزع. إذ لم يشك للحظة أن بيتي كانت تفضَّل أن يضيع عقدها إلى الأبد على أن يُستخدم سلاحًا لتحطيم آن أبكوت. وفتح غطاء العلبة. فوجدها مملوءة بالقطن. ومن بين خيوط القطن استخرج عقدًا من اللؤلؤ، منتظم الحبات، يتلألأ بوميض وردي خافت، يذهب جماله بالعقل حتى لَمَن لا يعرف قيمته.

قال هانو: «كان من الأدق أن أعثر عليه في علبة ثقاب. لكنني سأشرح للسيد بيكس أن هناك علاقة وثيقة بين الثقاب والسجائر.»

ظلَّ جيم يحدِّق في العقد، تملؤه خيبة الأمل، وذلك حين طرق مورو الباب الآخر الواصل بالغرفة المجاورة. فنظر هانو إلى ساعته مرة أخرى.

ثم قال: «لقد أصبحت الساعة الحادية عشرة. علينا أن نذهب. لقد انطلقت السيارة من منزل السيدة لو فاي.»

ونهض من كرسيه، وأعاد العقد بين طبقات القطن، ثم أقفل الدرج على العلبة مجددًا. كانت الغرفة قد اختفت من أمام عيني فروبيشر. كان يرى الآن بيتًا كبيرًا مضاءً بأنوار ساطعة، وفتاة تنسلُّ من نافذة وقد لفَّت رداءً داكنًا فوق فستانها اللامع، وتركض في حذاء الرقص الخفيف نحو سيارة تنتظرها تحت الأشجار.

فقال جيم وقد دبَّ فيه أمل مفاجئ: «ربما لا تكون السيارة قد انطلقت. ربما أصابها عطل. أو ربما تأخر السائق. ثمة أشياء كثيرة يمكن أن تكون قد حدثت!»

ردَّ هانو: «وهل يمكن ذلك في خطة أُعدَّت بعناية وجُرِّبت بدقة؟ كلا يا صديقي.»

ثم سحب من خزانة على الجدار مسدسًا أوتوماتيكيًّا، ووضعه في جيبه.

فسأل جيم: «أتترك العقد في درج الطاولة بهذه البساطة؟ يجب أن نأخذه إلى مركز الشرطة.»

فقال هانو: «هذه الغرفة ليست بدون رقابة. سيكون العقد في أمان.»

فحاول جيم حجة أخرى مترقبًا.

فقال: «لقد تأخرنا كثيرًا لنعترض آن أبكوت عند الطريق الفرعي. كما قلتَ أنت بنفسك، الساعة تجاوزت الحادية عشرة. وقطع مسافة مثل تلك على دراجة نارية في النهار في ٣٥ دقيقة يعني قطعها ليلًا بالسيارة في ٥٠ دقيقة، خصوصًا على طريق غير معبَّد.»

فرد هانو: «نحن لا نعتزم اعتراض آن أبكوت عند الطريق الفرعي.» ثم طوى الخريطة ووضعها على رف الموقد.

وأضاف بصوت خافت: «أنا أخاطر مخاطرة كبيرة. لكن لا مفر! لا يمكنني أن أكون مخطئًا!» بيد أنه التفت عن رفِّ الموقد بوجه متجهم مضطرب. ثم خطرت له فكرة جديدة وهو ينظر إلى جيم.

فقال: «بالمناسبة. هل طالعت واجهة كاتدرائية نوتردام؟»

هزَّ جيم رأسه إيجابًا.

وقال: «نقش «يوم الحساب». ذهبنا لنراه. ظننا أن طريقتك في التعبير عن معتقدك كانت قاسية نوعًا ما.»

ظلَّ هانو صامتًا للحظات وهو ينظر إلى الأرض، ثم قال بهدوء: «عذرًا.» ثم أضاف سؤالًا: «أقلت «ظننا»؟»

فأوضح جيم يقول: «الآنسة هارلو وأنا.»

فقال هانو: «أوه، أجل، أجل؛ كان يجدر بي أن أنتبه لذلك.» ثم انطلق من شفتيه أنين مضطرب من جديد. وأضاف: «لا بد أن يكون الأمر كذلك! كلا، لا يمكن أن أكون مخطئًا ... على أي حال، فات الأوان الآن لتغيير الخطة.»

دقَّ مورو على الباب الواصل بين الغرفتين من جديد. فانتفض هانو منتبهًا.

وقال: «حان الوقت! خذ قبعتك وعصاك يا سيد فروبيشر! ممتاز! هل أنت جاهز؟» وفجأة لفَّ الظلام الغرفة.

فتح هانو الباب الواصل بالغرفة الأمامية ودخلوها؛ كانت عبارة عن غرفة نوم تطل على الساحة الكبيرة للمحطة. وكانت هي الأخرى في ظلام دامس. لكن مصاريع النوافذ لم تكن مغلقة، فتسللت بقع من الضوء على الجدران من مصابيح الساحة ومن فندق جراند تافيرن في الزاوية. كان بمقدور الرجال الثلاثة أن يروا بعضهم بعضًا، لكن في تلك العتمة، بدا لجيم وجها رفيقيه شاحبين كالأموات.

وقال مورو: «اتخذ دونيه موقعه عندما طرقت الباب أول مرة. وقد لحق به الآن باتينو.»

وأشار إلى الجهة المقابلة من الساحة، نحو مباني المحطة. كانت بعض سيارات الأجرة بانتظار قطار باريس، وأمامها رجلان يرتديان زي العمال يتحدثان. أشعل أحدهما سيجارة من عقب قدَّمه له الآخر. فرأى الرجال الثلاثة من خلف النافذة طرف السيجارة يتوهج.

فقال مورو: «الطريق خالٍ يا سيدي. يمكننا الانطلاق.» ثم التفت وغادر النُّزُل نحو الدرج. وهمَّ جيم باتباعه. حدث ذلك دون أن يعلم إلى أين سيذهبون، ولا حتى تخمينًا. لكنه كان شديد القلق. بدا أن كل آماله وآمال بيتي في دفن قضية وابرسكي قد انهارت. ولم يزده اطمئنانًا أن شعر بكفِّ هانو توضع على ذراعه وتمنعه من التقدم.

قال هانو بصوت هادئ حازم، بينما عيناه تتلألآن في العتمة، ووجهه يشعُّ بياضًا باهتًا: «عليك أن تفهم يا سيد فروبيشر أن القانون الفرنسي هو مَن يتولَّى الأمر الآن. لا ينبغي منع الضباط من أداء واجبهم ولو بقول كلمة أو بتحريك إصبع. وعلى الجانب الآخَر، أعدك بالذي طلبتَه. لن يُعتقل أحد لمجرد الاشتباه به. ستشهد عيناك على كلامي.»

ثم تبع الرجلان مورو نزولًا على الدرج وخروجًا إلى الشارع.

الفصل الحادي والعشرون

المنزل السري

كانت ليلة صافية ومظلمة، والهواء ساكن ودافئ، والسماء تزهو بعدد لا يُحصى من النجوم. تسلَّلت المجموعة الصغيرة إلى قلب المدينة عبر الأزقة الخلفية والممرات الضيقة. كان دونيه يتقدَّمهم، ويأتي باتينو آخرهم متأخِّرًا بثلاثين ياردة تقريبًا، بينما سار مورو في الجهة المقابلة من الشارع. وما إن تجاوزوا أنوار ساحة المحطة، حتى صاروا يسيرون بين أبواب موصدة ونوافذ مُغلَقة لمنازل دامسة. كان قلب جيم فروبيشر يخفق بعنف داخل صدره. وقد أرهف سمعه وأمعن بصره عله يلتقط دليلًا على أن هناك مَن يتعقَّبهم. لكن لم يكُن ثمة من يتوارى في أحد مداخل المنازل، ولم تحمل الريح إلى آذانهم أكثر الأصوات خفوتًا لتدل على وجود مَن يُلاحقهم.

فقال بصوت حاول عبثًا أن يجعله ثابتًا، لكن بقي فيه شيء من الارتجاف: «في ليلة كهذه، يمكن سماع وقع الأقدام على الحجارة من مسافة ربع ميل، ونحن لا نسمع شيئًا. ومع ذلك، إن كانت هناك عصابة، فكيف يُعقل أنهم لا يراقبوننا؟»

وقد خالفه هانو الرأي. إذ رد وهو يخفض صوته: «هذه ليلة تصلح للذرائع؛ الذرائع القوية والمُحكمة التي لا يمكن الطعن فيها. سيكون الجميع مع أصدقائهم علنًا؛ عدا المنخرطين في هذا الأمر انخراطًا مباشرًا، وأولئك لا يعلمون كم اقتربنا من أسرارهم.»

ثم انعطفوا إلى زقاق ضيِّق وساروا بمحاذاة جانبه الأيسر.

وسأل هانو: «هل تعرف أين نحن؟ لا تعرف؟ نحن الآن قريبون من منزل كرينيل. فخلف هذه البيوت التي عن يسارنا، يمتد شارع تشارلز روبرت.»

فتسمَّر جيم فروبيشر فجأة.

وهتف: «جئتَ إلى هنا ليلة أمس إذَن بعد أن تركتُك في مقر الشرطة؟»

فأجابه هانو بهدوء لا يتزعزع: «آه، إذَن فقد عرفتني! كنت أتساءل إن كنت فعلت، حين التفت عند بوابة دارك.»

على الجانب الآخَر من الشارع، قطع تسلسل البيوت سور عالٍ كان له بابان خشبيَّان ضخمان. ومن خلف السور، عند نهاية أحد الأفنية، كان الطابق العلوي وسطح بيت فخم يرتفعان بانحدار شديد تحت السماء المرصعة بالنجوم.

فأشار هانو إلى ذلك البيت.

«انظر إلى ذلك المنزل أيها السيد! جاءت السيدة رافيار لتقيم هناك بينما تنتظر أن تُطلق يداها. إنه يتبع منزل كرينيل. وبعد أن تزوجت من سايمون هارلو، لم يؤجروه قط، بل أبقوه كما هو، مَقامًا لحبهما العظيم؛ يا لهما من زوجين رومانسيين عجيبين. لكن، لا شك في أن هناك دلالة رومانسية أكبر. فمنذ ذلك الحين وهو مهجور.»

شعر جيم فروبيشر ببرودة تطبق على قلبه. أهذا هو الهدف الذي يقوده إليه هانو بهذه الخطى الواثقة؟ أخذ يحدِّق في البوابة والمنزل. حتى في الظلام، بدا المنزل موحشًا ومتآكلًا، وكان طلاء الأبواب متقشِّرًا، ولا ضوء يشعُّ من أي نافذة.

لكن كان ثمة من هو مستيقظ في الشارع، فقد انفتحت بحذر شديد إحدى النوافذ فوق رءوسهم مباشرة، وسُمع همس يتسرَّب إليهم.

«لم يظهر أحد.»

لم يُبدِ هانو أي رد فعل تجاه الهمسة. ولم يتوقف عن سيره حتى، لكنه قال لفروبيشر:

«كما سمعت، ما زال مهجورًا.»

عند نهاية الشارع، اختفى دونيه في العتمة. وعبر هانو وفروبيشر الطريق بينما كان مورو يتقدمهم مباشرة، وانعطفوا في ممر ضيِّق بين البيوت على اليمين.

ومن بعده انعطفوا مجددًا إلى اليمين في ممرٍّ ضيِّقٍ آخر بين جدران عالية؛ وبعد أن قطعوا نحو ٣٠ ياردة، رأى فروبيشر فروع الأشجار الوارفة تمتد خلف الجدار عن يمينه. كانت الظلمة هنا تحت الأغصان كثيفة إلى درجة أنه لم يعد يرى رفيقَيه، واصطدم بمورو قبل أن يدرك أنهم بلغوا نهاية المسير. كانوا الآن خلف حديقة المنزل الذي عاشت فيه السيدة رافيار وأحبَّت.

شدَّ هانو قبضته على ذراع جيم فروبيشر يجبره على الوقوف بلا حراك. وكان باتينو قد اختفى كما اختفى دونيه من قبل، في صمت تام وبلا أثر. وقف الرجال الثلاثة الباقون

في الظلام ينصتون. وترددت في ذهن فروبيشر عبارة قالتها آن أبكوت في حديقة منزل كرينيل، وهي تصف الفزع الذي تملَّكها حين شعرت بوجه يميل عليها في الظلمة. كان قد ظنَّها تبالغ. لكنه الآن يتراجع عن حكمه. إذ خُيل إليه أن ضربات قلبه حتمًا ستوقظ كل من في ديجون.

ظل الرجال على تلك الحال دقيقة كاملة، ثم انحنى نيكولا مورو بإشارة من هانو. وسمع فروبيشر كفَّه ينزلق فوق الخشب، وأعقب ذلك طقطقة خافتة جدًّا، وهو يُدخل مفتاحًا في القفل ويديره. ودون أي صوت، انفتح باب في الجدار وانبثق منه خيط من الضوء إلى الزقاق. ودلف الرجال الثلاثة إلى حديقة يعمُّها العشب البري والشجيرات المتشابكة. ثم أغلق مورو الباب خلفهم وأقفل القفل. وفي اللحظة التي استقر فيها القفل، دقت ساعات المدينة معلنة انتصاف الساعة.

همس هانو في أذن فروبيشر:

«لم يبلغوا فال تيرزون بعد. هلم بنا!»

ثم تقدَّموا يتسللون فوق بساط الحشائش والأعشاب إلى مؤخرة المنزل. وكانت هناك درجات حجرية قصيرة يعلوها العفن تهبط من الشرفة؛ ووراء الشرفة نوافذ مغلقة بالمصاريع. لكن في زاوية المنزل، على مستوى الحديقة، كان ثَمَّ باب. فانحنى مورو مرة أخرى، ومجدَّدًا انفتح الباب إلى الداخل بصمت تام. لكن هذا الباب، على خلاف باب الحديقة، لم يُدخل معهم أي بصيص من النور، بل انفتح على ظلمة حالكة كجوف القبر. فتقهقر جيم فروبيشر خطوة، لم يكُن خائفًا، بل كان يرهب أن يرى رجلًا غيره يرتدي ملابسه ويقطن جسده يخرج من هذا الباب من خلفه. فتوقف قلبه لوهلة، ثم دفعه هانو برفق إلى داخل الممر. وأُغلِق الباب خلفهم، وتناهى إليه صوت خافت بالكاد يُسمع ينبئ بأن الباب قد أُقفل.

فهمس هانو بصوت حاد: «أصغِ!» فقد التقطت أذنه المدرَّبة صوتًا من داخل المنزل فوق رءوسهم. وفي لحظة، التقطه فروبيشر أيضًا، صوتٌ منتظم ومستمر وخافت للغاية، لكنه بدا موحشًا في هذا البيت المهجور الغارق في الظلام. وتدريجيًّا، أدرك جيم ما هو.

قال متنهِّدًا: «إنه صوت ساعة!»

فأجابه هانو، «نعم! ساعة تدُقُّ في منزل مهجور!» ورغم أنه نطق بكلماته نفخًا أكثر منه همسًا، فقد قالها بشيء من الانفعال الذي لم يخفَ على جيم. لقد التقط الصياد أثر فريسته. وباتت الطَّريدة قاب قوسين أو أدنى.

وفجأةً، أضاء خيط من النور الممرَّ، ليكشف عن درج صغير يؤدي إلى باب على اليمين في أعلاه، ثم انطفأ النور. إذ أعاد هانو مصباحه الكهربائي إلى جيبه، وتجاوز مورو متقدِّمًا كلا رفيقَيه. ثم انفتح الباب عند أعلى الدرج بصرير مفاجئ صادر من مفاصله. فتوقف فروبيشر وقد بلغ قلبه حنجرته، وإن كان لا يعرف ممَّ يخشى بالتحديد. ثم أضاء المصباح من جديد، وهذه المرة أخذ يستكشف ما حوله. وقد وجد الرجال الثلاثة أنفسهم في ردهة مرصوفة بالحجر.

اجتاز هانو الردهة، وأطفأ المصباح، وفتح بابًا آخر. ومن خلال مصراع نافذة مكسور يتدلَّى على مفصل، تمكَّنوا من رؤية ردهة طويلة تمتد في الظلمة. وكان الضوء الخافت الداخل من النافذة يُظهر لهم بابًا مزدوجًا عاليًا يؤدي إلى غرفة في مؤخرة المنزل. تقدَّم هانو بخطى متسلِّلة، وألصق أذنه بأحد لوحي الباب. وبعد لحظات، بدا له أنه قد اطمأن لما سمع، فأنزل يده إلى المقبض، وانفتح الباب دون أن يُحدث أدنى صوت. ثم أضاء المصباح مرة أخرى. فظهرت أمامهم غرفة فسيحة عالية السقف، نوافذها الطويلة محجوبة بستائر سميكة من حرير أحمر مزركش، وعلى نحو مفاجئ لفروبيشر، بدت الغرفة مأهولة وتستخدم يوميًّا. إذ كان كل شيء فيها منظم ونظيف، والأثاث لامع ومحفوظ، وفي المزهريات زهور جديدة وطازجة تعبق الأرجاء برائحتها؛ وكان موضع الساعة التي تدق فيه هو رف المدفأة الرخامي.

كانت الغرفة مُؤثَّثة بذوق أنيق يتميز بالرقة، باستثناء خزانة فخمة وضخمة ذات أبواب مزدوجة مصنوعة من الخشب المطعَّم، تحتل تجويفًا قرب المدفأة. وعلى الجدران كان ثمة مرايا بواجهات مذهَّبة ومصابيح كهربائية، وعدد من اللوحات المائية. وكانت هناك ثُريَّا تتلألأ متدلية من السقف، وطاولة كتابة على الطراز الإمبراطوري قرب النافذة، وأريكة وثيرة تمتد بمحاذاة الجدار المقابل للمدفأة. لاحظ جيم فروبيشر كلَّ ذلك بسرعة، قبل أن ينطفئ المصباح مرة أخرى. وقد أغلق هانو الباب من خلفهم.

وقال هامسًا حين عادوا إلى الرواق الطويل: «يمكننا أن نختبئ في تجاويف هذه النوافذ. لن يُضاء نور في هذه الغرفة ما دام ذلك المصراع معطوبًا، هذا أكيد. فلنراقب الآن بصمت تام.»

واتَّخذوا مواقعهم جميعًا مستترين بالظلمة الدامسة بجوار النافذة ذات المصراع المكسور. كانوا يستطيعون رؤية فناء المنزل والبوابتين الكبيرتين عند نهايته رؤية خافتة، فأخذوا ينتظرون؛ وكان جيم فروبيشر تحت وطأة توتُّر رهيب وتوقُّع مُرعب، حتى خُيِّل

إليه أن كل ثانية تمرُّ تُعادل ساعة، وقد عجِب سرًّا من ثبات رفيقَيه. إذ لم يكُن يسمع أي صوت أنفاس سوى صوت أنفاسه هو.

وبعد برهة، وضع هانو يده على ذراعه، واشتدَّ قبضه عليها شيئًا فشيئًا. ورغم وقوف جيم بلا حراك كأنما أصيب بتشنُّج، كان هانو هو الآخر ينتابه انفعال شديد. فقد انفرج أحد مصراعي باب الفناء الواسع في صمتٍ. ولم يتجاوز انفراجه اليسير، ليعود فينغلق بالصمت نفسه. بيد أن أحدهم انسلَّ إلى الداخل؛ كان خيالًا غامضًا، وسريعًا، وصامتًا إلى حدٍّ جعل جيم يظن أن مخيلته خدعته وهيأت ذلك له، لولا تلك الكتلة شديدة السواد عند منتصف البوابة الكبيرة. فثمَّة من يقف الآن حيث لم يكُن أحد قبل دقيقة، يقف ثابتًا كأحد المراقبين المختبئين في الرواق، بل أكثر سكونًا من أحدهم. إذ تحرَّك هانو فجأة على أطراف أصابعه إلى أعماق الظلام، ثم جلس على عقبيه، وأخرج ساعته من جيبه. ثم جذب معطفه حولها وأومض بمصباحه على قرصها مجرد لمحة قصيرة. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة بخمس دقائق.

همس وهو يزحف عائدًا إلى مكانه: «حان الوقت. استمعوا الآن!»

مضت دقيقة، ثم أخرى. وجد فروبيشر نفسه يهتز كما يهتز المرء عند المصوِّر حين يُطلب منه أن يبقى ساكنًا. شعر وكأنه على وشك السقوط. ثم التقطت أذنه صوتًا بعيدًا، وفورًا هدأت أعصابه. كان صوت دراجة نارية، وراح الصوت يعلو ويعلو. وقد شعر بتوتُّر هانو بجانبه. لقد كان هانو على صواب إذَن! ترسَّخت هذه القناعة في ذهنه أكثر. فحين كان كل شيء غامضًا ومشوَّشًا عليه، كان هانو يرى بوضوح منذ البداية. لكن ما الذي رآه؟ لم يكُن فروبيشر يستطيع الإجابة عن هذا السؤال بعد، وبينما كان يتخبَّط في ظنونه، اجتاحه شعور عارم بالارتياح. فقد توقَّف صوت الدراجة تمامًا. كانت قد اخترقت أحد الشوارع المجاورة وانطلقت نحو الريف المفتوح. لم يعُد يسمع لمحركها أدنى صوت. لقد اجتاز ذلك المسافر الليلي مدينة ديجون ونجح في الانطلاق في طريقه.

وفي هدوء وارتياحه، تخيُّله يلتهم الطريق، ومصباحه يزاحم نجوم السماء بضوئه، والأميال تمتد وتزداد من خلفه؛ وفجأةً، تلاشى ذلك المشهد السارُّ من أمام ناظريه، وخفق قلبه كأنما سيرقى إلى حلقه. فقد فُتح مصراع من مصراعي البوابة الكبيرة فتحة أكثر هذه المرة، ثم أُغلق، وكانت الدراجة النارية ذات العربة الجانبية داخل الفناء. وقد حرَّر السائق قابض تعشيق التروس وأوقف محركه على بُعد أكثر من ١٠٠ ياردة في الشارع الآخر. وكانت سرعته الذاتية كافية، بل أكثر من كافية، لتدفعه نحو المنعطف ومنه إلى

داخل الفناء. ثم دنا الرجل الذي أغلق الباب من سائق الدراجة النارية بعد أن ترجَّل عنها. ورفعا معًا شيئًا من العربة الجانبية ووضعاه على الأرض. ثم فتح الحارس الباب مرة أخرى، وأخرج السائق دراجته للخارج، وأُغلق الباب، ودار المفتاح في قفله. وفي غضون ذلك، لم ينطق أي منهما ولو بكلمة واحدة أو يصدر حركة غير ضرورية. حدث كل ذلك خلال بضع ثوانٍ. وقف الرجل قرب البوابة، وبعد قليل، سُمع من أحد الشوارع صوت محرِّك الدراجة من جديد. لقد أُنجزتَ مهمته.

تساءل جيم فروبيشر مندهشًا عن السبب الذي جعل هانو يتركه يرحل. لكن هانو لم يكن يسترعي انتباه سوى الرجل الذي بقي، والحمولة الكبيرة الموضوعة على الأرض بجوار الجدار الجانبي الغلف. تحرَّك الرجل نحو تلك الحمولة، وانحنى فوقها، ورفعها بجهد ظاهر، ثم وقف حاملًا إياها بين ذراعيه. كان الشيء طويلًا وثقيلًا بلا معالم واضحة. هذا فقط ما أمكن للمراقبين في الرواق أن يروه.

تحرَّك الرجل في الفناء نحو الباب بلا صوت، وجذب هانو رفيقيه مبتعدًا عن النافذة ذات المصراع المكسور. ورغم سرعة حركتهم، استطاعوا بالكاد الإفلات من النور الخافت المنبعث. فقد كان المتسلل بالفعل ومعه حمولته داخل الرواق. ولم يكن الباب الأمامي موصدًا كما تبين. لم يتطلب الأمر أكثر من لمسة لفتحه. فتحرَّك المتسلِّل بلا صوت نحو الباب المزدوج، وقد ترك هانو أحد مصراعيه مفتوحًا. ووقف أمامه، ودفعه بقدمه، فانفتح الجانبان معًا. ثم اختفى داخل الغرفة. ولكن النور الضبابي الخافت سقط عليه للحظة، ورغم أن أحدًا لم يستطع تخمين هويته، فقد رأوه جميعًا وهو يحمل كيسًا ثقيلًا.

ظنَّ فروبيشر أن هانو سيتحرك الآن، في جميع الأحوال. لكنه لم يفعل. سمعوا جميعًا صوت الرجل، لكن لم يسمعوا وقع خطواته، بل احتكاك ملابسه بالأثاث: ثم جاء صوت ناعم، بالكاد يُسمع، كأنما وضع حمولته على أريكة وثيره: ثم عاد فظهر عند عتبة الباب، وذراعاه فارغتان، وقبعته مضغوطة على جبينه، وبياض باهت حيث يفترض أن يكون وجهه. ورغم الظلام، رأوا لمعان عينيه.

قال فروبيشر في نفسه: «الآن سيقبض عليه هانو!» متوقعًا أن ينقضَّ عليه فجأة ويطرحه أرضًا.

لكن هانو ترك هذا الرجل أيضًا وشأنه. أغلق الرجل الأبواب بهدوء حيث جمع المصراعين ثم غادر المعرض. لم يُسمع صوت الباب الخارجي وهو يُغلق، لكن دوَّى داخل المنزل على نحو مفاجئ صوت كأنه معدن فوق حجر. وهنا فهم حتى جيم فروبيشر أن

الباب الخارجي قد أُقفل، وأن المفتاح قد أُسقِط من خلال فتحة الرسائل. زحف الرجال الثلاثة عائدين إلى نافذتهم. فرأوا المتسلِّل يعبر الفناء، ويفتح مصراع البوابة الكبيرة، ويتلفَّت يمنة ويسرة، ثم يغادر. ومرة أخرى، دوَّى صوت مفتاح على الحجر. لقد دُفع أو رُكل تحت الباب إلى داخل الفناء. دقَّت الساعات معلنة ربع الساعة. ولدهشة فروبيشر، كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة والربع. منذ لحظة دخول الدراجة النارية إلى الفناء وحتى الآن، لم يمرَّ أكثر من خمس دقائق. ومرة أخرى، خلا المنزل من أهله عدا الرجال الثلاثة.

فهل كان خاليًا فعلًا؟

انسلَّ هانو إلى باب الغرفة وفتحه؛ وانبعث صوت طفيف من تلك الحجرة الدامسة، كصوت شيء حيٍّ يتحرَّك في تململ. وعند مرفق جيم فروبيشر تنفَّس هانو الصعداء. يبدو أن أمرًا ما قد حدث، وبالكاد كان يجرؤ أن يعلق أمله عليه؛ خوف كبير كان يخشاه، وتبيَّن له الآن أنه لم يتحقَّق. ثم دوَّى فجأة صوت طقطقة حاد، ثم صوت زنبرك ينفلت، ثم مزلاج يُسحب. أغلق هانو الباب بسرعة، وابتعد الرجال الثلاثة. لقد دخل أحدهم إلى الغرفة بطريقة ما، وكان يتحرك فيها بهدوء. ومن زاوية الممر الذي لجئوا إليه، رأوا الباب يتحرك ببطء نحو الداخل. ثم ظهر شخص عند العتبة، إذ وقف بلا حراك يُنصت، ثم بعد ثوانٍ تقدم عبر الرواق نحو النافذة. كانت فتاة؛ هذا ما أمكنهم تمييزه من شكل رأسها ورقبتها النحيلة. ولدهشة الثلاثة، ظهر ظل ثانٍ بجانبها. وقد أطل كلاهما من النافذة نحو الفناء. لم يكن هناك ما يخبرهما إن كان الزوار قد أتوا ورحلوا، أم لم يأتوا بعد. همست إحداهن:

«المفتاح!»

وتقدمت الأخرى، الأقصر قامة بينهما، نحو الرواق وعادت وفي يدها المفتاح الذي أُسقط من خلال فتحة الرسائل. ضحكت الطويلة منهما، وكان صوتها واضحًا، فرحًا، كزقزقة الطيور، حتى إن جيم فروبيشر لم يشك للحظة في هويتها. كانت الفتاة التي تقف عند النافذة في هذا المنزل المظلم والخفي والمفتاح في يدها والتي تخبر الأخرى بأن كل ما جرى تخطيطه قد نُفِّذ، هي بيتي هارلو. لم يتخيل فروبيشر يومًا صوتًا بهذه الدرجة من الخبث وبهذا القدر من الترويع، كضحكتها الرنانة والمبتهجة التي انطلقت وسط سكون الرواق. لقد أرعبته، وهزت ثقته بالعالم من جذورها.

فقال محدثًا نفسه: «حتمًا هناك تفسير وجيه» لكن قلبه كان يغرق في رعب حقيقي. ترى، ما هو الحدث الفظيع الذي تكون تلك الضحكة مقدمة له؟

عاد الظلان يجتازان الرواق ومبتعدين عن النافذة. لم يعُد هناك ما يدعو إلى الحذر على ما يبدو.

قالت بيتي بصوتها العادي: «أغلقي الباب يا فرانسين.» وحين حدث ذلك، أُضيئت الأنوار داخل الغرفة. لكن الزمن والإهمال كانا قد أزاحا الأبواب عن مواضعها. فلم تُغلق تمامًا، وبين مصراعي الباب ظهر شريط من الضوء الذهبي كأنه عصا ساحر.

هتفت بيتي: «هيا نرى الآن! هيا نرى!» وضحكت مجددًا؛ وتحت غطاء ضحكتها، تسلل الرجال الثلاثة إلى الأمام ونظروا خلال الباب: كان مورو على ركبتيه، وفروبيشر ينحني فوقه، وهانو منتصبًا خلفهما.

الفصل الثاني والعشرون

آلة كورونا

وضع المُحقِّق يده برفق على كتف جيم فروبيشر، مُومئًا إليه بالصمت، وقد كان هذا التنبيه ضروريًّا. كانت ثُريَّا الكريستال الكبيرة تتلألأ كأنها مرصعة بالجواهر، والمرايا في الشمعدانات تعكس أضواء المصابيح فتضاعفها؛ وكانت الغرفة الصغيرة الزاهية تغص بالنور؛ وفي هذا البريق وقفت بيتي تضحك. كان كتفاها العاريان يبرزان من فستان سهرة ضيق من المخمل الأسود، ومن شعرها النحاسي المرتب بعناية إلى حذائها المصنوع من الساتان الأسود، بدت كأنها خرجت للتو من صندوق فاخر؛ وكانت تضحك من أعماق قلبها على كيس مُغلَق مُلقًى على الأريكة، كيس يهتز ويتلوى على نحو غريب كسمكة على الشاطئ. كان واضحًا أن هناك من حُبس داخل ذلك الكيس. ولم يكن لدى جيم فروبيشر أدنى شكٍّ في هوية ذلك الشخص، وبدت له ضحكات بيتي أكثر الأصوات التي سمعها في حياته قسوة ووحشية. كانت تميل برأسها إلى الخلف، فرأى جيم عنقها الأبيض النحيل يرتجف، وكتفاها تلمعان وترتجَّان. ثم صفقت بيديها في نشوةٍ فظيعة. فمات شيء ما في صدر فروبيشر وهو يصغي. تُراه كان قلبه؟ على كل حال، كانت تلك المرة الأخيرة التي ستضحك فيها بيتي هارلو.

قالت بيتي: «يمكنكِ أن تُخرجيها يا فرانسين»، وبينما كانت فرانسين تقص طرف الكيس بمقص، جلست هي إلى المكتب وأدارت ظهرها إلى الكيس وفتحت أحد الأدراج. قُطع الكيس وأُلقي على الأرض، وإذا بآن أبكوت ممددة على الأريكة، في ثوب رقصها اللامع، ويداها موثوقتان خلف ظهرها، وكاحلاها مشدودان إلى بعضهما بقسوة. كان شعرها منفوشًا، ووجهها محمرًّا، وكانت تبدو مصابة بدوار تام. كانت تلتقط أنفاسها بصعوبة، وصدرها يعلو ويهبط بشدة. لكنها في تلك اللحظة لم تكن مدركة لموقفها أو محنتها أو محيطها، فقد استقرت عيناها على فرانسين، ثم تحركتا إلى ظهر بيتي دون

أن يظهر فيهما أدنى أثر للمعرفة أو الإدراك. بذلت محاولةً للتحرك، لكن حركتها بدت فطريةً صرفة؛ ثم أسدلت جفنيها ومالت إلى الصمت، حتى إن الرائي لها من عند الباب لكانت الريبة تصيبه أنها لا تزال على قيد الحياة، لولا خفوت أنفاسها.

في هذه الأثناء، أخرجت بيتي من الدرج المفتوح أولًا زجاجة صغيرة نصف مملوءة بسائل أصفر شاحب، ثم علبة صغيرة من الجلد المغربي. ومن هذه العلبة أخرجت محقنًا مع إبرته، وركبت الجزأين معًا.

ثم سألت وهي تنزع السدادة عن الزجاجة: «هل أصبحت جاهزة؟»

أجابت فرانسين: «تمامًا، سيدتي». وكانت قد بدأت كلامها بضحكة، لكنها عندما نظرت إلى الأسيرة، انقطعت ضحكتها فجأة وتحولت إلى شهقة مذعورة. إذ كانت آن تنظر إليها مباشرة بنظرة غريبة تربك الأعصاب. كان من المستحيل تحديد ما إذا كانت تعرف فرانسين أم تتجاهلها عمدًا. لكن نظرتها لم تتزعزع، بل كانت ثابتة بشكل مرعب، فصرخت فرانسين فجأة بصوت حاد وهستيري:

«اصرفي عينيكِ عني، ألا تفعلين؟» ثم أضافت وهي ترتجف: «إنه أمر بشع يا سيدتي! كأن جثة ميتة تراقبك وأنت تتحركين في الغرفة.»

التفتَت بيتي بفضول نحو الأريكة، فاتجهت عينا آن إليها. وكأنما تلك النظرة وحدها كانت كفيلة بإيقاظها. فعندما عادت بيتي إلى ملء المحقن بالسائل، تسرَّبَت الحيرة والاضطراب إلى وجه آن أبكوت. وحاولت أن تنهض، لكنها لم تستطع، فبدأت تمزق القيود حول معصمَيها، وقدماها تركلان فوق الأريكة. وتسرب من بين شفتَيها أنين من الألم، ومعه عاد إليها كامل وعيها.

همست آن: «بيتي!» فاستدارت بيتي نحوها، وفي يدها الإبرة جاهزة. لم تتكلَّم، لكن وجهها كان أفصح من أي كلام. كانت شفتها العليا مرفوعة قليلًا عن أسنانها، وقد أرعبت نظرة عينيها الواسعة جيم فروبيشر الواقف عند الباب. لقد رأى هذه النظرة مرة من قبل؛ حين كانت بيتي مستلقية على فراش السيدة هارلو أثناء تجربة هانو، بينما كان هو وحده مع آن في غرفة الكنوز. لم يكن يفهم معناها حينها، أما الآن فكان المعنى واضحًا مثل وضوح الشمس: كانت نظرة قاتلة. وكذلك أدركت آن أبكوت المعنى. وعلى الرغم من عجزها، تقلصت على الأريكة، وتكلمت بشفاه مرتعشة وعيناها مثبتتان على بيتي في رعب شنيع.

فقالت: «بيتي! أنتِ مَن اختطفني وأتى بي إلى هنا! أنتِ مَن أرسلني إلى مدام لو فاي ... عمدًا. آه! الرسالة إذَن! الرسالة المجهولة!» ثم سطع في عقلها نور جديد، واهتز كيانها برعب جديد. «أنتِ من كتبتِها! أنتِ يا بيتي حقًّا! أنتِ السوط!»

ثم انحنت إلى الوراء من جديد، تحاول عبثًا أن تتحرَّر من قيودها. فنهضت بيتي من مقعدها، واجتازت الغرفة نحوها، والإبرة تلمع في يدها. فرأت الأسيرة البائسة الإبرة.

فصاحت: «ما هذا؟» ثم أطلقت صرخة عالية. إذ منحها شعورها بالرعب الشديد قوة غير طبيعية. وبطريقة ما سحبت نفسها إلى الأمام، ووضعت قدميها على الأرض، وتمكنت من الوقوف متمايلة.

وشرعت تقول: «أنتِ سـ ...» ثم توقفت فجأة. «كلا! لا يمكن! لا يمكنكِ فعل هذا!»

بسطت بيتي كفها فوضعتها على كتف آن، وأمسكتها برهةً، متلذذةً بانتقامها.

ثم سألت بصوت ناعم ومرعب: «وجه مَن كان ذاك الذي انحنى فوق وجهك في الظلام؟ لِمَن كان ذلك الوجه يا آن؟ خمني!» ثم هزت ضحيتها المتمايلة برقة لا تقل رعبًا عن صوتها الهادئ. «أنتِ تتكلمين كثيرًا. لسانك يمثل خطرًا يا آن. أنتِ فضولية جدًّا! ماذا كنتِ تفعلين في غرفة الكنوز مساء البارحة وساعتك في يدك؟ ها؟ ألا تستطيعين الإجابة، أيتها الحمقاء؟» ثم تغير صوت بيتي. ظل منخفضًا وهادئًا، لكن الكراهية تسللت إليه، كراهية شديدة عميقة.

وأردفت: «لقد كنتِ تتدخلين في شئوني أيضًا، أليس كذلك يا آن؟ آه، أظن أن كلًّا منا يفهم الآخر جيدًا!» وضغط هانو على كتف فروبيشر. ها هو الدافع الحقيقي والسبب وراء كراهية بيتي. كانت آن أبكوت تعرف الكثير، وتوشك أن تعرف أكثر، وربما في أي لحظة تكتشف الحقيقة كاملة. نعم! سيبدو اختفاؤها وكأنه فرار مدفوع بالذعر، بلا شك سيُفهم كأنه اعتراف! لكن فوق كل تلك الاعتبارات، كان ثمة قرار واحد يستحوذ على عقل بيتي هارلو: أن تُعاقب منافستها وتُقصيها.

قالت بيتي: «طوال هذا الأسبوع، كنتِ تقحمين نفسك بطريقي!» ثم أضافت: «وها هي مكافأتك يا آن. نعم. أنا من قيدتُك وأوثقت رجليك وأتيت بكِ إلى هنا. أيتها الزنبقة!» ثم أخذت تنظر إلى ضحيتها نظرة ازدراء وهي واقفة في فستانها البهي، وجواربها الحريرية البيضاء، وحذائها الساتان، وهي تتمايل هلعًا. «١٥ دقيقة، يا آن! ذلك المفتش الأبله كان محقًّا! ١٥ دقيقة! هذا هو الوقت الذي يحتاجه مفعول سم السهم!»

فتحت آن عينيها على اتساعهما. وتدفق الدم إلى وجهها الممتقع ثم انسحب منه، تاركًا إياه أشدَّ امتقاعًا.

فصاحت آن: «سم السهم يا بيتي! كنتِ أنتِ الفاعلة! أوه!»كانت على وشك أن تترنح للأمام، لكن بيتي هارلو دفعتها برفق على كتفها فسقطت على الأريكة. لم يخطر ببال آن أبكوت، حتى تلك اللحظة، أن بيتي كانت مدانة بجريمتها الأخيرة؛ قتل راعيتها. وكان واضحًا لها الآن أيضًا أنه لا أمل على الإطلاق. فانفجرت فجأةً في نوبة من البكاء المرير.

جلست بيتي هارلو إلى جانبها على الأريكة، تراقبها عن كثب وفضول، تستمتع برؤية عذابها بشماتة شيطانية. كان صوت نحيب الفتاة كالموسيقى في أذنيها. لم تكُن تريد له أن يخفت.

فقالت بصوت منخفض، وهي تنحني عليها: «ستبقين هنا في الظلام طوال الليل يا آن، وحدك، وغدًا سيضعكِ إسبينوزا تحت إحدى بلاطات المطبخ الحجرية. أما الليلة فستبقين هكذا تمامًا. هيا!»

ثم مالت فوق آن أبكوت، تجمع جلد ذراعها بيد، وتقرب الإبرة من لحمها باليد الأخرى؛ وإذا بصرخة شديدة تشق الأجواء، أطلقتها فرانسين رولار.

وقالت مشيرةً إلى الباب: «انظري!» كان الباب مفتوحًا، وهانو يقف عند عتبته.

رفعت بيتي بصرها إلى التي أطلقت الصرخة، فشحبت ملامحها. جلست كتمثال من شمع، تحدِّق في الباب المفتوح، ثم بلحظة خاطفة غرست الإبرة في ذراعها، وأفرغت محتواها.

صرخ فروبيشر مذعورًا وأسرع ليمنعها، لكن هانو دفعه بخشونة.

وقال بنبرة قاسية لم يسمعها منه من قبل: «لقد حذرتك أيها السيد من أن تتدخل»؛ وسقطت الإبرة من يد بيتي على الأريكة، ثم تدحرجت على الأرض.

نهضت بيتي واقفة بكل قامتها، وجمعت عقبيها معًا، ومدَّت ذراعيها إلى جانبيها.

وقالت بتبجح تتظاهر بالشجاعة: «١٥ دقيقة يا سيد هانو. أنا في مأمن منك.»

فضحك هانو ولوح بإصبعه في وجهها بازدراء.

وقال: «هذا ماء ملون يا سيدتي ولا يقتل.»

اهتزت بيتي وهي واقفة، ثم تماسكت.

وقالت: «هذه خدعة يا سيد هانو!»

«سنرى.»

لكن نبرة صوته المليئة بالثقة أقنعتها. فانطلقت كالسهم نحو مكتبها. لكنها لم تكن أسرع من هانو؛ إذ اعترض طريقها هناك.

وهتف بها: «آه، كلا! هذا أمر مختلف تمامًا!» وأمسك بمعصميها. ثم نادى: «مورو!»، مشيرًا إلى فرانسين. «وأنت يا سيد فروبيشر، هلا حررت تلك الشابة من فضلك؟»

جر مورو فرانسين رولار خارج الغرفة وأحكم حبسها. أما جيم، فأخذ المقص الكبير وقطع القيود التي كانت تشد معصمي آن وكاحليها، وفكها عنها. وفي تلك الأثناء، كان يرى هانو يدفع بمقعد المكتب إلى منتصف الغرفة، وبيتي تقاوم ثم تستسلم، وقد أرغمها على الجلوس، ثم التقط أحد الحبال التي أسقطها جيم على الأرض. وحين أتم تحرير آن، رأى بيتي جالسة ويداها في الأصفاد، وكاحلاها مربوطان بإحدى أرجل الكرسي؛ وهانو يضغط بمنديله على جرح في يده ينزف. فقد عضته بيتي كحيوان بري وقع في الفخ.

قال هانو بغضب ساخر: «نعم، لقد حذرتِني يا آنسة، في أول صباح التقينا فيه، بأنك لا ترتدين ساعة يد، لأنك تكرهين الأشياء التي تُربط على معصميك. أعتذر! لقد نسيت!»

ثم عاد إلى منضدة الكتابة، ومد يده داخل الدرج. فأخرج منه علبة صغيرة من الورق المقوَّى ونزع غطاءها.

وقال: «خمسة! نعم! خمسة!»

ثم حمل العلبة عبر الغرفة إلى جيم فروبيشر، الذي كان واقفًا إلى الجدار ووجهه شاحب كأنه ميت.

وقال له: «انظر!»

كان في العلبة خمسة أقراص بيضاء.

وأضاف: «نحن نعلم أين القرص السادس. أو بالأحرى، نعلم أين كان. فقد حللته اليوم. إنه سيانيد البوتاسيوم، يا صديقي! اطحن أحدها بين أسنانك ولن تحتاج إلى ١٥ دقيقة؛ كلا على الإطلاق! مجرد جزء من الثانية! هذا كل ما يتطلبه الأمر!»

اقترب فروبيشر وهمس في أذن هانو. قال: «اتركها في متناولها!»

كان أول ما خطر له غريزيًّا أن يمنع بيتي من أن تؤذي نفسها. أما الآن، فقد بات يتمنى ذلك بكل ما أوتي من يأس، حتى إن أَسًى بالغًا تسرَّب إلى عيني هانو.

وقال برفق: «لا أستطيع، يا سيدي.» ثم التفت إلى مورو وقال: «هناك سيارة أجرة تنتظر عند زاوية منزل كرينيل»، وانطلق مورو للبحث عنها. أما هانو، فتوجه نحو آن أبكوت، التي كانت جالسة على الأريكة ورأسها منكس وجسدها يرتجف. وكانت بين الحين والآخر تلامس معصمها المتألم وتفركه برفق.

فقال وهو يقف أمامها: «آنستي، أنا مدين لك بتفسير واعتذار. لم أظن للحظة واحدة، منذ البداية، أنكِ مذنبة في جريمة قتل السيدة هارلو. كنت على يقين بأنك لم تمسي

عقد اللؤلؤ الوردي ... آه، كنت واثقًا من ذلك قبل أن أجد العقد بوقت طويل. صدقتُ كل كلمةٍ من حكايتكِ التي رويتها لنا في الحديقة. لكن، لم يكن بوسعي أن أُظهر لكِ شيئًا من هذا اليقين. فلم يكن بوسعي أن أحميك خلال هذا الأسبوع الأخير في منزل كرينيل إلا بالتمثيل وكأنني مقتنع بذنبكِ.»

قالت وهي تحاول أن تبتسم: «أشكرك يا سيدي.»

فتابع يقول: «أما الليلة، فأنا مدين لكِ باعتذار. وأقدمه لكِ وأنا خجل. لم أكن أشك للحظة أنكِ سيؤتى بكِ إلى هذا المكان تحت رحمة الآنسة بيتي الرقيقة الحنونة. وكنت هنا لأتأكد من أنكِ لن تتعرضي لرقتها. لكن لم أواجه في حياتي قضية أصعب من هذه، بهذا القدر من اليقين في ذهني، وهذا القدر الضئيل من الأدلة في يدي. كنتُ في حاجةٍ ماسةٍ إلى الدليل الذي تيقنتُ أنني سأظفر به في هذه الغرفة الليلة. ومع ذلك، أرجوكِ أن تصدقيني: لو كنت قد تخيلت لوهلة ما ستتعرضين له من قسوة، لكنت ضحيت بهذا الدليل دون تردد. أستميحك عذرًا.»

فأجابته ببساطة: «يا سيد هانو، لولاك لما كنت على قيد الحياة الآن. لولاك لصرت ممددة هنا في الظلام وحدي، كما وُعدت، بانتظار إسبينوزا ... ومعوله.» ثم تحشرج صوتها وصارت ترتجف بعنف حتى اهتزت الأريكة التي كانت تجلس عليها.

فقال لها بلطف: «يجب أن تنسي هذه الآلام. لا زلتِ في مقتبل الشباب، كما قلت لكِ من قبل. مع الوقت، ومع ...»

لكن عودة نيكولا مورو قاطعته، ومعه شرطيان ومفوض الشرطة جيراردو.

وسأله هانو: «هل معك فرانسين رولار؟»

رد مورو بجفاف: «ستسمعها بنفسك.»

وارتفع في الممر صوت جلبة؛ وقع أقدام وصوت امرأة تصرخ من الغضب. ثم سرعان ما خفت الصوت.

فقال هانو: «الآنسة هنا لن تسبب لكم كل هذا العناء.»

كانت بيتي متكومة على كرسيها، ومعرضة بوجهها ومتجهمة، وشفاهها تتمتم بكلمات غير مفهومة. ولم تنظر إلى جيم فروبيشر ولو لمرة واحدة منذ أن دخل الغرفة؛ ولم تنظر إليه الآن.

انحنى مورو وفك وثاق كاحليها، ورفعها شرطي ضخم من الكرسي. لكنها لم تستطع الوقوف؛ إذ خانتها ركبتاها، ولم يتبقَّ في جسدها قوة ولا عزم. فحملها الشرطي

بين ذراعيه كأنها طفلة، وما إن تحرك نحو الباب حتى وقف جيم فروبيشر أمامه معترضًا طريقه.

وهتف بصوت قوي رنان: «قف! سيد هانو، لقد قلتَ قبل قليل إنك صدقت كل كلمة نطقت بها الآنسة آن.»

رد هانو: «هذا صحيح.»

فقال جيم: «إذَن، فأنت تعتقد أن السيدة هارلو قُتلت في العاشرة والنصف من ليلة السابع والعشرين من أبريل. وفي تلك اللحظة كانت الآنسة هنا في حفلة السيد دي بوياك! إذَن، يجب أن تُطلق سراحها!»

لكن هانو لم يجادله.

بل قال: «وماذا عن الليلة؟ من فضلك، تنحَّ جانبًا!»

ظل جيم واقفًا لحظة في مكانه، ثم ابتعد. وقف مغمض العينين، وعلى وجهه من الحزن ما جعل هانو يحاول أن يواسيه بكلمات خرقاء.

فشرع يقول: «كانت تجربة قاسية عليك، يا سيد فروبيشر.»

فانفجر جيم قائلًا: «ليتك وثقت بي منذ البداية!»

سأله هانو: «وهل كنت ستصدقني إن فعلت؟» فصمت جيم. وأردف هانو: «لقد تحملتُ مخاطرة كبيرة أدرك الآن أنني لم أكن أملك الحق في تحملها. ومع ذلك، أخبرتك بأكثر مما تتصور.»

ثم التفت إلى مورو.

وقال: «أغلق أبواب الفناء وباب المنزل بعد أن يغادروا، وأحضر المفاتيح إليَّ هنا.»

كان جيراردو قد جمع الأدلة: السائل، والمحقن، وأقراص السيانيد، وقِطَع الحبال.

قال هانو وهو ينحني إلى منضدة الكتابة: «هناك شيء ذو أهمية هنا» ثم التقط علبة سوداء قمتها مسطحة. وعلَّق قائلًا إلى جيم وهو يسلِّمها إلى جيراردو: «ستتعرف على هذه.» كانت علبة لآلة كاتبة من نوع كورونا، وقد دلَّ وزنها على أن الآلة ذاتها بداخلها.

وأوضح هانو بينما أغلق الباب خلف المفوَّض: «نعم. هذه الغرفة الجميلة هي المصنع الذي أُعدَّت فيه كل تلك الرسائل البغيضة. هنا خُزِّنت المعلومات من أجل استخدامها؛ وهنا كُتبت الرسائل؛ ومن هنا أُرسِلت.»

هتف جيم: «رسائل ابتزاز! رسائل تطالب بالمال!»

أجاب هانو: «بعضها، نعم.»

«لكن بيتي هارلو كانت تملك المال. كانت تملك كل ما تحتاجه، بل أكثر إن طلبت!»

هزَّ هانو رأسه وقال: «كل ما تحتاجه؟ كلا. المبتز لا يكتفي أبدًا. هو لا يعترف بتجاوز الحدود في الابتزاز.»

عندها استبدَّ غضب مفاجئ بجيم. كان هو وهانو قد اتفقا على وجود عصابة تقف خلف كل هذه الجرائم. قد تكون بيتي ضمن صفوفهم، بل ربما هي العقل المدبِّر، لكن أيُعفى الجميع من المحاسبة؟ فهتف: «هناك آخرون! الرجل الذي كان يقود الدراجة النارية ...»

فأجاب هانو: «إسبينوزا الصغير. ألم تلاحظ لهجته عندما توقفت عند مفترق الطرق في فال تيرزون؟ لم يركب دراجته مجددًا. كلا!»

فقال جيم: «والرجل الذي حمل الكيس ودخل به؟»

فقال هانو: «موريس ثيفينيه. ذاك الشاب المبتدئ الواعد. إنه الآن في الحجز. لن يحصل أبدًا على تلك التزكية التي كان يأمل بها لفتح أبواب باريس.»

فتابع جيم: «وإسبينوزا نفسه ... الذي كان سيأتي إلى هنا غدًا ...» وتوقف فجأةً، وقد وقعت عيناه على آن.

فقال هانو: «وهو الذي قتل جان كلاديل، أليس كذلك؟ أحمق ذاك الرجل! لماذا يستخدم خنجر الكاتالونيين وبطريقتهم؟» ثم نظر إلى ساعته. «انتهى الأمر. لا شك أن إسبينوزا الآن خلف القضبان. وهناك آخرون يا سيدي لم تسمع عنهم قط. لقد وقع في شبكتنا الليلة صيد وفير. لا تقلق!»

عاد مورو ومعه المفاتيح وسلمها لهانو، فوضعها في جيبه، وتوجه إلى آن أبكوت.

وقال: «آنستي، لن أزعجك الليلة بأي أسئلة. أما غدًا، ستروين لي لماذا ذهبتِ إلى حفلة السيدة لو فاي. لقد قيل إنك كنتِ تنوين الهرب. لكن هذا، بالطبع، لم يكن صحيحًا. ستخبرينني بالحقيقة غدًا، وبكل ما حدث هناك.»

ارتجفت آن من ذكريات تلك الليلة، لكنها ردت بهدوء.

«نعم. سأخبرك بكل شيء.»

فقال هانو بمرح: «جيد. إذَن، يمكننا أن نذهب.»

سألت آن بدهشة: «نذهب؟! لكنك حبستنا جميعًا داخل المنزل.»

فضحك هانو. كان يستعد لمفاجأتها، وهو يعشق المفاجآت طالما أنها من تدبيره.

وقال: «أظن أن السيد فروبيشر قد أصاب الحقيقة بتخمينه. هذا المنزل يا آنستي، منزل بروبيزار، قريب جدًّا، من منزل كرِينيل. فلا يفصل بينهما سوى صف واحد فقط

من منازل شارع تشارلز روبيرت. وقد بناهما الرجل نفسه، إتيان بوشار دو كرِينيل، رئيس البرلمان أيام لويس الخامس عشر، وهو رجل مبجَّل وذو أهمية؛ وقد بناهما معًا يا آنستي، وهذا هو بيت القصيد. وبعد أن انتهى من بنائه، أسكن في هذا المنزل سيدةً مرحة من المقاطعة وأصبح المنزل يحمل اسمها؛ السيدة دي بروبيزار. ولم يكن في الأمر فضيحة. لأن الرئيس لم يأتِ أبدًا لزيارتها. ولديه سبب وجيه. فقد بنى ممرًّا سريًّا يصل بين المنزلين في تلك الحقبة التي عُرفت بكثرة الممرات السرية.»

أصاب الذهول فروبيشر. لقد نسب هانو إليه فطنة لم يتمتع بها قط. كانت الأحداث قد توالت عليه تلك الليلة بسرعة مذهلة وهو منشغل بها، فلم تترك له متسعًا للتفكير أو التخمين.

فقال مندهشًا: «كيف عرفت هذا؟»

فقال هانو مواصلًا حديثه: «ستعرف في الوقت المناسب. أما الآن فلنكتفِ بالحقائق. بعد وفاة إتيان دو كرينيل، ضاع سر هذا الممر في مرحلةٍ ما. ومن الواضح أيضًا، في ظني، أنه تدهور وانسدَّ. على أية حال، في نهاية القرن الثامن عشر، انتقل منزل بروبيزار إلى أيدٍ أخرى غير مالك منزل كرينيل. بيد أن سايمون هارلو اكتشف السر. فاشترى منزل بروبيزار من جديد، ورمم الممر، واستعمله للغرض نفسه الذي استُعمل له في عهد إتيان دو كرينيل. فقد جاءت السيدة رافيار لتسكن هنا في السنوات التي سبقت وفاة زوجها، تلك الوفاة التي أعتقتها لتتزوج سايمون. لقد انتهت محاضرتي! هلموا بنا!»

وانحنى أمام آن كأنما هو محاضرٌ يودِّع جمهوره، ثم فتح مزلاجَي الأبواب المزدوجة للخزانة الكبيرة المطعَّمة في فجوة الحائط. فانطلق من آن هتاف ينم عن الدهشة وقد نهضت واقفةً على قدميها المرتجفتين. كانت الخزانة فارغة تمامًا. فلم يكُن بها أي رفٍّ، واتضح لهم جميعًا أن أرضيتها مائلة نحو أحد أطرافها، وأن ثمة درجًا ينحدر إلى الأسفل في داخل الحائط السميك.

قال هانو وهو يُخرج مصباحه الكهربي: «تعالوا. سيد فروبيشر، خذ هذا واذهب أولًا مع الآنسة. سأتولى إطفاء الأنوار وألحق بكما.»

لكن آن تراجعت فجأة وقد قطَّبت جبهتها قليلًا. ثم أمسكت بذراع هانو لتستند إليه. وقالت: «سآتي معك. ساقاي لم تعودا راسختين.»

وأتبعت قولها بضحكة خفيفة كأنما تهون الأمر، لكن فهم كلا الرجلين الحقيقة. فقد كان جيم فروبيشر يظنها مذنبة؛ كان يظنها سارقة وقاتلة. فكانت تهابه لصالح من آمن ببراءتها منذ البداية. بل لم يكُن ذلك كل شيء. فخذلان جيم سبَّب لها جرحًا لم يكُن

لأي أحد غيره أن يسبِّبه. فأطرق جيم برأسه إقرارًا، وضغط زر المصباح، ثم بدأ ينزل خمس أو ست درجات من الدرج الضيق. وتبعه مورو.

وقال هانو: «هل أنتِ مستعدة يا آنسة؟ هيا!»

وأحاط خصرها بذراعه ليسندها، ثم ضغط على زر قرب أبواب الخزانة، فغرق المكان في الظلام. ونزلا على الدرج في أثر الشعاع المنبعث من المصباح. ثم أغلق أبواب الخزانة وأحكمها بالمزلاج.

وهتف: «تقدموا، وأنتِ يا آنستي، انتبهي إلى كعبيك على هذه الدرجات الحجرية.»

ولما صار رأسه أسفل مستوى الدرجة الأولى، نادى على فروبيشر أن يتوقف ويرفع المصباح. ثم أزاح اللوح الأرضي للخزانة وأعاده إلى مكانه. وتحت اللوح كانت ثمة فتحة تهبط إلى الأسفل. فرفعها هانو وثبتها في مكانها.

«يمكننا المتابعة الآن.»

هبطوا ١٠ درجات أخرى فوجدوا أنفسهم في قاعة صغيرة متقوسة. ومنها امتد ممر مرصوف بالطوب والحجارة يفضي إلى عتمةٍ حالكة. تقدم فروبيشر في الممر حتى بلغوا درجًا آخر.

فسأل هانو فروبيشر، وقد ترددت نبرته في الممر المجوف: «إلى أين يؤدي هذا الدرج، يا صديقي؟ ستخبرني أنت.»

كانت صورة تلك الليلة لا تزال حاضرةً في ذهن جيم، حين جلس مع آن وبيتي في ظلام الحديقة العطرة، وكيف كانت آن تمسح بنظرها جوانب العتمة بين أشجار الجميز، فأجاب بسرعة:

«إلى حديقة منزل كرينيل.»

فضحك هانو.

ثم قال: «وأنتِ يا آنسة، ما قولك؟»

هنا اكفهرَّ وجه آن.

وأجابت بجدية: «الآن عرفت.» ثم ارتجفت، وسحبت رداءها على كتفيها ببطء. وأردفت: «لنصعد ونتحقق!»

تقدم هانو أولًا، وأنزل بابًا صغيرًا مسحورًا عند قمة الدرج، وضغط نابضًا ثم سحب لوحًا من مكانه.

وقال: «انتظروا»، ثم قفز إلى الخارج وأشعل الضوء.

صعدت آن أبكوت، وجيم فروبيشر، ومورو من محفة سايمون هارلو إلى غرفة الكنز.

الفصل الثالث والعشرون

حقيقة الساعة على الخزانة المطعمة

مما أصاب الجميع بالدهشة أن مورو بدأ يضحك. ظلَّ حتى هذه الساعة، ذكيًّا، ماهرًا، قليل الكلام، الجمود رداؤه. والآن، انفجر ضاحكًا بانتفاضات متتالية، يشد خصره، ثم يفرك يديه، كأنما طغيان دعابة الموقف وسخريته قد تجاوزا قدرته على التحمل. وقد حاول مرارًا أن يتكلم، لكن الضحك كان يبتلع كلماته.

سأله هانو باندهاش: «ما الذي دهاك بحق السماء يا نيكولا؟»

أجابه مورو متلجلجًا، وهو يلهث من الضحك: «أستميحك عذرًا» ثم استبد به الضحك من جديد. وأخيرًا فهموا كلمتين من بين قهقهته: «أنا، جيراردو!» كان قد قالهما وهو يداعب أنفه كمَن يعدل نظارة وهمية، ثم دخل في نوبة أخرى من الضحك. وشيئًا فشيئًا بيَّن لهم أسباب نوبات الضحك هذه بجُمَل متقطعة.

«أنا، وجيراردو! نحن من نختم الأبواب بالشمع ... كل ذلك الوقت، وهناك ممر للدخول والخروج تحت أعيننا تمامًا! لا ينبغي الاقتراب من هذه الغرف ... كلا! فالمفتش الكبير السيد هانو قادم من باريس ليتفحصها. لذا سنغلقها بالختم ونُحكِم إغلاقها يا جيراردو. يا إلهي! ما أشد سذاجتنا، أنا وجيراردو! فمع كل تحفظنا وغرورنا وأربطتنا القماشية! سنُصبح أضحوكةً تُروى في محكمة الجنايات! نعم، نعم، نعم! أظن أنني وجيراردو سنتقدم باستقالتنا قبل أن تنتهي المحاكمة!»

ربما كانت فُكاهة مورو مهنية أكثر من اللازم بالنسبة إلى مستمعيه. وربما كانت وقائع تلك الليلة قد عطَّلت إدراكهم؛ إذ لم يشاركه الضحك أحد. وجد جيم فروبيشر نفسه يعود بنظره إلى ساعة لوي الخامس عشر الصغيرة فوق الخزانة المطعمة. لم تغِب عن باله ولو للحظة. كان مصير بيتي هارلو كله متعلقًا بوجود تلك الساعة. مهما تكن الكلمات

الطائشة التي استخدمتها الليلة، فإن شهادة الساعة الدامغة تبرئها من أي ضلوع في جريمة قتل السيدة هارلو. وأخرج جيم ساعته من جيبه وقارنها بالساعة على الخزانة.

قال بنبرة شابها شيء من الظفر: «إنها مضبوطة بدقة! الساعة الآن الواحدة وثلاث وعشرون دقيقة ...» وفجأةً ظهر هانو إلى جانبه وهو منتبه على نحو يثير الفضول.

وسأله: «أحقًّا؟» وتحقق بنفسه بأن طابق الوقت بينها وبين ساعته. «نعم، الساعة الواحدة وثلاث وعشرون دقيقة. هذا طالع ميمون.»

ثم نادى آن أبكوت ومورو ليأتياه، وتجمعوا حول الخزانة.

وعلق قائلًا: «مفتاح لغز هذه الساعة يكمن في الكلمات التي تفوهت بها الآنسة آن، حين رُفعت الأختام عن الأبواب، وعاودت رؤية الساعة في وضح النهار. كنتِ مشوشة، أليس كذلك يا آنسة؟»

ردت آن: «نعم، بدا لي ... ولا يزال يبدو لي إلى الآن ... أن الساعة موضوعة في موضع أعلى مما هي عليه بالفعل ...»

فقال هانو: «بالضبط. لنختبر الأمر!»

ثم نظر إلى الساعة، فإذا بها تشير إلى الواحدة وست وعشرين دقيقة.

«أطلب منكم جميعًا أن تغادروا الغرفة وتنتظروا في الرواق في الظلام. ذلك لأن الآنسة آن نزلت السلالم، كما تذكرون، في الظلام. سأطفئ الأنوار هنا ثم أناديكم. وعندها يا آنسة آن، ستشعلين النور ثم تطفئينه بسرعة، كما فعلتِ في ليلة السابع والعشرين من أبريل. أظن أن كل شيء سيتضح لكم حينها.»

واجتاز الغرفة نحو الباب المؤدي إلى الرواق ووجده مغلقًا، والمفتاح فيه من الداخل.

قال: «بالطبع، حين يُستخدم الممر المؤدي إلى منزل بروبيزار، يكون هذا الباب مغلقًا.»

وأدار المفتاح، وسحب الباب نحوه. كان الرواق أمامهم مظلمًا وساكنًا. فوقف هانو جانبًا.

وقال: «تفضلوا!»

خرج مورو وفروبيشر؛ أما آن أبكوت فترددت، وألقت نظرة استعطاف نحو هانو. لقد حان وقت تبديد حيرتها. ولم يكن لديها شك في ذلك. هذا الرجل أنقذها من الموت حين بدا أن لا شيء قادر على إنقاذها. ثقتها فيه كانت مطلقة. لكن حيرتها لم تكن هي الأهم. كانت ضربةٌ ما على وشك أن تُسدَّد إلى بيتي هارلو؛ ضربةٌ لن تُفيق منها. ولم

تكن آن أبكوت تكره بيتي لأطباعها وشيمها. وجفلت لما فكرت أنها هي من ستوجه تلك الضربة لها.

«تشجعي، آنسة!»

شجعها هانو بابتسامة ودودة، فانضمت إلى الآخرين في الرواق المظلم. وأغلق هانو الباب خلفهم، وعاد إلى الساعة. كانت تشير إلى الواحدة وثمانية وعشرين دقيقة.

فقال لنفسه: «أمامي دقيقتان، وهذا يكفيني إن أسرعت.»

في الخارج، وقف الشهود الثلاثة ينتظرون في الظلام. وفجأة، ارتعشت آن حتى اصطكت أسنانها.

فهمس لها جيم فروبيشر: «آن» ووضع ذراعه في ذراعها. كانت آن أبكوت قد بلغت حدود قدرتها على الاحتمال. فأمسكت بيده بقوة.

وقالت بصوت خافت: «جيم! لقد كنت قاسيًا عليَّ!»

فجاءهم صوت هانو يناديهم من داخل الغرفة.

«ادخلوا!»

تقدمت آن، ومدت يدها تتحسس المقبض حتى وجدته. وفتحت الباب بعصبية. كانت غرفة الكنز غارقة في الظلام مثل الرواق. دخلت آن إلى داخل الغرفة، وبحثت أناملها عن المفتاح الكهربائي.

وقالت محذرة، وصوتها يرتجف: «الآن.»

وفجأةً أضاءت الغرفة بنور باهر، ثم عادت حالكة بالسرعة نفسها؛ وفي الظلام تعالت جلبة أصواتهم.

هتف جيم: «العاشرة والنصف! رأيت الوقت!»

وقالت آن متعجبة: «والساعة كانت في مستوى أعلى أيضًا!»

وافقها مورو: «صحيح.»

ثم جاء صوت هانو من زاوية بعيدة من الغرفة.

«هل هذا ما رأيتِه تمامًا يا آنسة ليلة السابع والعشرين؟»

«تمامًا، يا سيدي.»

فقال هانو: «إذَن، شغِّلي الأنوار ثانية واكتشفي الحقيقة!»

نطق هانو بكلماته بصوت جليل النغمة كأنه ناقوس جنازة. وترددت يد آن للحظة. من جديد تملكها يقين مرعب. ثمة كارثة لا رجعة فيها تكمن وراء حركة يدها الصغيرة.

عاد صوت هانو: «تشجعي، يا آنسة!»

فأضاءت الأنوار مجددًا، وهذه المرة ظلت مضاءة. تقدم الشهود الثلاثة في الغرفة، ولما نظروا من جديد وعن قرب وبنظرة أطول، انطلقت هتافات الدهشة من أفواههم.

لم تكُن هناك أي ساعة فوق الخزانة المطعمة.

لكن، عاليًا فوقها، في المرآة الطويلة التي تقف الخزانة أمامها، كان هناك انعكاس ساعة، وجهها الأبيض واضح وساطع، حتى إنه صار من الصعب الآن تصديق أنها مجرد انعكاس. وكانت عقاربها تشير إلى العاشرة والنصف تمامًا.

قال هانو: «والآن استديروا وانظروا!»

كانت الساعة الحقيقية على رف المدفأة، من طراز الأخوة آدم، تحدق بهم كاشفةً الوقت الحقيقي. كانت الساعة الواحدة والنصف تمامًا؛ عقرب الدقائق الطويل يشير إلى السادسة، وعقرب الساعات القصير إلى يمين الرقم ١٢، في منتصف المسافة بين الرقم واحد والرقم اثنين. وبحركة متزامنة، استداروا من جديد نحو المرآة، وتبدد اللغز. كان عقرب الساعات في الصورة المنعكسة على يسار الرقم ١٢، تمامًا كما لو أن الوقت هو العاشرة والنصف وكانت الساعة في الموضع نفسه الذي تعكسه المرآة. كانت أرقام الساعة معكوسة، ويصعب قراءتها عند النظرة الأولى.

قال هانو موضحًا: «إنها طبيعة الإنسان أن يتجنَّب الجهد حتى في أبسط الأمور. نحن نعيش مع الساعات بصفة يومية. فهي مألوفة لنا بقدر ما هي من ضروريات المعيشة. وبطبيعتنا المتكاسلة، نأخذ الوقت من موقع العقارب. أما الأرقام، فنفترضها ضمنيًّا. خرجت الآنسة آن من الظلام. وفي ومضة النور الخاطفة، رأت وضع العقارب. العاشرة والنصف! وقد استغربت هي نفسها من أن الوقت كان مبكرًا؛ أليس كذلك، سيد فروبيشر؟ كانت تشعر بالبرد، كأنها نامت طويلًا في كرسيها. وكان لديها انطباع قوي بأنها استغرقت في النوم. وقد كانت على حق. فالساعة كانت الواحدة والنصف، وبيتي هارلو كانت قد عادت من حفلة دي بوياك منذ ٢٠ دقيقة.»

انتهى هانو بلهجة انتصار أزعجت فروبيشر.

فسأله: «ألست تتسرع قليلًا؟ حين رُفعت الأختام ودخلنا الغرفة لأول مرة، لم تكُن الساعة على رف المدفأة بل على الخزانة المطعمة.»

أومأ هانو برأسه.

وقال: «آنسة أبكوت روت قصتها قبل الغداء. ودخلنا هذه الغرفة بعده. وخلال فترة الغداء، جرى تغيير موضع الساعة.» وأشار إلى المحفة. «أنتم الآن تعرفون كم يسهل فعل ذلك.»

فقال فروبيشر، بحدة: «ممكن، ممكن فعلًا! لكن هذا لا يحسم مسألة ما إذا كان ذلك هو ما حدث بالفعل!»

قال هانو بهدوء: «هذا صحيح. لذا سأجيبك الآن عن أحد الأسئلة في مذكرتك. ما الذي رأيته من أعلى برج التيراس؟ رأيت الدخان يتصاعد من هذه المدخنة إلى الهواء. أوه يا سيدي، لقد أوليت اهتمامًا كبيرًا لهذا المنزل، بنوافذه، وأبوابه، ومداخنه. وهناك، في وضح النهار، وفي دفء أواخر شهر مايو، كان الدخان يتصاعد من مدخنة الغرفة المغلقة بالختم. كان هناك إذَن مدخلًا لا نعلم عنه شيئًا! وقد استخدمه أحدهم لتَوِّه. لكن مَن هو؟ سل نفسك هذا السؤال! من خرج من منزل كرينيل فور مغادرتي، وكان بمفرده؟ كانت الساعة بحاجة إلى تغيير. ويبدو أن بعض الرسائل أيضًا كان لا بد من حرقها.»

بالكاد سمع جيم الجملة الأخيرة. كان أمر الساعة لا يزال يسيطر على تفكيره. لقد نُسِفت حجته الكبرى؛ وتبدَّد حلمه الوحيد في إثبات براءة بيتي رغم كل الظنون والقرائن التي قد تُقام ضدها. فانهار جيم في كرسي.

وقال بمرارة: «لقد فهمت كل شيء بسرعة كبيرة.»

فأجابه هانو: «كلا، بل لم أكُن سريعًا! لا تنسب إليَّ قدرات خارقة أيها السيد. لقد تلقيت تدريبًا، لا أكثر. لقد قضيت الدقائق العشرين كاملة في الحلبة. اسمع كيف حدث ذلك!» ثم نظر إلى فروبيشر بابتسامة مُداعِبة. وأردف: «من المؤسف أن موريس ثيفينيه، صديقنا الشاب المتحمس، ليس هنا ليستفيد من الدرس. بادئ ذي بدء! كنت أعلم أن الآنسة بيتي هنا تقوم بشيء بالغ الأهمية. قد يكون مجرَّد حرق الرسائل في الموقد. وقد يكون أكثر من ذلك. كان عليَّ أن أنتظر لأرى. حسنًا! ثم وبينما نحن وقوف أمام المرآة، تطلق الآنسة آن ملاحظتها البسيطة أن الساعة تبدو في موضع أعلى. فهل فهمت من ذلك شيئًا حينها؟ كلا، كلا! لكنني مهتم بالأمر. ثم ألاحظ أمرًا غريبًا، تحفة جميلة من أعمال بنفينوتو تشيليني موضوعة على رف الموقد العالي حيث لا يراها أحد. فأنزلتها وحملتها إلى النافذة ونالت من إعجابي الكثير، ثم أعدتها إلى مكانها على الرف؛ وهنا لاحظت أربع علامات صغيرة على الخشب كانت مخفية وراء القاعدة المسطحة للتحفة؛ وتلك العلامات الأربعة هي تحديدًا ما قد تتركه ركائز تلك الساعة الجميلة من طراز لويس الخامس عشر، لو كانت توضع على تلك البقعة من الخشب طوال الوقت؛ حيث مكانها الطبيعي. كما أن سطح الخزانة الخشبية المطعَّمة تلك، وهو أدنى من رف الموقد، هو المكان الطبيعي لتحفة تشيليني. إذ يمكن للجميع رؤيتها هناك. فقلت لنفسي: «أيها العزيز هانو، هذه الفتاة

الشابة أعادت ترتيب تحفها.» لكن هل خمنت سبب ذلك؟ كلا يا صديقي. لقد أخبرتك من قبل، وأكرر لك بتواضع، أننا خدَم الفرص والصدف. وتكون الصدفة سيدة طيبة إن لم يغفُ خدمها؛ وقد أحسنت سيدتي معاملتي في تلك الظهيرة. وهكذا؛ كنت أقف في القاعة وأنا في حيرة كبيرة بشأن هذه القضية. لا شيء يقودني إلى أي شيء. على الجدار من خلفي يوجد بارومتر قديم وضخم يشبه المقلاة، وفي الجدار المقابل مرآة. وإذ أرفع عيني عن الأرض أرى بمحض الصدفة البارومتر في المرآة من خلفي. وبالصدفة يجذب انتباهي. إذ رأيت أن مؤشر البارومتر يشير إلى طقس عاصف؛ وهو أمر يدعو للسخرية. فألتفت وأنا في مكاني. فإذا بالمؤشر يشير إلى طقس معتدل. وهنا تبزغ الحقيقة أمامي. فأنظر إلى موضع مؤشرات البارومتر دون النظر إلى الحروف. إذا نظرت إلى البارومتر مباشرة، تشير المؤشرات إلى طقس معتدل. وإذا أدرت ظهري ونظرت في المرآة، تشير إلى طقس عاصف. صرت أفهم الآن! فهرعت إلى غرفة الكنز. وأغلقت الباب، إذ لا أريد أن يكتشف أحدٌ ما أفعل. وكلا، لم أحرك الساعة. ما كنت أبدًا لأحرك تلك الساعة لأي سبب كان. لكنني أخرجت ساعتي. ووقفت في مواجهة المرآة. وقفتُ أمسك بساعتي أمامها، وكشفتُ زجاجها لأُحرك العقارب، حتى تبدو في المرآة وكأنها تُشير إلى العاشرة والنصف. ثم نظرت في ساعتي. كانت تشير إلى الواحدة والنصف. وهكذا صرت أعلم! هل أرغب في برهان أكبر؟ موجود يا سيدي. ذلك أنني عندما فتحت الباب من جديد، إذا بالآنسة بيتي تقف أمامي وجهًا لوجه! تلك اليافعة! رغم أنني كنت أشك بها مسبقًا، أؤكد لك أني شعرت بالذهول. ويعلم الله كم أنا معتاد على المفاجآت. لكن للحظة، سقط القناع عن وجهها. شعرت بقشعريرة باردة تسري في عمودي الفقري. فقد رأيت القتل يطل من عينيها الجميلتين الواسعتين.»

وقف هانوا أسير ذكرى تلك النظرة الشرسة. وغمغم متأوِّهًا «آه!» ثم هز نفسه كما يهز الكلب الكبير جسمه بعد أن يخرج من الماء.

ثم هتف بنبرة مختلفة: «لكنك تتحدث كثيرًا يا سيد فروبيشر وتُبقي الآنسة مستيقظة، وكان ينبغي أن تكون في فراشها منذ ساعة. هلموا!»

ودفع رفيقيه يخرجهما إلى الردهة، وأشعل الأضواء، وأغلق باب غرفة الكنز بالمفتاح ثم وضعه في جيبه.

وقال بنبرة رقيقة لآن: «آنستي، سنترك هذه الأنوار مضاءة، ومورو سيبقى للحراسة في المنزل. لا يوجد ما يدعو للقلق. لن يكون بعيدًا عن بابك. تصبحين على خير.»

وناولته آن يدها بابتسامة باهتة.

وقالت: «سأشكرك غدًا»، ثم صعدت الدرج ببطء، بقدمين مثقلتين، وجسد يترنح من التعب.

تابعها هانو وهي تصعد. ثم التفت إلى فروبيشر بابتسامة مرحة.

وقال: «يا للحسرة! أنت ... وهي! كلا؟ ربما في نهاية المطاف ...» ثم توقف فجأة. فقد بدأ وجه فروبيشر يحمر واتخذ مظهرًا «جديًّا»؛ وكان آخر ما يريده هانو هو أن يُسيء إليه في هذا الأمر تحديدًا.

فقال معتذرًا: «أعتذر. أنا فضولي وثرثار. إن كنت أخطأت، فلأنني أتمنى لك الخير. تفهم ذلك؟ حسنًا! إليك إذَن برهان آخر. غدًا ستخبرنا الآنسة بما جرى لها الليلة، كيف ذهبت إلى منزل السيدة لو فاي وكل شيء. أرغب في أن تكون حاضرًا. ستعرف كل شيء. سأروي لك بنفسي، خطوة بخطوة، كيف توصلت إلى استنتاجاتي. سيُجاب عن كل أسئلتك. سأمنحك كل العون، وكل الفرص. وسأحرص على ألَّا تُستدعي، ولو كشاهد، على ما عاينتَ هذه الليلة. وعندما ينتهي كل شيء يا سيدي، سترى كما أرى أن القانون، مهما جلب من ألم ومعاناة، يجب أن يأخذ مجراه.»

كان فروبيشر ينظر الآن إلى هانو جديد. فكانت الحيل والتهريج والمبالغات قد تلاشت عنه. ولم يكن يبتهج حتى بظفره. بل كان يشع وقارًا، وكان في الوقت ذاته لطيفًا ومراعيًا.

ثم قال: «تصبح على خير يا سيدي!» وانحنى، فمدَّ جيم يده فجأةً.

وردَّ قائلًا: «تصبح على خير!»

فسلَّم هانو عليه بابتسامة تقدير وتفهم، ثم غادر.

أوصد جيم فروبيشر الباب الأمامي وعاد إلى الردهة بشعور من الخواء. وسمع البوابات الحديدية الكبيرة تُغلق. بالطبع، تُركت مفتوحة على الطريقة المعتادة حين يُتوقع تأخر أحد من أفراد المنزل. نعم، لقد خُطط لكل شيء بعناية قائد يحضر لمعركة. ها هم الخدم نيام في أسرتهم. لولا هانو، لربما كانت بيتي هارلو تتسلل الآن بخفة إلى غرفتها، بعد أن أنجزت عملها الرهيب. وكان الخدم ليستيقظوا غدًا على نبأ فرار آن أبكوت خوفًا من المحاكمة. وفي وقت ما من المساء، كان إسبينوزا سيحضر، وستستقبله بيتي في غرفة الكنز، ويجد المعول بانتظاره في المطبخ الواسع المقبب بالحجر في منزل بروبيزار. نعم، كل الأخطار كانت متوقعة؛ إلا هانو. كلا، بل حتى هو كان متوقعًا بدرجة ما! فقد سبقته برقية مذعورة إلى فروبيشر وهاسلت قبل أن يبدأ عمله.

قال مورو: «إذا احتجتني يا سيدي، فسأكون على الدرج أسفل باب الآنسة.»

فأيقظ جيم فروبيشر نفسه من تأملاته.

وأجابه: «شكرًا لك»، وصعد إلى غرفته. وتأمل في مرارة، كم كانت تلك البرقية كثيرة النفع لبيتي! وطرح على نفسه يسأل: «أين كانت الليلة؟» ثم حجب عن ذهنه التفكير بشأنه.

سيعلم جيم لاحقًا أن تلك البرقية المذعورة، ولا شيء سواها، كانت السبب في انهيار خطط بيتي هارلو انهيارًا تامًّا.

الفصل الرابع والعشرون

حكاية آن أبكوت

في صباح اليوم التالي، اتصل هانو بمنزل كرينيل وحدد موعده لما بعد الظهر. فمضى جيم فروبيشر يقضي الصباح مع السيد بيكس، الذي كان مندهشًا تمامًا بالقصة التي رُويت له.

إذ قال: «للسجناء حقوق في أيامنا هذه. فيحق لهم أن يطلبوا حضور مستشارهم القانوني أثناء استجواب القاضي لهم. سأذهب إلى المديرية حالًا»، ثم انطلق منتصب الرأس منتفخ الصدر كديك صغير مستعدًّا للقتال دفاعًا عن موكلته. لكن لم يكُن ثمة قتال يُخاض. فموكلة السيد بيكس، بكل تأكيد، كانت «محبوسة انفراديًّا» في الوقت الراهن. ولن تُعرض على القاضي قبل بضعة أيام. كان الدور على فرانسين رولار. وكان من المقرر إتاحة كل الفرص للدفاع، وسيُسمح للسيد بيكس بمقابلة بيتي هارلو بطبيعة الحال إذا رغبت في ذلك قبل مثولها أمام القاضي.

عاد السيد بيكس إلى مكتبه في ساحة إتيان دوليه ليجد جيم فروبيشر يجول فيه رويدًا، كأنما تطارده الظنون. رفع جيم رأسه بلهفة، إلا أن السيد بيكس لم يأتِ بما يثلج صدره.

إذ هتف: «لا يعجبني الأمر! لست راضيًا تمامًا! لا أشعر بالارتياح! الجميع مؤدبون؛ نعم. لكنهم يستجوبون الخادمة أولًا. وهذا أمر سيئ»، وضرب بيده على الطاولة. ثم أردف: «هذا من تدبير هانو. إنه يعرف كيف يدير الأمور. الخدم يمكن أن يُجبروا على الكلام، وفرانسين رولار هذه ...» ثم أخذ يهز رأسه. «سأستعين بأفضل محامٍ في فرنسا!»

تركه جيم لينكب على عمله، وعاد إلى منزل كرينيل. وكان واضحًا أن شيئًا من تطورات «قضية وابرسكي» الجديدة والمريعة لم يتسرَّب بعد. لا أحد يتهامس بها في الشوارع، ولا أحد يتسكع أمام بوابات المنزل. فقد أصبحت «قضية وابرسكي» في نظر

العامة نكتة قديمة مملة. أرسل جيم رسالة إلى آن أبكوت في غرفتها، يُخبرها فيها بأنه سينقل أمتعته إلى فندق ساحة دارسي ويُخلي لها المنزل، راجيًا إياها البقاء فيه. ابتسمت آن في تلك اللحظة ابتسامة خفيفة وهي تقرأ رسالته المرتبكة.

وتأملت في نفسها: «إنه صواب تمامًا، كما يقول السيد بيكس، ومناسب بما يكفي ليبهج السيد هانو ابتهاجًا كبيرًا.»

وعاد جيم بعد الظهر، وشرعت آن أبكوت تسرد مرة أخرى قصة مرعبة وظلامية، تحت ظلال شجر الجميز، بينما تتراقص أشعة الشمس على العشب وطنين النحل يتردد بين الورود، لكن هذه المرة على مسامع جمهور أصغر عددًا. وقد أضاف هانو بعض التفاصيل إلى هذه القصة.

بدأت آن حديثها بقولها: «لم أكن لأحلم أبدًا بحضور حفلة السيدة لو فاي، لولا الرسالة المجهولة»، وهنا مال هانو إلى الأمام باهتمام.

كانت الرسالة المجهولة قد وصلت أثناء تناولها العشاء مع بيتي وجيم. أي إنها أُرسلت في منتصف النهار، بعد وقت قصير من رواية آن قصتها الأولى في الحديقة. فتحت آن المظروف ظنًّا أنه فاتورة ما، لكنها فوجئت بل شعرت بالخوف قليلًا، عندما قرأت التوقيع: «السوط». ثم شعرت بغضبٍ أكبر عندما قرأت ما تحتويه، وإن كان خوفها قد خف. كان «السوط» يأمرها بالحضور إلى الحفلة. لقد كلَّفها صراحةً بمغادرة الصالة عند العاشرة والنصف، واتخاذ ممر معلوم يؤدي إلى جناح ناءٍ عن ناحية الاستقبال، لتختبئ بعدها وراء ستائر حجرة مكتبة صغيرة. وإن هي ظلت ساكنة تمامًا، فسوف تسمع الحقيقة بشأن وفاة السيدة هارلو بعد قليل من ذلك. كما تلقت تحذيرًا ألا تخبر أحدًا بشأن خطتها.

قالت آن: «لم أخبر أحدًا حينها. ظننت الرسالة مجرد مزحة خبيثة، تتماشى مع طبيعة شخصية «السوط». فأعدت الرسالة إلى مظروفها. لكنني لم أستطِع صرف ذهني عنها. ماذا لو كان بها شيء من الحقيقة، ولم أذهب؟ لماذا قد يخدعني «السوط»، وأنا لا أملك مالًا، ولا قيمة لي؟ وظلَّت الرغبة تكبر بداخلي، رغبة من النوع الذي لا يمحوه أي منطق!»

عقب العشاء، توجهت آن إلى حجرتها حاملةً الرسالة، وقد آمنت بما فيها، ثم عاودها السخرية من ذاتها لتصديقها، لتعود وتُصدقها مرة أخرى. لقد شعرت ظهيرة ذلك اليوم وكأن الأصفاد في معصميها. لم يعُد هناك مجال لتضييع أي فرصة لتبرئة نفسها، مهما بدت هذه الفرصة جنونية!

قررت أن تستشير بيتي، فأسرعت إلى غرفة الكنز التي كانت مضاءة لكنها كانت خالية. وكانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف. عزمت آن على انتظار عودة بيتي، وشدها من جديد موضع الساعة المنخفض فوق الخزانة المطعمة. فوقفت أمامها تحدق فيها. وأخذت ساعتها في يدها، لعلها تفهم. وكانت بالفعل قريبة من تحقيق ذلك؟ فلو أنها وجهت قُرصَ ساعتِها باتجاه المرآة خلف الساعة، لانكشفت لها الحقيقة فورًا. لكنها لم تحظَ بالوقت لتفعل ذلك. إذ استوقفها صوت خافت في الغرفة خلفها.

استدارت آن فجأة. لكن الغرفة كانت خالية. بيد أنها كانت متأكدة تمامًا أن الصوت صدر من داخلها. ولم يكُن إلا ثمة مكان واحد يمكن أن يصدر منه الصوت. كان ثمة من يختبئ في المحفة الفاخرة ذات الألواح الرمادية اللامعة، والزخارف الذهبية الدقيقة. طغى القلق على آن أكثر من الخوف. وأول ما جال بخاطرها كان قرع الجرس بجوار المدفأة؛ إذ كان بوسعها القيام بذلك بعيدًا عن مجال رؤية المحفة. فالغرفة تحتوي على كنوز كافية لإغراء مئات اللصوص. لكنها اختارت مجابهة الأمر مباشرة ودون أي تفكير. فتقدمت نحو المحفة من الخلف، ثم اندفعت فجأةً لتقف أمام أبوابه الزجاجية.

وحينها جفلت وشهقت من المفاجأة. كان الحاجز أمام أبواب المحفة قد أُنزل، والأبواب مفتوحة، وكانت بيتي هارلو تتكئ على الوسائد الوثيرة. جلست بيتي بلا حراك، فكانت ساكنة كالتمثال، حتى بعد ظهور آن وهتافها من الدهشة؛ لكنها لم تكُن نائمة. كانت عيناها الواسعتان متقدتين وتحدقان من داخل ظلمة المحفة بطريقة بعثت القشعريرة في جسد آن.

وقالت بيتي ببطء شديد: «كنت أراقبك»، وإنْ كان ثمة احتمال لأن ترق لها أو تتراجع عما بذهنها، فقد تبدد ذلك الآن وإلى الأبد. لقد خرجت بيتي من الممر السري لتجد آن تداعب ساعتها أمام المرآة، بحثًا عن تفسير لذلك الشك الذي راودها، وكانت قريبة جدًّا من اكتشاف الحقيقة؛ قريبة جدًّا جدًّا! سمعت آن حكم الإعدام يصدر بحقها في تلك الكلمات: «كنت أراقبكِ». ورغم أنها لم تفهم فحوى التهديد، فإن بطء النطق وثباته كانا كافيين ليربكها.

وهتفت آن: «بيتي، أريد نصيحتك!»

خرجت بيتي من المحفة، وأخذت الرسالة المجهولة من يدها.

سألت آن تقول: «هل عليَّ أن أذهب؟»

فأجابت بيتي: «هذا شأنك. لو كنت مكانك، لذهبت. لن أتردد. لا أحد يعلم حتى الآن أن هناك شبهات تحوم حولك.»

أبدت آن اعتراضًا على ذلك. فالخروج من بيتٍ يسوده الحزن ربما يُعد تصرفًا مشينًا.

فحاججتها بيتي: «أنت لست من الأقارب. يمكنك الذهاب خفية، قبل الموعد. لا شك أننا نستطيع تدبير الأمر. لكن، كما قلت، هذا شأنك الخاص.»

«لكن لماذا يساعدني «السوط»؟»

فردت بيتي تجادلها: «لا أعتقد أنه يساعدك، على الأقل ليس بشكل مباشر. أظن أنه يهاجم آخرين، ويستخدمك أنت وسيلة.» ثم قرأت الرسالة مرة أخرى. وأردفت: «لقد كان دائمًا على حق، أليس كذلك؟ هذا ما كان سيحدد قراري لو كنت مكانك. لكنني لا أريد أن أتدخل.»

وهنا استدارت آن وقالت:

«حسنًا، سأذهب.»

«إذَن، يجب أن تتلفي هذه الرسالة»، وأمسكت بها كأنها ستمزقها.

فهتفت آن: «كلا!» ومدَّت يدها بسرعة لتأخذها. «أنا لا أعرف منزل السيدة لو فاي جيدًا. قد أضل طريقي بسهولة من دون التعليمات. يجب أن آخذ الرسالة معي.»

وافقت بيتي وأعادتها إليها.

ثم قالت: «يجب أن تذهبي في خفية تامة»، ثم انغمست بكل جوارحها في تنظيم خطة الخروج.

قررت بيتي أن تُعطي فرانسين رولار إجازة، وتُساعد آن بنفسها على ارتداء فستانها المذهل والمتلألئ. وكتبت رسالة إلى ميشيل لو فاي، الابن الثاني للسيدة لو فاي، وأحد معجبي بيتي الذي لا يعرف الكلل. ولحسن حظه، احتفظ ميشيل بالرسالة، فأنقذته من أي اتهام بالتواطؤ في مؤامرتها. إذ استخدمت بيتي معه الحجة نفسها التي أقنعت بها جيم فروبيشر. ذلك أنها راسلته بصراحة قائلةً إن الشبهات قد أحاطت بآن أبكوت، وأنه من الضروري تهريبها سرًّا.

فكتبت تقول: «الخطة كلها جاهزة، يا ميشيل. ستأتي آن متأخرة. وستلتقي بالأصدقاء الذين سيساعدونها في غرفة المكتبة الصغيرة؛ لأن الأولى بك ألا تُحيط علمًا بهؤلاء الرفاق. إذا استطعت أن تُبقي الممر خاليًا لبعض الوقت، يمكنهم الخروج من باب غرفة المكتبة إلى الحديقة، ويصلون إلى باريس صباح اليوم التالي.»

ثم جهَّزت هذه الرسالة دون أن تعرضها على آن، وقالت: «سأرسلها مع رسول غدًا في الصباح، مع أوامر بتسليمها لميشيل شخصيًّا. والآن، كيف ستذهبين؟»

أسهبت الفتاتان في بحث هذه المسألة. إذ إن استدعاء السيارة الفارهة قد يجذب انتباه هانو، وقد يتصور أنها تفر وبيتي تعينها. هذا الاحتمال لم يكُن واردًا البتة.

ثم هتفت بيتي فجأةً: «وجدتها! ستأتي جين لوكلير لتأخذك! وستكونين جاهزة للتسلُّل خلسة. ستتوقَّف بسيارتها للحظة عند البوابة. وسيكون الظلام قد حلَّ. ستغادرين في لمح البصر!»

هتفت آن مندهشة، وتراجعت خطوة: «جين لوكلير!»

كانت آن دائمًا ما تشعر بالحيرة من أن بيتي قد اختارت أصدقاءها من بين الوضيعين والمبتذَلين، على الرغم من أناقتها الشديدة واهتمامها المتقن بمظهرها وسلوكها. لكنها كانت تفضل أن تكون ملكة بين مَن هم دونها على أن تكون عادية بين أندادها. ففي ظل سلوكها المتحفظ، كانت تشتعل برغبة لا تشبع للتمييز. رغبة مستعرة أن تكون محط الاهتمام، والإعجاب، وأن يتطلع إليها من حولها كزعيمة وسيدة قوم. وكانت جين لوكلير واحدة من زمرة أتباعها؛ كانت امرأة ضخمة وصهباء، أسلوبها يتسم بالتكلف والمبالغة من حيث الطابع الرسمي والتهذيب، وتملك نوعًا من الجاذبية، وكانت بلا شك تلقى مكانًا لها في مجتمع المدينة. ولم تكن آن أبكوت تكرهها فقط، بل كانت لا تثق بها. كان ينتابها شعور غامض بأن هناك شيئًا غير سوي في طبيعة تلك المرأة.

قالت بيتي: «إنها ستفعل أي شيء من أجلي يا آن، ولهذا اخترتها. وأعلم أنها ستحضر حفلة السيدة لو فاي.»

رضخت آن أبكوت في النهاية، وكُتب خطاب ثانٍ إلى جين لوكلير. في هذا الخطاب، طُلب من جين زيارة منزل كرينيل في ساعة مبكرة من الصباح؛ وجاءت جين لوكلير فعلًا، وبقيت مع بيتي في غرفة مغلقة ساعة كاملة بين التاسعة والعاشرة. وهكذا جرى ترتيب كل شيء.

في هذه المرحلة قاطع جيم فروبيشر شروح المحقق هانو.

إذ قال: «كلا، ما زال علينا أن نعرف ماذا حدث لإسبينوزا والأخ الأصغر».

فأجاب هانو: «أخبرتنا الآنسة للتو بأنها سمعت صوتًا خافتًا في غرفة التحف، ووجدت بيتي هارلو جالسة في المحفة. كانت بيتي قد عادت لتوها من منزل بروبيزار، حيث ذهب إليه إسبينوزا في تلك الليلة بعد أن خيم الظلام، وحين كان العشاء قد انتهى تقريبًا في منزل كرينيل ... ومن منزل بروبيزار توجه إسبينوزا إلى شارع جامبيتا، وهناك انتظر جان كلاديل. لقد كانت تلك الليلة حافلةً بالأحداث، يا أصدقائي. كانت العدالة

— تلك الذئبة العجوز — تشم الأرض عند أسفل الباب. كانوا يسمعونها. ولم يكُن لديهم وقت يضيعونه!»

ثم حلَّت الليلة التالية. وكان العشاء متأخرًا جدًّا كما تذكر جيم. والسبب أن بيتي كانت تساعد آن في ارتداء ملابسها؛ إذ إن فرانسين حصلت على إجازتها. تناول جيم وبيتي العشاء معًا، وبينما كانا يتناولانه، تسللت آن أبكوت إلى الطابق السفلي، تغطي ثوبها الجميل بعباءة من فرو القاقوم الأبيض. فتحت الباب الأمامي قليلًا، وفور توقف سيارة جين لوكلير أمام البوابة، اندفعت آن عَبْر الفناء. كانت جين قد فتحت باب السيارة. وما كادت السيارة تتوقف حتى انطلقت مجددًا. وتذكر جيم بوضوح، وهو يستمع للقصة، مدى شُرود بيتي أثناء العشاء، ومبلغ ارتياحها العظيم حين أُغلق باب القاعة برفق، وتحركت السيارة خارجة من شارع تشارلز روبيرت. لقد غادرت آن أبكوت منزل كرينيل إلى غير رجعة. لن تعود لتشكل تهديدًا لبيتي هارلو بعد الآن.

وصلت جين لوكلير وآن أبكوت إلى منزل السيدة لو فاي بعد العاشرة بدقائق قليلة. وتقدم ميشيل لو فاي لاستقبالهما.

وقال لآن: «يسعدني مجيئك كثيرًا يا آنسة، ولكنكِ تأخرتِ. لقد تركت والدتي مكانها عند باب قاعة الرقص، لكننا سنجدها لاحقًا.»

ثم أخذهما إلى غرفة المعاطف، وبينما كانتا تخرجان، انضم إليهما إسبينوزا.

سأل ميشيل لو فاي: «هل سترقصان الآن؟ ليس بعد! إذن سيرافقكما السيد إسبينوزا إلى صالة الطعام بينما أستقبل الضيوف الآخرين.»

وانطلق مسرعًا نحو قاعة الرقص، حيث كانت أصوات عالية تتداخل مع موسيقى الفرقة. وقاد إسبينوزا السيدتين إلى سفرة الطعام. ولم يجدوا عندها أحدًا تقريبًا.

وقالت جين لوكلير بصوت منخفض: «ما زلنا باكرين. لنتناول بعض القهوة.»

لكن آن رفضت. كانت عيناها على الباب، وقدماها تتراقصان، ويداها لا تهدآن. هل كانت الرسالة خدعة؟ هل ستكتشف الحقيقة فعلًا خلال دقائق قليلة؟ تارةً كانت تشعر بأن قلبها سيسقط بين قدميها، وتارةً أخرى بأنه يحلق عاليًا.

وقال إسبينوزا بإلحاح: «آنسة، أنتِ تهملين قهوتكِ. وهي لذيذة وطيبة.»

أجابت آن: «لا شك في ذلك.» ثم التفتت إلى جين لوكلير. وسألتها: «سترسليننني إلى المنزل، أليس كذلك؟ لن أنتظر ... بعد ذلك.»

أجابت جين: «بالطبع. جرى الترتيب لكل شيء. السائق يعرف ما عليه فعله. هلا شربت قهوتك يا عزيزتي؟»

لكن آن أصرت على الرفض.

إذ قالت بحزم: «لا أريد شيئًا. حان وقت ذهابي.» وقد لمحت تبادلًا سريعًا وغريبًا للنظرات بين جين لوكلير وإسبينوزا، لكنها لم تكُن في حالة تسمح لها بالبحث عن تفسير. لا ريب في أن القهوة التي قُدمت لها كانت مَخْلوطةً بمخدرٍ دسه إسبينوزا عند إحضارها من السفرة إلى المنضدة التي جلسوا حولها؛ مخدر كفيلٌ بشل وعيها وتيسير التعامل معها. لكنها لم تستسلم، ووقفت على قدميها.

وقالت: «سأجلب ردائي»، وأخذتها، تاركة رفيقيها معًا. ولم تعد إلى غرفة السفرة.

في الجانب البعيد من البهو الكبير، امتد ممر طويل. وفي بدايته، وقف ميشيل لو فاي كحارس يحرسه. وقد أشار إليها، ولما اقتربت منه:

قال بصوت منخفض: «انزلي وانعطفي يمينًا نحو الجناح. ستكون المكتبة الصغيرة أمامكِ مباشرةً».

انسلَّت آن من جانبه. ودلفت إلى جناح من البيت كان خاليًا تمامًا وصامتًا. وفي نهايته وقفت أمام باب مغلق. ففتحته برفق. كان الظلام يعم المكان. تسلل من الممر ما يكفي من نورٍ، ليُبين لها رفوف الكتب الشاهقة على الجدران، وأماكن الأثاث، وستائر داكنة ثقيلة في الجهة المقابلة. كانت إذن أول من وصل إلى الملتقى. فأغلقت الباب خلفها وتقدمت بحذر وبطء ويداها مبسوطتان أمامها، حتى شعرت بالستائر في يدها. فدخلت إلى الحيز وراءها، وكان ذاك الحيز مشربية مقوسة، ناتئة وكبيرة، تطل على الحديقة؛ وفجأةً، سمعت صوتًا غريبًا كأنه صرير، جعل قلبها يقفز إلى حلقها.

إذَن لم تكُن وحدها في الغرفة. كان هناك مَن يراقبها بصمت وهي تدخل من الممر المضيء. ارتفع الصوت أكثر. وحدَّقت آن من بين الستائر، أخذت تباعد بينها بيدين مرتجفتين، ومن صدع خلفها تسلل ضوء خافت إلى الغرفة. في الزاوية البعيدة قرب الباب، كان شيء ما يتشبث برف كتب عالٍ، وينزل منه. كان ثمة مَن يختبئ خلف القمة المزخرفة لخزانة الكتب الثقيلة المصنوعة من خشب الماهوجني؛ والآن ها هو يستخدم الرفوف كسلالم للنزول.

استبدَّ الرعب بآن. وتفطرت من حلقها شهقة. ثم انطلقت نحو الباب. لكنها كانت قد تأخرت. إذ انقضَّ عليها هيكل أسود من أعلى خزانة الكتب إلى الأرض، وما إنْ مدَّت يدها نحو الباب، حتى لُف وشاح حول فمها ليخنق صرختها. ثم جُذبت إلى الداخل بعنف، لكن أصابعها كانت قد لمست مفتاح الإضاءة بجانب الباب، وبينما هي تتعثر

وتسقط، أضيئت الغرفة فجأة. انقض عليها المهاجم يحاول إنهاك أنفاسها، ورَبَط الوشاح بإحكام خلف رأسها. حاولت آن أن تنهض، ولكنها أدركت بشهقة من الذهول أن المعتدي الذي يسيطر عليها بثقل جسده ويثبتها بركبتيه لم يكُن سوى فرانسين رولار. تلاشى خوفها، ليحل مكانه سخطٌ جامح وشعورٌ بالمهانة المؤلمة. فأبدت مقاومة عنيفة بكل ما أوتيت من قوة في قوامها اللدن المشوق. بيد أن الوشاح حول فمها أرهقها، وما لبثت أن استوعبت بفزع متصاعد أنها لا تُضاهي الفتاة القروية الصلبة. كان فارق الطول في صالح آن، لكن طولها لم ينفعها؛ فكانت كطفلة تواجه قطة برية. كانت أعصاب فرانسين من فولاذ. فجذبت ذراعي آن خلف ظهرها وكبلت رسغيها بإحكام، بينما كانت آن ملقاة على بطنها وصدرها يعلو ويهبط، وقلبها ينبض بعنف حتى شعرت بأنه سينفجر. ثم، وحين استسلمت آن، قيدت فرانسين كاحليها أيضًا.

قفزت فرانسين واقفة في طرفة عين. وركضت نحو الباب، وفتحته قليلًا وأشارت بيدها. ثم سحبت ضحيتها إلى الأريكة، ودخلت جين لوكلير وإسبينوزا إلى الغرفة.

قال إسبينوزا: «هل انتهى الأمر؟»

فضحكت فرانسين.

وقالت: «نعم، لكن تلك الصغيرة الجميلة كانت تقاوم! كان عليكم أن تجعلوها تشرب القهوة. عندها كانت ستسايرنا. أما الآن فيجب أن نحملها. إنها مشاكسة، أؤكد لكم.»

ولفت جين لوكلير وشاحًا من الدانتيل حول وجه الفتاة ليخفي الكمامة على فمها، وأثناء إمساك فرانسين لها، وضعت جين رداءها الأبيض على كتفَيها وثبتته في الأمام. ثم أطفأ إسبينوزا النور وسحب الستائر.

كانت الغرفة في الجهة الخلفية من المنزل. وكانت الحديقة تمتد أمام نافذتها. لكنها لم تكُن حديقة زينة، بل مرعى في منزل ريفي فرنسي، حيث ترعى الأبقار تحت النوافذ، ولا يُخصص للزهور والمروج المشذبة سوى شريط ضيق أمام الشرفة. تطلع إسبينوزا إلى المرعى كثيف الأشجار، ورأى الأبقار تتحرك كالأشباح في عتمة الليلة الصيفية. ففتح النافذة، وتسرب إلى أسماعهم خفقان الموسيقى الخافت من قاعة الرقص.

قال إسبينوزا: «يجب أن نسرع.»

ورفع الفتاة العاجزة بين ذراعيه وتقدم إلى المرعى. تركوا النافذة مفتوحة خلفهم، ثم حملوا ضحيتهم عابرين العشب، متخفين في ظلمة الأشجار، ومتجهين إلى نقطة محددة في ممر السيارات حيث كانت تنتظرهم سيارة في منتصف الطريق بين المنزل والبوابة. ثم بدا لهم عن يسارهم ضوءًا خافتًا يأتي من جهة الشرفة والأرض المزينة أمامها، لكنهم كانوا

في بقعة مظلمة بالكامل. وقد وقفوا مرة أو نحو ذلك ليستريحوا، وكانوا حينها يوقفون آن على قدمَيها ويمسكون بها حتى يلتقطوا أنفاسهم.

همس إسبينوزا قائلًا: «بضع ياردات بعدُ ونَصِل» ثم توقف مرة أخرى وكتم سبابًا. كانوا الآن عند حافة مسار السيارات، وأمامهم مباشرة رأى إسبينوزا فستانًا أبيض اللون يتلألأ وبالقرب منه وهج سيجارة مشتعلة. فأنزل آن بسرعة وأسندها إلى شجرة. وأسرعت جين لوكلير بالوقوف أمامها بينما اقترب المتخلفان عن الحفل الراقص، وشرعت تتحدث إلى آن وتومئ برأسها وكأنها منهمكة في محادثة شيقة. وأما إسبينوزا فقد جمد الدم في عروقه حين سمع الرجل يقول:

«هناك آخرون هنا! هذا مثير للفضول. لنرَ ما شأنهم؟»

لكن حين تحرَّك عَبْر مسار السيارات، أمسكت الفتاة التي ترتدي الفستان الأبيض بذراعه.

وقالت ضاحكة: «لن يكون من اللباقة فعل هذا. لنفعل ما كنا لنريد من الآخرين أن يفعلوه معنا»، ومر الزوجان من جانبهم في تؤدة.

انتظر إسبينوزا حتى اختفى الرجل والفتاة. ثم همس بصوت مرتجف: «أسرعي! هلمي بنا!»

وبعد أن ساروا بضع ياردات أخرى، وصلوا إلى سيارة إسبينوزا المخبأة في ممشى صغير يتفرَّع من مسار السيارات الرئيسي. فوضعوا آن في السيارة. وجلست جين لوكلير إلى جانبها، فيما تولى إسبينوزا عجلة القيادة. وعندما انطلقوا نحو فال تيرزون، دقَّت ساعة بعيدة مُعلِنةً الحادية عشرة. وفي داخل السيارة، أزالت جين لوكلير الكمامة عن فم آن، وأسدلت عليها كيسًا ثقيلًا وأحكمت ربطه تحت قدميها. وعند مفترق الطرق، كان إسبينوزا الصغير ينتظر بدراجته النارية والمقطورة الجانبية.

وعندما انتهت آنسة آن أبكوت من رواية قصتها، قال هانو بهدوء: «أستطيع أن أضيف كلمات قليلة إلى تلك القصة يا آنسة. في البدء، رجع ميشيل لو فاي إلى المكتبة بعد حين، فأحكم إغلاق النافذة، معتقدًا أنك صرتِ في طريقك إلى باريس. ثانيًا، ألقي القبض على إسبينوزا وجين لوكلير وهما في طريق عودتهما إلى حفل السيدة لو فاي.»

الفصل الخامس والعشرون

ما حدث ليلة السابع والعشرين

قال هانو لجيم فروبيشر، وهما يجلسان على العشب بعد دخول آن أبكوت: «لم نصل إلى النهاية بعد، لكننا اقتربنا. لا يزال هناك سؤالي الذي لم أجد له إجابة: «لماذا كان الباب الواصل بين غرفة نوم السيدة هارلو وغرفة الكنز مفتوحًا في تلك الليلة التي نزلت فيها آن أبكوت الدرج في الظلام؟» حين نعرف الجواب، سندرك لماذا تآمرت فرانسين رولار وبيتي هارلو معًا على قتل السيدة هارلو.»

سأله جيم: «إذَن فأنت تعتقد أن لفرانسين رولار يدًا في تلك الجريمة أيضًا؟»

رد هانو بثقة: «بل أنا واثق من ذلك. أتذكر التجربة التي أجريتها، مشهد إعادة التمثيل؟ حينئذٍ، تمدَّدَت بيتي هارلو على السرير لتؤدي دور السيدة، وهمست فرانسين: «هذا سيفي بالغرض؟»»

«نعم.»

أشعل هانو سيجارة وابتسم.

وقال: «فرانسين رولار لم تكُن لتقف إلى جانب الفراش. كلا! بل كانت لتقف عند حافة الفراش وتهمس بتلك الكلمات البسيطة الرهيبة. وليس في أي مكان آخَر. كان ذلك ذا دلالة، يا صديقي. فلم يكُن بوسعك الوقوف تمامًا في الموضع الذي وقفت فيه لحظة ارتُكِبت الجريمة.» ثم أضاف بصوت خافت: «إنني لأعلِّق آمالًا كبيرة على فرانسين رولار. بضعة أيام في زنزانة السجن، وستنطق تلك النمرة الصغيرة الآبِدة بكل شيء.»

فقال جيم: «وما شأن وابرسكي في كل هذا؟»

ضحك هانو ونهض من مقعده.

«وابرسكي؟ لا شأن له بشيء من هذا كله. لقد قدم تهمة لم يكن يؤمن بها، وتبين أن التهمة صحيحة. هذا كل ما هنالك.» ثم خطا بضع خطوات وعاد يقول: «بل أنا مخطئ.

ليس هذا كل شيء. وابرسكي له دور، نعم. عندما أُجبر على تقديم دليل لاتهامه، واحتاج إلى ذريعة، خطرت له مصادفةً ذكرى صباحٍ رأى فيه بيتي هارلو في شارع جامبيتا قرب متجر جان كلاديل. وهكذا قادنا إلى الحقيقة. نعم، نحن مدينون بشيءٍ لذلك الهمجي، بوريس وابرسكي. ألم أُقل لك يا سيدي إننا جميعًا خدم الصدفة؟»

غادر هانو الحديقة، ولم يرَه جيم فروبيشر لثلاثة أيام. لكن التطور الذي كان السيد بيكس يخشاه ويأمله هانو قد حدث، وفي اليوم الثالث دعا هانو جيم إلى مكتبه في المديرية.

كان هانو يحمل في يده مذكرة جيم.

فسأله: «أتذكر ما كتبت؟ انظر!» ودفع بالمذكرة أمامه وأشار إلى فقرة.

«لكن في غياب أي أثر للسم في جثة المرأة المتوفاة، من الصعب تقديم المجرم إلى العدالة إلا من خلال:

(أ) اعتراف.

(ب) ارتكاب جريمة أخرى من النوع ذاته.

أو نظرية هانو؛ من استخدم السم مرة، سيعود لاستخدامه دائمًا.»

قرأ فروبيشر الفقرة.

وقال هانو: «هذا صحيح وفي غاية الدقة. لم أصادف قط قضيةً أعقد منها. كنا ننهار عند كل خطوة. ظننت أنني أوقعت جان كلاديل. فإذا بي أصل متأخرًا بخمس دقائق. وظننت أنني سأحصل على دليل يفيدني من شركة في باريس. فاكتشفت أن الشركة صفت أعمالها منذ ١٠ سنوات. كنت طوال الوقت كمن يحاول الرسم على الماء. فاضطررت إلى المجازفة؛ نعم، مجازفة كبيرة. هل أخبرك ما كانت تلك المجازفة؟ كان عليَّ أن أفترض أن الآنسة آن ستُعاد حيَّة إلى فندق بروبيزار في تلك الليلة من حفل السيدة لو فاي. لم يكُن لديَّ شك في أنهم سيعيدونها. إذ لا يوجد مكانٌ أكثر أمنًا من مطبخ ذلك المنزل، تحت ألواحه الحجرية. ثم كان هناك حقيبة السفر في المقطورة الجانبية للدراجة النارية. لم تكُن تلك الحقيبة خفيفة. وقد رأى بعض أصدقائي الشاب إسبينوزا وهو يضعها في الدراجة قبل أن ينطلق إلى اللقاء. لا أشك أن وزنها كان يبلغ نفس وزن الآنسة آن.»

قاطع جيم: «لم أفهم تمامًا سبب وجود تلك الحقيبة.»

أجابه هانو: «كان الأمر مُتعلِّقًا بالتوقيت. يمتد الطريق من فال تيرزون إلى فندق بروبيزار مسافة ٢٥ كيلومترًا من الطرق الوعرة غير المعبدة. ودراجة نارية بحمولة جانبية ستستغرق وقتًا أقل مما لو كانت غير محملة، حيث تستطيع أن تمر بالمنعطفات بأقصى

سرعتها. وقد أرادت العصابة معرفة الزمن الدقيق الذي تستغرقه الرحلة بوجود آن أبكوت في الدراجة حتى لا يضطروا إلى الانتظار. لكنهم كانوا حذِرين أكثر مما ينبغي. لقد قال صديقنا وابرسكي جملة ذكية، أليس كذلك؟ تُكتشف بعض الجرائم لأن الحجج تكون مثالية أكثر من اللازم وعلى نحو غير طبيعي. لم يكُن هناك شك في أنهم كانوا سيُعيدون الآنسة آن! لكن، ماذا لو أعادوها جثة؟ لم يكُن ذلك مُرجَّحًا، كلا! الأيسر بكثير أن يقضوا عليها بجرعة من سم السهم، بلا صراع أو دماء أو عناء. توقعت أنهم سيخدرونها في حفل السيدة لو فاي، ويعيدونها شبه واعية، كما كانوا ينوون بالفعل. لكني كنت أرتعد طوال تلك الليلة من المجازفة التي أخذتها، وحين أُطفئ محرك الدراجة بينما نقف في ظلام الرواق، كان اليأس قد تملكني.»

وهز هانو كتفَيه قليلًا كأن الخطر لا يزال حاضرًا.

ثم تابع: «على كل حال، خضتُ تلك المجازفة، وهكذا تحقَّق شرطك (ب): محاولة ارتكاب جريمة أخرى من النوع نفسه.»

أومأ فروبيشر موافقًا.

فقال هانو وهو ينحني للأمام: «والآن، تحقق الشرط (أ) أيضًا؛ ألا وهو الاعتراف؛ لدينا اعتراف صريح وكامل من فرانسين رولار، وإقرارات جزئية كافية من إسبينوزا الكبير والشاب، وجين لوكلير، وموريس ثيفينيه، حتى إنها تشكل اعترافات في حد ذاتها. جمعنا كل شيء معًا، وهذه هي القضية الجديدة التي سيتعين على السيد بيكس وعليك التعامل معها؛ والتهمة ليست محاولة قتل، بل جريمة قتل كاملة الأركان ... جريمة قتل السيدة هارلو.»

كان جيم على وشك مقاطعته، لكنه تراجع.

وقنع بأن يقول: «تابع فضلًا!»

قال هانو: «لماذا لجأت بيتي هارلو إلى كتابة الرسائل المجهولة يا سيدي، ما السبب؟ أهو الملل الذي تعانيه فتاة شابة جميلة ومفعمة بالعاطفة، في مدينة إقليمية؛ كما أشار صاحبنا بوريس؟ أم الحاجة الملحة إلى الإثارة؟ أم هي نزعةٌ خبيثةٌ ومنحرفةٌ ومضطربةٌ وُلدت بها وتنامت في ذاتها، ولم تكفَّ عن التطلب؟ أم هي أعباء تدبير شئون السيدة المنهكة؟ ربما كانت كل هذه العوامل مجتمعة هي ما أوحت لها بالفكرة. ثم فجأةً أصبح الأمر سهلًا عليها. إذ عثرت على فاتورة قديمة في ذلك الصندوق الموجود في غرفة نوم السيدة هارلو، فاتورة مؤرخة عمرها ١٠ سنوات من شركة شابيرون لأعمال البناء في

شارع باتينيول في باريس. بالمناسبة، أنتَ رأيتَ قطعة غير محترقة من تلك الفاتورة وسط الرماد في مدفأة غرفة الكنز. كشفت لها تلك الفاتورة عن وجود الممر السري بين غرفة الكنز وفندق بروبيزار. فقد كانت صادرة من الشركة التي أصلحته بطلب من سايمون هارلو. إن وجود آلة كاتبة قديمة تعود لسايمون هارلو، وتوافر الخصوصية المُطلَقة التي يقدمها منزل بروبيزار جعلا اللعبة سهلة وآمنة عليها. لكن مع تزايد الفرص، تزايدت الرغبة. لقد تذوقت بيتي هارلو طعم السلطة والنفوذ. فبدأت تُشرك بعض الأشخاص في سرها — خادمتها فرانسين، موريس ثيفينيه، جين لوكلير، وجان كلاديل، وهم كلهم شخصيات مفيدة للغاية — وما إنْ بدأت الدائرة تتسع حتى تبعتها الابتزازات. ابتزاز بيتي هارلو، أتفهم ما أقول؟! بيتي هارلو الملكة، غدت أكبر المستعبدين. بات عليها أن تؤمِّن لموريس عشيقته، ولإسبينوزا سيارته ومنزله، ولجين لوكلير الكماليات والرفاهيات. وهكذا تحولت الرسائل المجهولة إلى رسائل ابتزاز. كان موريس ثيفينيه يعرف الجانب الشرَطي من ديجون وما حولها. وجين لوكلير كانت لها — لنقل أحد الأصدقاء — في إدارة شركة تأمين. وصدقني، لا شيء أهم للمبتز من معرفة الموارد المالية الدقيقة لـ... دعنا نسميهم الزبائن. وهكذا استمرت اللعبة بحسب أهوائهم حتى نفد المال، وتعذَّر جمعه. نظرت بيتي هارلو حولها في ديجون. لم يكُن هناك أحد لتستغله في تلك اللحظة. لكن بلى، كان ثَم شخصٌ واحد! كي نُجيز لبيتي هارلو حقها، لنفترض أن المقترح تقدَّم به ذلك الناشئ الواعد موريس ثيفينيه! فمن كان يا سيد فروبيشر؟»

حتى الآن، لم يكُن جيم فروبيشر قادرًا على تخمين الحقيقة، رغم أن هانو قد مهَّد له الطريق إليها بعرضه المفصل.

قال هانو، موضحًا: «السيدة هارلو نفسها»، وإذ جفل جيم فروبيشر من هول ما سمع، تابع هانو يقول: «نعم، هذا صحيح! تلقت السيدة هارلو رسالة في وقت العشاء، تمامًا كما حدث مع آن أبكوت، ليلة حفل السيد دو بوياك. لقد تناولت عشاءها في الفراش في تلك الليلة كما تتذكر. وقد اطلعت الممرضة جين بودان على تلك الرسالة، وهي تتذكَّرها جيدًا. كانت الرسالة تطالب بمبلغ كبير من المال، وأشارت باقتضاب إلى مجموعة من الرسائل العاطفية التي قد لا تعبأ السيدة هارلو أن تُنشر— ليس بشكل صريح، كما تعلم، ولكن بما يكفي ليجعل الأمر واضحًا: أن علاقة السيدة رافيار بسايمون هارلو لم تكُن خافية على السوط. وسأخبرك بأمر آخر سيفاجئك يا سيد فروبيشر. لم تطلع جين بودان على تلك الرسالة فحسب، بل كذلك بيتي هارلو، عندما جاءت لتلقي تحية المساء

وتُري والدتها فستان الرقص الجديد من نسيج الفضة وحذاءها الفضي. لم يكن مستغربًا إذَن أن تفقد بيتي هارلو رباطة جأشها قليلًا حين نصبتُ لها فخي الصغير في المكتبة، وتظاهرت بأني لا أرغب في قراءة ما قالته السيدة جين بودان بعد أن غادرت بيتي إلى حفلتها. لم أكُن أدرك آنذاك كما كان ذلك الفخ مؤلمًا لها!»

فقاطعه فروبيشر قائلًا: «لكن تمهَّل لحظة! إذا كانت السيدة هارلو قد أطلعت جين بودان أولًا على تلك الرسالة، ثم بيتي هارلو بحضور جين، فلماذا لم تذكر جين هذه الواقعة فورًا لقاضي التحقيق حين تقدم وابرسكي باتهامه؟ لقد التزمت الصمت! نعم، التزمت الصمت!»

أجاب هانو: «ولِمَ لا تلتزم الصمت؟ جين بودان فتاة طيبة وشريفة. بالنسبة لها، ماتت السيدة هارلو ميتة طبيعية في نومها، وهي الطريقة التي كانت متوقعة لموتها. ولم تصدق كلمة واحدة من اتهامات وابرسكي. فلمَ تنكأ جراح الفضائح القديمة؟ هي نفسها اقترحت على بيتي هارلو أن لا تذكرا شيئًا عن تلك الرسالة المجهولة.»

فكَّر جيم فروبيشر في هذا الطرح، وقبله أخيرًا. وقال معترفًا: «نعم، أستطيع تفهم وجهة نظرها»، فواصل هانو سرده.

«حسنًا، تذهب بيتي هارلو إلى حفلتها في جادة تيير. وآن أبكوت في غرفتها، وقد أنهت جين بودان مهامها لتلك الليلة. وأما السيدة هارلو فهي وحدها. ماذا تفعل؟ تشرب؟ كلا، لم تكن لتعاقر الشراب في تلك الليلة! بل جلست تفكر. هل ما زالت هناك رسائل محفوظة من الرسائل التي تبادلتها فيما بينها وبين سايمون هارلو قبل أن تصبح زوجته؟ كانت تظن أنها أتلفتها جميعًا. لكنها امرأة، وربما احتفظت ببعضها. وإن وُجدت، فأين تكون؟ لا بد أنها في ذلك المنزل عند نهاية الممر السري. لا شك أن مثل هذه الأفكار راودتها. نهضت من مضجعها، ولبست رداء النوم وحذاءها، ثم شرعت الباب الذي يربط حجرتها بغرفة الكنز، ومضت في الممر الخفي نحو منزل بروبيزار المهجور. وماذا وجدت هناك يا سيدي؟ غرفة تُستخدم يوميًّا، وحزمة من رسائلها موضوعة في الدرج العلوي من مكتبها على الطراز الإمبراطوري، وعلى المكتب آلة كورونا الكاتبة الخاصة بسايمون، وأوراق ومظاريف مطابقة لتلك المستخدمة في الرسائل المجهولة. لا أحد يمكنه دخول تلك الغرفة سوى فتاة قد أحسنت إليها، فتاة أحبتها على طريقتها المتشددة والصارمة. وعند الساعة الحادية عشرة تلك الليلة، تفاجئ فرانسين رولار بدخول السيدة هارلو إلى غرفتها. لوهلة، ظنَّت فرانسين أن السيدة كانت تعاقر الشراب. لكنها سرعان ما أدركت الحقيقة. إذ أُمرت بأن تستيقظ، وأن تنتظر عودة بيتي هارلو وتُحضِرها فورًا إلى غرفة السيدة. مع

دقات الساعة الواحدة، كانت فرانسين رولار ترابط في الردهة المظلمة. وحالما ولجت بيتي هارلو عائدةً من الحفل، بادرَتْها فرانسين بالرسالة. لم تكُن أي من الفتاتين تعرف، في تلك اللحظة، مدى ما اكتُشف من أفعالهما. لكن لا بد أن شيئًا ما قد كُشِف. فتطلب بيتي هارلو من فرانسين الانتظار، وتهرع في صمت إلى غرفتها. كانت مستعدة لاحتمال انكشاف أمرها. لقد كانت تلعب بالنار، ولم تكُن تنوي أن تُصاب بحروق. فكانت تحتفظ بسمِّ السهم المسموم؛ نعم، لأجل نفسها. فملأت به محقنًا، وأخفته في راحة يدها داخل قفازها، وذهبت لمواجهة محسنتها.

يمكنك تخيُّل تلك المواجهة: المرأة الغاضبة التي كُشف ماضيها العاطفي والمؤلم، تصب جام غضبها عليها أمام فرانسين رولار. لم يكُن وابرسكي هو من كُشِف أمره وسُلخ قذعًا، كلا، بل تلك الشابة بفستانها الفضي الجميل وحذائها اللامع. تستطيع أن تتصور أيضًا الفتاة وهي تغير غايتها مع تزايد سيل الإذلال. لماذا تستخدم السم لتُهلك نفسها، بينما يمكنها إنقاذ كل شيء بالقتل؛ الثروة، والحرية، والمكانة؟ عليها فقط أن تسرع. يعلو صوت السيدة في نوبات من الغضب. من المحتمل أن يستيقظ أحدٌ، كجين بودان، جراء الضوضاء، حتى في ذلك المنزل القديم ذي الجدران السميكة. وفي لحظة، يُرتكب الفعل الوحشي. تُطرح السيدة هارلو على فراشها. وتُكمم فرانسين رولار فمها وتُحكم قبضتها عليه. وأخذت بيتي تُعمل فيها الإبرة. تهمس بيتي هارلو قائلةً: «سيفي هذا بالغرض». لكن عند باب غرفة الكنز، كانت آن أبكوت واقفة في الظلام، غير قادرة على تمييز الصوت الذي همس، تمامًا كما لم نتمكَّن أنت وأنا يا سيدي من تمييز الصوت الذي همس لنا من نافذة منزل جان كلاديل، لكنها حفظت الكلمات المرعبة في ذاكرتها. ولم تعلم القاتلتان بوجودها.

ثم تتابعان بحثهما عن الرسائل. لكنهما لا تجدانها، لأن السيدة دستها في صندوق مليء بالفواتير والأوراق القديمة. تعيدان ترتيب الفراش، وتهيئة ضحيتهما فيه كأنها نائمة، وتدخلان إلى غرفة الكنوز، وتنسَيان إغلاق الباب خلفهما. وعلى الأرجح أيضًا أنهما زارتا منزل بروبيزار. فقد كان لزامًا على بيتي أن تخبئ ما تبقى من السم والإبرة، وأي موضع أكثر أمنًا من ذاك؟ وأخيرًا، بعد أن تأكدتا من محو كل أثر قد يفضحهما كقاتلتين في صباح اليوم التالي، تتسلل بيتي إلى الأعلى لتتأكد أن آن أبكوت نائمة؛ ولما استيقظت آن، مدت يدها فلمست وجهها.»

ثم قال هانو وهو ينهض من مقعده: «هذا يا سيدي ما يمكن أن تسميه الدعوى. هذه هي القضية التي يجب أن تواجهها أنت والسيد بيكس.»

واتخذ جيم فروبيشر قراره أن يقول ما كان على وشك قوله في بداية اللقاء.

فقال: «سأُطلع السيد بيكس على كل ما قلته لي. وسأُقدم له كل مساعدة يمكنني أو يمكن لمكتبنا أن يُقدمها. لكنني لم أعُد مرتبطًا رسميًّا بجهة الدفاع.»

نظر إليه هانو في حيرة.

وقال: «لا أفهم يا سيدي. ليس هذا وقت التخلي عن موكل.»

فأجابه فروبيشر: «وأنا لا أتخلى عن موكل. بل الأمر بالعكس. لقد وضعني السيد بيكس في الصورة ... كيف أقولها؟»

فأكمل هانو الجملة بابتسامة خفيفة.

«بأسلوب مهني سليم.»

قال فروبيشر: «لقد أخبرني أن الآنسة لا ترغب في رؤيتي مرة أخرى.»

مشى هانو إلى النافذة. لقد أثر فيه الهوان البادي في صوت جيم ووجهه. فقال بلطف: «أستطيع تفهم ذلك، ألا يمكنك أنت؟ لقد قاتلَتْ من أجل رهان عظيم طوال هذا الأسبوع: حريتها، وثروتها، وسمعتها ... وأنت. آه، نعم» وتابع هانو بينما تململ جيم في مقعده، «لنكن صريحين! كنتَ من بين ما قاتلت من أجله أيها السيد! فقد كنت مختلفًا عن بقية أصدقائها. تعلقت بك روحها من الوهلة الأولى. أتستذكر أول صباح لي في منزل كرينيل؟ فقد منحت وعدك لآن أبكوت بالإقامة لديهم، بينما رفضت دعوة مماثلة من بيتي هارلو. كانت نظرات الغيرة تشتعل في عينيها، لدرجة أنني أسقطت عصاي متعمدًا في الردهة حتى لا تلاحظ أنني كشفت سرها. والآن، بعد أن قاتلت من أجل هذا الرهان وخسرته، لا عجب في أنها لا ترغب في رؤيتك. كما أنك رأيتها وهي بالأصفاد، ومربوطة الساقين كالنعاج. إنني أتفهمها تمامًا.»

تذكر جيم فروبيشر أن بيتي لم تنظر إليه ولو مرة واحدة منذ لحظة اقتحام هانو لغرفة فندق بروبيزار. فنهض من مقعده، وأخذ قبعته وعصاه.

وقال: «يجب أن أعود إلى شريكي في لندن بهذه القصة حالما أرويها للسيد بيكس. أرغب في أن أستكملها. متى وقع أول شك في قلبك تجاه بيتي هارلو؟»

أومأ هانو برأسه.

«سأخبرك بذلك أيضًا. أوه، ولا تشكرني! لست متأكدًا أنني كنت لأُسديك كل هذه المعلومات لو لم أكُن واثقًا تمامًا مما سيكون عليه الحكم في محكمة الجنايات. سأجمع لك الخيوط المتبقية، ولكن ليس هنا.»

ثم نظر في ساعته.

وقال: «أترى، لقد تجاوزنا الظهر! سنحظى مرة أخرى بزيارة برج تيراس لفيليب لوبون. وقد نرى أيضًا قمة مون بلان عبر كل ربوع فرنسا. هلم بنا! لنأخذ مذكرتك ونذهب إلى هناك.»

الفصل السادس والعشرون

واجهة نوتردام

كان الحظ حليفهما للمرة الثانية. إذ كان اليوم خاليًا من الضباب والغيوم، وكانت سلسلة الجبال الفضية الشاهقة تتدلى في الأفق الأزرق متمايزة وساحرة. أشعل هانو إحدى سجائره السوداء، ثم أدار ظهره لذلك المشهد على مضض.

وقال: «لقد ارتُكبت خطيئتان جسيمتان: واحدة في البداية ارتكبتها بيتي هارلو، وأخرى في النهاية ارتكبتُها أنا، ومن بين الاثنتين، تُعد خطيئتي أقل تبريرًا. فلنبدأ القصة إذن من البداية. ماتت السيدة هارلو ميتة طبيعية. ثم دُفنت؛ وورثت بيتي هارلو ثروة آل هارلو. ثم يطلب منها بوريس وابرسكي مالًا، فترده بازدراء. ولمَ لا؟ لكنها لا بد أنها شعرت بالندم بعد أسبوع على أنها ردت عليه بتلك الطريقة! إذ فجَّر وابرسكي مفاجأته: السيدة هارلو قُتلت بالسم على يد ابنة أختها بيتي. تخيَّل مشاعر بيتي هارلو حين سمعت ذلك! تلك تهمة منافية لما هو معقول. لا شك في ذلك! لكنها أيضًا حقيقية. فقبل دقيقة كانت آمنة. لا شيء يمكن أن يمسَّها. أما الآن، فقد أصبح رأسها على المقصلة. فاعتراها الخوف. ثم يجري استجوابها في غرفة قاضي التحقيق. ولا يملك القاضي شيئًا ضدها. سيكون كل شيء على ما يرام إن لم ترتكب زلة. لكن هناك احتمالًا كبيرًا أن تزل. والسبب في ذلك أنها ارتكبت الجريمة بالفعل. والخطر الذي يَحدِق بها لا يكمن في الأدلة التي يمكن أن يقدمها وابرسكي، بل في ذاتها هي. وبعد يومين يزداد رعبها، إذ تسمع بأن هانو قد استُدعي من باريس. فترتكب خطأها. إذ ترسل إليك ببرقية في لندن.»

سأل فروبيشر مسرعًا: «ولماذا كان ذلك خطأً؟»

فقال: «لأنني بدأت أتساءل فورًا: «كيف عرفت بيتي هارلو أن هانو قد استُدعي؟» وقد أحدثتُ جلبة في مكتبي بشأن خيانة زملائي في ديجون. لكنني لم أصدق كلمة مما

قلت. كلا! إنما بدأتُ أشعر بالفضول تجاه بيتي هارلو. كان هذا كل ما هنالك. ولا أزال أشعر بالفضول. بعد ذلك، نأتي إلى ديجون، وأنت تخبرها بأنك أريتني تلك البرقية.»

قال جيم معترفًا: «نعم، فعلت.» ثم أضاف ببطء: «وأتذكر أيضًا أنها مدَّت يدها إلى حافة النافذة؛ نعم، كأنها تريد أن تتماسك.»

رد هانو بإيماءة تنم عن الإعجاب: «لكنها كانت سريعة في استعادة رباطة جأشها. إذ لا بد لها أن تفسر تلك البرقية. فليس بمقدورها أن تقول لي إن موريس ثيفينيه بعث إليها برسالة مستعجلة. كلا! لذا، حين سألتها إن كانت قد تلقت واحدة من تلك الرسائل المجهولة التي تمثل صلب مهمتي الحقيقية في ديجون كما تذكر، أجابت على الفور: «نعم، تلقيت رسالة صباح الأحد أخبرتني بأن السيد هانو سيأتي من باريس ليفتك بي.» كان هذا تصرفًا سريعًا، صحيح؟ نعم كان سريعًا، لكنه كذب، وأنا أعلم ذلك. إذ لم تُطرح مسألة استدعائي حتى مساء الأحد. أترى، كانت الآنسة بيتي محاصَرة. وكنت قد طلبتُ منها الرسالة. لكنها لم تقُل إنها أتلفتها، خشية أن أظن فورًا أنها لم تتلقَّ مثل هذه الرسالة أصلًا. بل على العكس، قالت إنها في غرفة الكنز المغلة بالأختام، وهي تعرف تمامًا أنه يمكنها أن تكتبها وتضعها هناك عبر منزل بروبيزار قبل رفع الأختام. ولكن، لكي تكون الرسالة في غرفة الكنز، لا بد أن تكون قد تلقتها صباح الأحد، لأن الأختام وُضعت صباح الأحد. وهي لم تكن تعرف متى طُرحت فكرة استدعائي. كانت تجازف مجازفة غير مضمونة النتائج، وأنا أعلم أنها تكذب؛ لقد زاد فضولي بشأنها أكثر من أي وقت مضى.»

ثم توقف هانو عن الحديث. إذ كان جيم فروبيشر يحدِّق إليه وعيناه مليئتان بالذعر.

وهتف قائلًا: «كنت أنا إذن من وضعك في أثرها؟ أنا الذي جئت لأدافع عنها!» ثم أضاف: «لأنني أنا من أراك البرقية.»

رد عليه هانو بجدية: «سيد فروبيشر، لم يكن ليصبح هذا أمرًا مهمًّا لو أن بيتي هارلو كانت بريئة، كما كنت تظن»، فصمت فروبيشر.

وتابع هانو: «والآن، بعد مقابلتي الأولى مع بيتي هارلو، تجولت في أنحاء المنزل بينما كنتَ تتحدث معها في المكتبة!»

فقال جيم: «أجل.»

فقال هانو وهو يرفع حاجبيه موجهًا سؤالًا لجيم بنبرة فكاهية: «وفي غرفة الآنسة آن، وجدتُ شيئًا أثار اهتمامي من النظرة الأولى. فقل لي ما هو!» وكان يأمل في أن يلهي هذا اللغز جيم عن تأنيبه لنفسه. وقد نجح في ذلك بدرجة ما أو بأخرى.

إذ أجاب فروبيشر بابتسامة باهتة: «أعتقد أني أستطيع أن أخمن. كان الكتاب عن الاسبورانثوس.»

«نعم! سم السهم! السم الذي لا يترك أثرًا! كان هذا السم هو الكابوس الذي يراودني يا سيدي. من سيكون أول قاتل يستخدمه؟ كيف سأتمكن من مواجهته وإثبات أنه لا يمنح القاتل أمنًا أكثر مما يمنح الزرنيخ أو حمض البروسيك؟ تلك أسئلة أرعبتني. وفجأةً، دون توقع، وفي منزل تُوفيت فيه امرأة للتو نتيجة فشل في القلب، أجد مؤلَّفًا مملًّا عن هذا السم مخبأً تحت كومة من المجلات في غرفة فتاة شابة. لقد صُدمت. ما الذي يفعله هذا الكتاب هناك؟ كيف وصل إلى هناك؟ ثم ألمح إشارة على الغلاف تدل على صفحة محددة. وأفتح الصفحة، وإذا بي أجد أمامي مباشرة وصفًا لسهم سامٍّ من مجموعة سايمون هارلو. الرسائل المجهولة؟ نسيتُ أمرها في الحال. ماذا لو كان ذلك الحيوان وابرسكي على حق من حيث لا يدري، وأن السيدة هارلو قُتلت بالفعل في منزل كرينيل؟ لا بد أن أتحقَّق من ذلك. فأخفيت الكتاب تحت سترتي، وهبطت الدرج إلى الطابق السفلي، وأنا أطرح على نفسي بعض الأسئلة. هل الآنسة آن مهتمة بأمور اسبورانثوس هسبيدوس هذه؟ أم كان لديها ما تأمله من وفاة السيدة هارلو؟ أم أنها ربما لم تكُن تعلم من الأساس أن الكتاب موجود تحت تلك المجلات على الطاولة الجانبية؟ لم أكن أعلم، وكان ذهني في حالة اضطراب. ثم ألاحظ بيتي هارلو تسدد تلك النظرة الشريرة نحو صديقتها؛ كم كانت نظرة كاشفة أيها السيد! لم أكن أتعامل مع آنسة بسيطة ومتواضعة بحسب للأعراف. كلا. ثم غادرتُ منزل كرينيل وفضولي بشأن بيتي هارلو قد تضاعف.»

وسرعان ما جلس جيم فروبيشر إلى جانب هانو.

وسأله بلهجة تنطوي على شك: «هل أنت مُتيقِّن من ذلك؟»

فرد هانو باستغراب: «تمامًا.»

فقال جيم: «أنسيت، ذلك اليوم بعد أن غادرتَ منزل كرينيل، أمرتَ بانصراف الشرطي من أمام البوابة؟»

فأجاب هانو بثبات وهدوء: «كلا، لم أنسَ ذلك مطلقًا. كان شرطي النظام ببنطاله الأبيض مثيرًا للضحك؛ بل أسوأ من ذلك، كان عائقًا فعليًّا. لا فائدة من مراقبة أناس يعرفون أنهم تحت المراقبة. لذا أمرتُ بصرف الشرطي، وعندئذٍ يمكنني أن أبدأ بمراقبة حقيقية لهاتين الفتاتين في منزل كرينيل. وفي عصر ذلك اليوم، بينما ينقل السيد فروبيشر أمتعته من فندقه، تخرج بيتي هارلو في نزهة، ويتبعها نيكولا مورو سرًّا؛ ثم تختفي.

ولم أُلقِ باللوم على نيكولا في هذا الشأن. إذ لا ينبغي له أن يقترب منها كثيرًا. كانت في تلك المنطقة الضيقة من الأزقة قرب منزل بروبيزار. ولا شك أنها استخدمت البوابة الصغيرة في الجدار، تلك التي استخدمناها نحن بعد أيام، لكي تختفي. فقد كان يجب عليها أن تكتب تلك الرسالة المجهولة، لتكون في انتظاري حين يُرفع الختم عن غرفة الكنز. لكنني لم أكُن أعلم كل هذا بعد. كل ما كنت أعلمه هو أن بيتي هارلو خرجت في نزهة واختفت، ثم ظهرت بعد ساعة في شارع آخر. أما أنا، فقد قضيت عصر ذلك اليوم أبحث في الكيفية التي تقضي بها الشابتان حياتهما ومن هن صديقاتهن. لم تكن عملية مثمرة جدًّا، لكنها لم تكن عديمة الجدوى. إذ وجدت بعض الأصدقاء المشبوهين في دائرة بيتي هارلو. والآن، انتبه لهذا أيها السيد! الفتيات الشابات ذوات الميول المتحررة، اجتماعيًّا أو سياسيًّا أو أدبيًّا أو سَمِّ ما شئت، في حالتهن لا تُعدُّ الصداقات الغريبة أمرًا مستغربًا. بل هي متوقعة. أما في حالة فتاة شابة يبدو أنها تعيش حياة طبيعية تقليدية، فالوضع مختلف. في هذه الحالة، تكون الصداقات المشبوهة ... مشبوهة فعلًا. إسبينوزا الكبير والآخر الشاب، موريس ثيفينيه، جين لوكلير؛ الأشخاص السطحيون والرخيصون من هذا النوع؛ كيف لنا أن نفسر وجودهم كأصدقاء لتلك الفراشة الرقيقة، بيتي هارلو؟»

أومأ جيم فروبيشر برأسه. لقد راوده هو الآخر شعور بعدم الارتياح بسبب العلاقة بين إسبينوزا وبيتي هارلو.

وتابع هانو: «وأما المساء الذي قضيتَه في الحديقة مع الشابتين وسط النسيم العليل، فقد قضيتُه أنا مع البروفيسور من إدنبرة. وأعددتُ فخًّا صغيرًا. نعم، وفي صباح اليوم التالي جئتُ مبكرًا إلى منزل كرينيل ونصبتُ فخي. إذ أعدتُ وضع كتاب السهام في مكانه المعتاد فوق الرفِّ.»

وهنا توقف هانو في شرحه ليأخذ سيجارة سوداء أخرى من رزمة زرقاء لا تفارق جيبه، وقدم واحدة إلى جيم.

«ثم تأتي مقابلتي مع ذلك الحيوان وابرسكي؛ فيقص عليَّ تلك القصة الغريبة عن بيتي هارلو في شارع جامبيتا قرب متجر جان كلاديل. ربما كان كلامه كذبًا. وربما كان صادقًا فيما رأى وكان مجرد حادث عرَضي. نعم! لكن أيضًا، تلك القصة تتلاءم تمامًا مع هذه الفرضية عن جريمة قتل السيدة هارلو التي بدأت تسيطر على ذهني. فإن كان ذلك السم قد استُخدم، فلا بد أن شخصًا يعرف تركيب العقاقير هو من أعد المحلول باستخدام العجينة التي كانت على السهم. وهنا وصل فضولي تجاه بيتي هارلو

إلى أقصاه! وما إن غادرني ذلك الحيوان، حتى نصبتُ الفخ؛ ونجحتُ نجاحًا فاق كل توقعاتي. فقد أشرت إلى مؤلف البروفيسور الاسكتلندي. لم يكُن في مكانه بالأمس. أما اليوم، فهو هناك. فمن أعاده إذَن؟ طرحت ذلك السؤال ووجدت الآنسة آن تائهة تمامًا. لا تعرف شيئًا عن ذلك الكتاب. كان هذا واضحًا كوضوح جبل مون بلان في الأفق هناك. أما بيتي هارلو، فتعرف فورًا من أعاد ذلك الكتاب؛ وفي لحظة سخرية حمقاء، تتيح لي أن أرى بأنها تعرف. كانت تعرف أنني وجدته بالأمس، وأنني طالعته منذ ذلك الحين ثم أعدته. ولا تُبدي أي اندهاش. كلا لم تفعل، فهي تعرف أين وجدته. عندها، أصبحت مثل وابرسكي. يخامرني شعور في قلبي أنها هي من وضعته تحت تلك المجلات في غرفة آن أبكوت، رغم أنني لم أعلم بذلك بعد في قرارة نفسي. كانت بيتي هارلو قد أعدت خطة لتحويل الشبهات عن نفسها إلى آن أبكوت، في حال نشأت تلك الشبهات. لكن الأبرياء لا يفعلون ذلك، أيها السيد.

ثم ننتقل إلى الحديقة وتحكي لنا الآنسة آن قصتها. وبعدها مباشرة قلت لك يا سيد فروبيشر إن كل العتاة في الإجرام ممثلات بارعات. لكنني في حياتي كلها لم أرَ واحدة تتقن التمثيل كما فعلت بيتي هارلو أثناء سرد تلك القصة. تصور! جريمة قتل بشعة ارتُكبت سرًّا، وفجأة تضطر القاتلة إلى الاستماع إلى رواية حقيقية عن تلك الجريمة، في حضور المحقق الذي يسعى لإيجاد الجاني! كان هناك شخص قريبٌ بما يكفي طوال الوقت، يكاد يرقى إلى مصاف شهود العِيان، بل ربما كان شاهد عِيان حقيقيًّا. إذ إنها لا تستطيع أن تطمئن أنها بأمان حتى تُروى القصة كاملة. تخيل مشاعر بيتي هارلو خلال تلك الساعة في الحديقة الغناء، إن استطعت! ما الأسئلة التي لا بد أنها كانت تتزاحم في رأسها! هل تقدمت آن أبكوت في النهاية وتسللت لترى من خلال الباب المضاء؟ هل تعرف الحقيقة؛ وهل أخفتها حتى هذه اللحظة حينما أصبح بمقدورها أن تقولها بأمان في حضور هانو وفروبيشر؟ هل ستكون كلماتها التالية «وها هي ذي القاتلة تجلس إلى جانبي»؟ لا بد أن تلك كانت لحظات مرعبة لبيتي هارلو!»

أضاف فروبيشر: «ومع ذلك، لم تظهر عليها أي علامة على الاضطراب.»

فعلق هانو: «لكنها أخذت حذرها. فقد ركضت فجأةً، وبسرعة كبيرة، إلى داخل المنزل.»

«نعم. بدا لي أنك كنت على وشك منعها.»

تابع هانو: «وقد كنتُ فعلًا على وشك منعها فعلًا. لكنني تركتها، فعادت ...»

قاطعه فروبيشر «وبيدها صور السيدة هارلو.»

هتف هانو: «بل وأكثر من مجرد تلك الصور! فقد أدارت مقعدها نحو الآنسة آن. وجلست وهي تمسك بمنديلها، ووجهها مُغطًّى بالمنديل، تستمع استماعَ صديقةٍ حنونة ومتعاطفة. ولكن عندما قالت الآنسة آن إن وقت الجريمة كان في العاشرة والنصف، تمكن منها الضعف؛ لم يسعها سوى أن تضطرب. وفي تلك اللحظة من الضعف، أسقطت منديلها. صحيح أنها التقطته في الحال. لكنها وضعت قدمها حيث سقط المنديل، وعندما انتهت القصة تمامًا، ونهضنا من مقاعدنا، دارت على عقبها بعنف أكيد حتى خلفت في العشب اللين ثقبًا ظاهرًا. كنت حريصًا على معرفة الشيء الذي أحضرته معها من المنزل في منديلها، وأسقطته مع المنديل، ثم دفنته بثقل جسدها كلِّه في التربة حتى لا يراه أحد. في الواقع، تركت قفازي عامدًا كي أعود وأكتشفه. لكنها كانت أسرع مني. فقد أحضرت لي قفازي بنفسها، وكم فوجئت! أنا، هانو، تخدمني مثل هذه الشابة الرقيقة! على كل حال، وجدته لاحقًا عندما كنت أنت وجيراردو والباقون تنتظرونني في المكتبة. كان ذلك هو قرص سيانيد البوتاسيوم الذي أريتك إياه في المديرية. لم تكُن بيتي تعرف مقدار ما ستكشفه آن أبكوت. وكان سُم السهم مخبَّأً في منزل بروبيزار. لكن كان معها شيء آخر في متناول يدها؛ شيء أسرع قتلًا وأشد فتكًا. لذلك ركضت إلى الداخل لتحضره. وصدقني أيها السيد، لقد تطلب الأمر جرأة هائلة أن تجلس هناك وذلك القرص على مقربة من فمها. لقد شحب وجهها كثيرًا. لا أستغرب ذلك. ما أستغربه هو أنها لم تسقط فورًا من كرسيها في حالة إغماء تام أمام أعيننا. لكنها لم تفعل! بل جلست هناك، مستعدة لابتلاع ذلك القرص في الحال إن لزم الأمر، قبل أن تصل يدي إليها. أكرر قولي لك: الأبرياء لا يفعلون ذلك.»

لم يكُن لدى جيم حجة يجيب بها.

وفي نهاية المطاف لم يجد بدًّا أن يقول: «نعم. من المؤكد أنها حصلت على الأقراص من جان كلاديل.»

فتابع هانو: «وبعدها، افترقنا لتناول الغداء، وتمت إزالة الأختام في فترة بعد الظهر. لكن قبل أن يحدث ذلك، كان لا بد من إنجاز بعض الأمور. يجب نقل الساعة من رف المدفأة في غرفة الكنوز إلى الخزانة المطعمة. ويجب أيضًا حرق بعض الرسائل.»

سأل فروبيشر بحماسة: «نعم. ولماذا؟»

فهزَّ هانو كتفَيه.

«لقد أُحرقت الرسائل. ومن الصعب تبين السبب. من جهتي، أظن أن تلك الرسائل القديمة بين سايمون هارلو ومدام رافيار كانت تشير مرارًا إلى الممر السري. لكن هذا مجرد تخمين. بيد أن ما تأكدت منه خلال ساعة الغداء تلك، هو أن هناك ممرًّا سريًّا، وأنه يمتد من غرفة الكنوز إلى منزل بروبيزار. إذ لم يخطئ نيكولا مورو هذه المرة. لقد تبعها إلى منزل بروبيزار، ورأيت أنا من هذا البرج الدخان يتصاعد من المدخنة. انظر، يا سيدي، ها هي تلك! لكن لا يتصاعد الدخان منها اليوم.»

ثم نهض واقفًا وأدار ظهره لجبل مون بلان. كانت الأشجار في الحديقة، وسقف منزل كرينيل المنحدر المزين بنقوش صفراء، ومداخن المنزل، كلها بارزة فوق المباني الأدنى من حولها. لم يكن الدخان يتصاعد اليوم إلا من واحدة من تلك المداخن، وهي تلك الموجودة في أقصى طرف المبنى حيث تقع المطابخ.

«ثم عدنا في فترة ما بعد الظهر. وأُزيلت الأختام. وكنا في غرفة نوم السيدة هارلو، حين حدث أمر لا أستطيع تفسيره.»

فقال فروبيشر بثقة: «اختفاء العَقد»؛ وابتسم هانو ابتسامة عريضة.

وهتف: «انظر! نصبت لك فخًّا، ووقعت فيه على الفور! العقد؟ كلا، كلا، كلا! كنت مستعدًّا لذلك. إنه لإلقاء التهمة على الآنسة آن. حسنًا! لكن لا يكفي أن يُخفى كتاب السهم المسموم في غرفتها. لا، لا بد من منحها دافعًا كذلك. إنها فقيرة؛ ولن ترث شيئًا. إذن، يختفي العقد الذي يساوي ١٠٠ ألف جنيه، ويُترك لك أن تستنتج ما تشاء من اختفائه. كلا، الأمر البسيط الذي لا أستطيع تفسيره مختلف. تذهب بيتي هارلو والطيب جيراردو إلى غرفة جين بودن ليتأكدا من أن صرخة من غرفة السيدة لا يمكن سماعها هناك.»

«نعم.»

«ثم يعود جيراردو.»

«نعم.»

«لكنه عاد وحده. هذا هو الأمر الصغير الذي أعجز عن تفسيره. أين هي بيتي هارلو؟ أسأل عنها قبل أن أدخل غرفة الكنوز، وإذا بها، بكل تواضع وهدوء، قد اندست بيننا من جديد. كنت شديد الفضول بشأن هذا يا صديقي، أؤكد لك أنني ظللت متيقظًا ومنتبهًا لأعرف تفسيره.»

قال فروبيشر: «أتذكر. توقفت عند الباب وسألت عن الآنسة هارلو. تساءلت وقتها عن سبب توقفك. لم أعلق أهمية على غيابها.»

لوَّح هانو بيده في الهواء. كان سعيدًا. كان في مزاج الفنان بعد إنجاز عمله. بعد انتهاء التوتر والألم. والآن فليحُز الأمر إعجابَ المتفرجين!

«وأنت تعرف كل ما كشفته غرفة الكنوز يا سيد فروبيشر. لكنني سأجيب عن سؤال في مذكرتك. ما إن دخلت الغرفة، حتى بدأت أبحث عن مدخل الممر السري القادم من منزل بروبيزار. وقد رأيته على الفور. لا يوجد سوى مكان واحد ممكن. المحفة الفاخرة التي وُضعت بشكل جميل في تجويف الجدار. وقد حرصت ألا أفتِّش بين وسائده بحثًا عن السهم المسموم؛ تمامًا كما كنت حريصًا ألا أطلب المظروف الذي يحمل ختم البريد الذي أُرسلت فيه الرسالة المجهولة. إذا ظنت بيتي هارلو أنها تفوقت على الثعلب العجوز هانو ... فليكن! دَعْها تظن ذلك. ثم صعدنا إلى الطابق العلوي، وهناك وجدت تفسيرًا لذلك الأمر البسيط الذي أزعجني، وهو غياب بيتي هارلو.»

فحدَّق به جيم فروبيشر.

وقال: «كلا، لم أفهم ذلك بعد. دخلنا غرفة الجلوس الخاصة بآن أبكوت. وكتبتُ مذكرتي باستخدام قصبة السهم المسموم، ولاحظتَ ذلك، نعم! لكن أمر غياب بيتي هارلو! لا، لم أفهمه.»

صاح هانو: «لكنك فعلت! إنه ذلك القلم! لم يكن في الصينية المخصصة للأقلام في اليوم السابق، عندما وجدتُ الكتاب. كان هناك قلم واحد فقط؛ ذلك الشيء السخيف الذي تستخدمه الفتيات، ريشة إوزة ضخمة مصبوغة بالأحمر، ولا شيء غيره. لقد وُضعت قصبة السهم هناك لاحقًا. متى؟ بالطبع، الآن فحسب. واضح ذلك. أين كانت القصبة قبل ذلك؟ في أحد مكانين: إما في غرفة الكنوز وإما في منزل بروبيزار. لقد أخذتها بيتي هارلو خلال تلك الساعة من الحرية؛ وحملتها في ثوبها؛ واقتنصت لحظتها المناسبة عندما كنا جميعًا في غرفة نوم السيدة هارلو، وسرعان ما أصبحت في صينية الأقلام الخاصة بالآنسة آن، لتجعل الشكوك أكثر إقناعًا! ثم مشيتُ مع السيد بيكس، الذي كانت لديه خطة رائعة أن أبحث في قنوات الصرف عن علبة ثقاب مليئة باللآلئ. وقد وافقته؛ نعم، هذا هو الحل الوحيد. لقد وجدها السيد بيكس! من جهتي، حصلت على بعض المعلومات المفيدة عن منزل كرينيل ومنزل بروبيزار. حملت هذه المعلومات إلى خبير واسع المعرفة في دار أرشيفات الإدارات، وفي صباح اليوم التالي ألممتُ بكل شيء عن إتيان دي كرينيل المتجهم، والسيدة دي بروبيزار المبتهجة. لذا، بينما كنتَ أنت وبيتي هارلو تتدربان على الرحلة في فال تيرزون، كنتُ ونيكولا مورو منشغلين جدًّا في منزل بروبيزار؛ بالنتائج التي باتت واضحة لك الآن، وإحداها لم أخبرك بها بعد. فقد كان عقد اللؤلؤ في درج طاولة الكتابة.»

جال جيم فروبيشر في أرجاء الشرفة. نعم، لقد اتضحت له المسألة الآن؛ قصة الأهواء الشريرة والغرور، والطمع في السُّلطة بأساليب قاسية. هل هناك بصيص أمل وسط هذا الخراب؟ استدار جيم فجأة نحو هانو. أراد أن يعرف التفصيل الخفي الأخير.

«قلتَ إنك ارتكبت الخطأ الذي لا يُغتفر. ما هو؟»

«طلبت منك أن تقرأ تقديري لآن أبكوت على واجهة كنيسة نوتردام.»

فقال جيم فروبيشر: «وقد فعلت.» كان لا يزال ينظر نحو منزل كرينيل، وقد تحركت ذراعه نحو يسار المنزل. وأشارت أصابعه إلى الكنيسة التي تعود إلى عصر النهضة بقبابها وأروقتها، والتي أوصلته بيتي هارلو إليها بالسيارة.

«ها هي ذي هناك، وتحت رواقها ذاك النحت الرهيب الذي يصوِّر يومَ الحساب.»

فقال هانو بهدوء: «نعم، لكن هذه هي كنيسة سان ميشيل يا سيدي.»

ثم جعل فروبيشر يستدير. فإذا أمامه، في نقطة بينه وبين مون بلان، وبالقرب منه، ترتفع قبة كنيسة رشيقة البناء على الطراز القوطي، وكأنها جوهرة.

«تلك هي كنيسة نوتردام. دعنا ننزل وننظر إلى الواجهة.»

قاد هانو فروبيشر إلى الكنيسة العجيبة وأشار إلى الإفريز. وهناك رأى فروبيشر صورًا لشياطين نصفها حيواني ونصفها بشري، وخنازير بشرية تضحك، ومخلوقات معذبة برءوس ملتوية تنظر إلى الخلف، وكائنات هرِمة وثملة وفاسدة يعجز الخيال عن تصورها؛ وبينهم فتاة واحدة تصلي، وجهها الجميل متألم، ويداها مشبوكتان بشدة في تضرع، صورة للخوف والإيمان، أسيرة وسط هذه الوحوش، تستغيث بالمارة طلبًا للرحمة والعون.

وقال هانو بجدية: «تلك يا سيد فروبيشر، هي ما أرسلتُك كي تراها. لكنك لم ترَها.»

وقد تغير وجهه وهو يتكلم. إذ أشرق بالمودة. ورفع قبعته.

وكان جيم فروبيشر يقف بعينين شاخصتين في دهشة وهو ينظر إلى الإفريز، وذلك حين سمع صوت آن أبكوت خلفه.

وقالت آن وهي تقف بجانب الرجلين: «وكيف تفسر هذا العمل العجيب، سيد هانو؟»

فقال هانو: «سأترك تفسير هذا للسيد فروبيشر يا آنستي.»

والتفت كلٌّ من آن أبكوت وجيم فروبيشر بسرعة نحو هانو. لكنه كان قد اختفى بالفعل.

هنـــداوي